الفكر العربي الحديث

غوستاف لو بون

سيكولوجية الجماهير

ترجمة وتقديم
هاشم صالح



دار الساقي

سيكولوجية
الجماهير

الفكر الغربي الحديث

غوستاف لو بون



ترجمة وتقديم
هاشم صالح



Gostave Le Bon: Psycho logie des foules

الطبعة العربية :

الطبعة الأولى ١٩٩١

ISBN 1 85516 815 4

United Kingdom: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Lebanon: P.O.Box: 113/ 5342, Beirut. بيروت، لبنان ص.ب: ١١٣ /٥٣٤٢،

مقدمة إلى علم النفس الاجتماعي وفكر غوستاف لوبون

بقلم: هاشم صالح

من المعروف أن علم النفس يهتم عادة بدراسة النفسية الفردية ومشاكلها في فترة الطفولة والمراهقة خصوصاً. وعلم التحليل النفسي الذي أسسه فرويد قائم على استبطان الذات الفردية لا الجماعية من أجل تشخيص عقدها النفسية التي قد تكون ابتليت بها في طفولتها الأولى تمهيداً لتحليلها ثم لعلاجها إذا أمكن ذلك. ونحن نعلم مدى تعقيد مصطلحات علم النفس والتحليل النفسي ومدى تشعب مدارسه واتجاهاته وفروعه. ولكن يوجد هناك علم آخر يستخدم مصطلحات علم النفس بطريقة أخرى: إنه علم النفس الاجتماعي. وهو غير معروف كثيراً لدينا على الرغم من أنه أصبح أحد العلوم الإنسانية الأساسية: كعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الأنتربولوجيا (أي الإنسان)، وعلم الإتنولوجيا (أي الإناسة أو الشعوب)، وعلم الألسنيات، وعلم الاقتصاد السياسي، وعلم التاريخ، إلخ. وهذا العلم متطور جداً في الولايات المتحدة الأمريكية، وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية. والواقع أن مؤسسيه الأوائل هم الفرنسيون وغوستاف لوبون بالذات، ولكنهم أهملوه فيما بعد وتأخروا عن ركب البحث في هذا المجال كثيراً. وهدفه دراسة الصراع الناشب بين الفرد والمجتمع كمرحلة أولى، أي مدى انسجام الفرد اجتماعياً أو شذوذه عن خط المجتمع. ولكن العلم يتجاوز هذه المسألة فيما بعد لكي يدرس سلوك المجموعات في المجتمع وليس الأفراد فقط. نقصد الفئات الاجتماعية، أو الطبقات، أو الأقليات، أو الطوائف الدينية. إلخ... والواقع أن هناك تكاملاً بين العلمين وليس

تناقضاً: فعلم النفس الفردي يكمله علم النفس الاجتماعي أو الجماعي. فمن الصعب، إن لم يكن من المستحيل، عزل السلوك الفردي عن الوسط الاجتماعي ـ الثقافي المحيط به. كما أنه من غير الدقيق أن نحرم الذات الفردية من نواياها الخاصة ومشاعرها الذاتية. فكلا الجانبين في حالة تداخل وتفاعل، أو صدام وتنافر.

ولكن الشيء المعروف والمتفق عليه أيضاً من قبل كل علماء النفس ـ بمن فيهم فرويد ـ أن الفرد ما إن ينخرط في جمهور محدد حتى يتخذ سمات خاصة ما كانت موجودة فيه سابقاً. أو قل إنها كانت موجودة ولكنه لم يكن يجرؤ على البوح بها أو التعبير عنها بمثل هذه الصراحة والقوة. لهذا السبب يمكن القول بأن علم النفس المطبق على الجماعات ـ أو على الجماهير ـ يختلف من حيث المنهج والنتائج عن علم النفس الفردي. وبالتالي فله خصوصيته المشروعة. ليس غريباً ـ والحالة هذه ـ أن يكون قد تشكل على هيئة علم متمايز يحتل أهمية كبيرة في ساحة العلوم الإنسانية الحديثة.

بالطبع فإن لعلم النفس الاجتماعي تاريخاً طويلاً، ويمكننا أن نعود به إلى أقدم الفلاسفة والعصور كأفلاطون وأرسطو مروراً بالمفكر العربي ابن خلدون الذي درس في القرن الرابع عشر مسألة انحطاط الدولة الإسلامية في إسبانيا. ومن المعروف أنه كان تلميذاً لفلسفة أرسطو من خلال ابن رشد. وقد حاول استخلاص القوانين العامة التي تتحكم بتطور الجماعات البشرية وانحطاطها عن طريق أخذ العوامل الاقتصادية والنفسية (كمسألة العصبية) بعين الاعتبار. ولكن هذه التأملات تبقى بدائية وبعيدة جداً بطبيعة الحال عن مناهج علم النفس الاجتماعي الحديث ووسائله في العمل. ويمكن أن نذكر بالطبع كرواد بعيدين لهذا العلم أسماء العديد من الفلاسفة الأوروبيين الذين تتابعوا من عصر النهضة وحتى اليوم كهوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩)، وجان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨)، وفورييه (١٧٩٢ ـ ١٨٣٧)، وأوغست كونت مؤسس علم الاجتماع (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧).

ولكن كان ينبغي أن ننتظر مجيء القرن العشرين لكي يتأسس علم النفس الاجتماعي على أسس علمية راسخة. وينبغي التفريق هنا قليلاً بين علم النفس الاجتماعي وعلم النفس الجماعي (Psychologie sociale, psychologie collective). فالثاني يمكن اعتباره فرعاً من فروع الأول. ذلك أن علم النفس الاجتماعي يدرس، كما قلنا سابقاً، العلاقة بين الفرد والمجتمع. ثم عمليات دمج الإنسان في المجتمع أو تحويله إلى كائن اجتماعي. إنه يقوم بالدراسة العلمية للفرد بصفته إنساناً متأثراً بأفراد آخرين وبالمجتمع ككل. وبالتالي فهو يدرس كل المشاكل المتعلقة بالتربية والتثاقف والوسط الاجتماعي الثقافي والتمرين الاجتماعي وتأثيره على الدائرة العاطفية والسلوكية للفرد. وفيها نجد مشاكل البلورة الاجتماعية ـ الثقافية للشخصية (شخصية الفرد) مع كل المفاهيم التي تتضمنها: كمفهوم الدور الذي يلعبه الفرد، ومكانته، ومعايير السلوك الطبيعية أو الشاذة ثم علاقات الأشخاص ببعضهم البعض مع كل عمليات التفاعل والتواصل.

ووسائل العمل التي يستخدمها علم النفس الاجتماعي هي: الروائز الخاصة بعلم المقاييس النفسية (دراسة درجة الذكاء مثلاً)، والاستفتاء، والمقابلات، والتحريات الميدانية، والتجارب المخبرية. وفي حوالي عام (١٩٤٠) كانت تتنازعه ثلاثة تيارات أساسية هي التيار السلوكي (behavioriste) أو التجريبي من حيث المنهج، التيار التحليلي النفسي (أو العيادي الطبي)، والتيار الثقافي المعتمد على علم الإناسة (الإتنولوجيا).

ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم كثرت الدراسات الميدانية والمخبرية في مجال علم النفس الاجتماعي واتخذت أهمية قصوى، نظرية وتطبيقية، في العالم الأنغلوساكسوني. ثم حاولت فرنسا مؤخراً اللحاق بالركب وتدارك ما فات من خلال بعض البحوث الموفقة التي جرت طيلة العشرين سنة الماضية في بعض مراكز البحوث. وتوزعت الاهتمامات بشكل أساسي على المحورين التاليين:

١ ـ مجموعة البحوث المتمحورة حول مسألة تكوين الشخصية ودمجها في الوسط الاجتماعي. وقد استخدمت مكتسبات علم الإناسة والتحليل النفسي ونظريات التدرب أو التمرين. وهذه المدرسة وريثة عالمة الأنتربولوجيا الأمريكية مرغريت ميد (Margaret Mead) إلى حد كبير.

٢ ـ مجموعة بحوث متمحورة حول دراسة الخلافات والتمايزات الموجودة بين الشعوب والأجناس المختلفة. ومنها بحوث أوتو كلينبيرج الخاصة بدراسة الطبقات الاجتماعية والفئات العرقية والقومية. وقد ابتدأت هذه البحوث في الولايات المتحدة، وهي متواصلة في فرنسا حالياً في رحاب المدرسة التطبيقية للدراسات العليا. وأوتو كلينبيرج هو الذي كتب مقدمة الكتاب الذي ترجمناه هنا «سيكولوجية الجماهير». أو «نفسية الجماهير».

أما علم النفس الجماعي (La psychologie collective) فهو ليس إلا الفرع الأخير من فروع علم النفس الاجتماعي، وكثيراً ما يدرس كآخر فصل من فصوله، وكأنه شيء مهمل أو ثانوي. ولكن يبدو من الصعب في عصرنا هذا إهمال مثل هذا العلم الخطير حيث نجد أن كل شيء يعبر عن نفسه بواسطة الكمية والعدد (كالاقتصاد، والدعاية، والإعلان، والايديولوجيات السياسية أو الحزبية أو النقابية أو الدينية، ثم الاضطرابات الاجتماعية التي تقوم بها الجماهير، والاضطرابات العمالية أو الطلابية، والثورات، إلخ...). كل هذه الظواهر تندرج تحت إطار علم النفس الجماعي، أو علم نفسية الجماهير وبالتالي فمن الصعب إهمالها أو استبعادها من ساحة الدراسة العلمية. نقول ذلك وخصوصاً أن علم النفس الجماعي سابق من حيث المنشأ الزمني على علم النفس الاجتماعي، فهو قد نشأ في القرن التاسع عشر على يد بعض الباحثين الإيطاليين قبل أن يتبلور بشكل علمي على يد غوستاف لوبون. يضاف إلى ذلك أن علم النفس الجماعي أو الجماهيري كان أول من اهتم بمسألة هامة جداً: هي مسألة تلك الجاذبية الساحرة التي يمارسها بعض القادة أو الديكتاتوريين على الجماهير والشعوب. وعلم النفس الجماعي

يفيدنا ويضيء عقولنا عندما يشرح لنا جذور تصرفاتنا العمياء والأسباب التي تدفعنا للإنخراط في جمهور ما والتحمس أشد الحماسة للزعيم، فلا نعي ما فعلناه إلا بعد أن نستفيق من الغيبوبة. وربما جعلنا ذلك أكثر حيطة وحذراً في «الإنبطاح» أمام زعيم جديد قد يظهر.

دور فرويد في تطوير علم نفسية الجماهير

قبل أن نتحدث عن دور غوستاف لوبون في هذا المجال، فإننا سنكرس فقرة قصيرة للدور الذي لعبه مؤسس التحليل النفسي: سيغموند فرويد. كنا قد ذكرنا سابقاً بأن التحليل النفسي يهتم بتحليل الشخصية الفردية لا الجماعية. ليس غريباً والحالة هذه أن تكون الكتب التي خصصها فرويد لدراسة علم النفس الجماعي قد جاءت في المرحلة الأخيرة من حياته. ولهذا السبب اعتبرها تلامذته بمثابة اللاعلمية لأنها متأثرة بالشيخوخة والمرض. والواقع أنهم كانوا يأنفون من أن يهتم التحليل النفسي بشيء آخر غير الشخصية الفردية. من هنا إهمالهم لأعمال فرويد الأخيرة أو تغاضيهم عنها وكأنها تحرجهم أو تسيء إلى سمعة الأعمال الأولى الموصوفة وحدها بالعلمية والجدية، ولكن التاريخ أثبت صحة نبوءات فرويد وتحليلاته المتضمنة في هذه الكتب أكثر مما نتوقع. ففرويد الذي شهد الحرب العالمية الأولى وتصاعد الحملات المضادة للسامية في أوروبا الغربية واضطرته الأحداث فيما بعد للهجرة إلى انكلترا ما كان بإمكانه إلا أن يطرح بعض التساؤلات على ظاهرة الجماهير وكيف تتحرك وتهتاج وتلعب دوراً كبيراً في حركة التاريخ. فقد كانت جماهير النازية والفاشية أمامه في طور التحضير والتهيئة. ومن أهم كتبه في هذا المجال «علم النفس الجماعي وتحليل الأنا» و «مستقبل وهم».

وفيهما يبين فرويد أوجه التشابه بين بعض الطقوس الشعائرية والممارسات الهوسية، ويوضح مدى الأهمية والضخامة التي يمكن أن تتخذها أوهام الفكر السحري أو العقائد اللاعقلانية. وأما كتاباه الآخران اللذان صدرا فيما بعد فيشكلان استمرارية لما سبق ومداً للتحليلات

السابقة لكي تشمل المؤسسات الاجتماعية والسياسية أيضاً. وهما «توعُّك في الحضارة» و «موسى والديانة التوحيدية».

والواقع أن علم النفس الجماعي بالنسبة لفرويد ليس إلا نقلاً لمصطلحات التحليل النفسي وتطبيقها على العلم المذكور مع إجراء بعض التعديلات عليها بالطبع لكي تتناسب مع الجماعة أو الجمهور. ففرويد يرى أن لب المشكلة يكمن في الأعماق في كلتا الجهتين: جهة الفرد وجهة الجماعة. وعندما يقول في الأعماق فإنه يقصد اللاوعي بالطبع. هذا على الرغم من أنه يرفض فكرة اللاوعي الجماعي التي يستخدمها كل من يونغ وغوستاف لوبون. فالتحليل النفسي الذي أسسه هو وحده العلمي وليس ذلك الذي أسسه يونغ. وبالتالي فنفس المفاهيم والآليات التي وجدها في اللاوعي الفردي سوف يطبقها على اللاوعي الخاص بالجماعة. وهكذا نجد مصطلح الليبيدو، أي الطاقة الشبقية الحيوية التي تتمثل فيها غريزة الحياة، في صلب الموضوع. وكذلك الغرائز الجنسية والعدوانية، ومفهوم الأنا والأنا العليا، إلخ...

ويرى روبير ماندرو، أحد رواد علم النفس التاريخي أو تاريخ العقليات في فرنسا، أن فرويد كان يريد اكتشاف المنهجية التي تمكنه من «ردم الهوة التي تفصل علم النفس الفردي عن علم النفس الجماعي». ولكن بعض الاتباع الذين جاؤوا على أثره حاولوا دراسة الجماهير والشعوب على هواهم: أي عن طريق المبالغة في استخدام مصطلحات التسميم (تسميم النفوس عن طريق الإشاعات)، والتلاعب بالناس، ووسائل الدعاية. ويرى ماندرو ضرورة الحذر والأناة فيما يخص هذه النقطة ويذكرنا بالبدهية التالية: إن النفسية الجماعية لفئة ما ليست هي مجموع النفسيات الفردية لأعضائها. كما أن الجماعة ليست محصلة لمجموع الأفراد. وهذا يشبه ما يقوله لوبون عن اختلاف الفرد المعزول أو الواحد، عن الجمهور. فما أن ينخرط الفرد في الجمهور حتى يتغير وينصهر.

وبالتالي فإن مناهج التحليل النفسي الخاصة بالأفراد لا يمكن نقلها إلى ساحة الجماعات وتطبيقها عليها إلا في حدود ضيقة جداً، وبعد التعديل الكثير. ولكن الرأي العام الشائع يطبق هذه الأشياء على طريقة الأحكام المسبقة كما هو معلوم. وهي أحكام عنصرية في جوهرها لأنها تقول مثلاً بأن المسلم متعصب لأنه مسلم، أو أن العربي متخلف بجوهره وعاجز عن صنع الحضارة لمجرد أنه عربي (وهي أحكام عنصرية منتشرة جداً في أوساط اليمين المتطرف الأوروبي منذ القرن التاسع عشر وحتى اليوم. انظر بعض تصريحات جان ماري لوبان زعيم اليمين المتطرف في فرنسا مثلاً).

وهنا يمكن أن نفتح قوساً ونقول بأن تركيز غوستاف لوبون على مسألة العرق وأنه هو العامل الحاسم في تحديد سلوك الشعوب والأفراد قد أصبح بالياً ومدحوضاً من الناحية العلمية. ولا يمكن فهم مثل هذا الإلحاح على مسألة العرق إلا إذا موضعناها ضمن سياقها التاريخي في القرن التاسع عشر حيث ازدهرت النظريات العنصرية وتطورت جداً وارتبطت بالفلسفة الوضعية أو بصيغة مبتذلة من صيغ الوضعية والعلموية لا العلمية (Scientisme) فحتى فرويد نفسه لم ينجُ منها لأنها كانت تشكل الايديولوجيا المنبثة لعصر بأكمله، فهو يكتب مثلاً: «كل فرد ينتمي إلى عدة أرواح جماعية: روح عرقه، وروح طبقته، وروح طائفته...»[1].

مهما يكن من أمر، فإنه من المباح استخدام مناهج علم النفس والتحليل النفسي في دراسة الجماهير بشرط التروي في ذلك وعدم التهور. وبشرط عدم استخدامها لترسيخ الأحكام العنصرية كما يفعل لوبون أحياناً. فالجماهير هي الجماهير أينما كانت، ولا معنى للتفريق بين جمهور لاتيني وجمهور أنغلوساكسوني وجمهور إسلامي أو عربي، إلخ... فإذا ما وجدت في ظروف تاريخية معينة انفجرت الجماهير ودمرت، أو أفادت وضحت بنفسها بكل سخاء وكرم من أجل القضايا الكبرى. ويمكننا إذا ما استخدمنا مصطلحات التحليل النفسي بذكاء واعتدال أن نفسر الظواهر الخاصة بالجماهير كظاهرة «العدوى» أو

«التحريض» مثلاً. وهذا ما فعله المؤرخ الفرنسي الكبير جورج لوفيفر في دراساته عن الثورة الفرنسية. فقد استخدمها واستفاد من بحوث لوبون بشكل إيجابي ومعقول من أجل فهم ظاهرة الجماهير الثورية (انظر كتابه: دراسات حول الثورة الفرنسية، عام ١٩٥٤، المطبوعات الجامعية الفرنسية).

علم الجماهير بين الايديولوجيات الدينية والايديولوجيات السياسية

في الماضي كان الدين، أو بالأحرى كانت الايديولوجيا الدينية هي التي تهيج الجماهير وتجيشها لكي تنخرط في الحركات الكبرى (كالحروب الصليبية مثلاً، أو كالدعاية العباسية التي قلبت الدولة الأموية، إلخ...). ولكن بعد أن تعلمنت أوروبا في العصور الحديثة حلت الايديولوجيات السياسية محل الايديولوجيات الدينية في القيام بهذه المهمة. وأصبحت الأحزاب السياسية والنقابات العمالية هي التي تعبىء الجماهير وتجعلها تنزل إلى الشارع. وبدلاً من حروب الأديان السابقة بين البروتستانت والكاثوليك، حلت الحروب العلمانية بين الأحزاب الاشتراكية والأحزاب الليبرالية. يقول الباحث ب. أديلمان بهذا الصدد ما يلي: «لقد حلت السياسة محل الدين، ولكنها استعارت منه نفس الخصائص النفسية. بمعنى آخر أصبحت السياسة ديناً معلمناً، وكما في الدين فقد أصبح البشر عبيداً لتصوراتهم الخاصة بالذات»[٢]. ولكننا شهدنا في السنوات الأخيرة تجييشاً كبيراً للجماهير بواسطة الدين أو بالأحرى الايديولوجيات الدينية في البلدان غير الأوروبية وغير المعلمنة.

ولم يكن علم الجماهير قد اهتم حتى ذلك التاريخ إلا بالحركات الاجتماعية بشكل عام (كالفتنة، والهياج الشعبي، والاضرابات والتنظيمات النقابية والعمالية). هذا بالإضافة إلى اهتمامه بالحروب الصليبية التي جرت في الماضي.

ولكن بدءاً من عصرنا الحاضر ـ وفي العشرين سنة الأخيرة

بشكل خـاص ـ راح بعض الباحثين يهتمون بظاهـرة جديدة هي الجماهـير السياسية المؤطّرة. وعلى أثر أعمـال غوستاف لوبون وفرويد وتـارد ظهـر باحثون جـدد اهتموا بـدراسة الظاهـرة من أمثـال عالم الاجتماع الفرنسي المعروف جـان بودريار وكتـابه «في ظل الأغلبيات الصامتة»، ثم بـول أديلمان المذكور آنفاً و «إنسان الجماهير»، ثم سيرج موسكوفتشي و «عصر الجماهير».

وكـل هؤلاء البـاحثين يطرحون، وإن بأساليب مختلفة، سؤالاً واحـداً يتعلق بمسألة هـذه الظاهر الجديدة التي تـدعى: الجماهير. ثم يتساءلون عن مسألة صعودها القوي على مسرح التـاريخ المعاصر. كما أن القادة المحركين للجماهير من أمثـال: هتلـر، موسوليني، ستـالين، ماوتسي تونغ، غانـدي، قد أصبحـوا موضع تساؤل (بغض النظر عن حـكم القيمة الإيجـابي الذي يمكن أن نطلقه على هذا الأخير تمييزاً له عن البقية، فهـو على طرفي نقيض من هتلـر مثلاً. فالمسألة تخـص القدرة على التجييش وحجـم هذا التجييش أساساً).

والسؤال الذي يطرحه علم الجماهير، أو علم النفس الجماعي، هو التـالي: كـيف أمكن لهؤلاء القادة أن يجيشوا الجماهير بمثل هذا الحـجم؟

بـالطبع لم يعد الباحـثون اليوم يهدفون من وراء القيام بهذه البحـوث إلى اكتشاف طريقة لمعرفة كيفية السيطرة على الجماهير والتحـكم بها كما كـان يفعل غوستاف لوبون، وإنما يهدفون بالدرجة الأولى إلى دراسة الشروط التي تجعل انبثـاق ظاهرة الجماهير ممكنة في هـذا البلد أو ذاك، في هـذا الظرف الزمني المحـدد أو ذاك والتي قد تؤدي إلى توليد أشكال من الحـكم ديمقراطية، أو أشكال أخـرى ديكتاتورية واستبـدادية.

من هو غوستاف لوبون؟

إنه أولاً وقبل كـل شيء مؤسس «علم نفسية الجماهير». وقد ولد

في منطقة النورمانـدي عام (١٨٤١) ومات في بـاريس عن عمر طويل عام (١٩٣١). وكـان ذا روح موسوعية من حـيث البحث عن المعرفة، وقد كـتب في العديد من المجـالات والفروع العلمية. فمن علم الطب في البداية إلى علم الفيزياء النظرية إلى علم الأنتربولوجيا والآثار في الهند كان مسار لوبون طويلاً ومتشعباً. وقد انتهى به أخيراً إلى ساحة علم الاجتماع والنفس أو بالأحـرى علم النفس الاجتماعي حـيث أعـطى خيرة ما عنده ونـال شهرة كبيرة. ويـكفي أن نذكر هـنا بعض أسماء كتبـه التي لاقت رواجاً منقطع النظير في وقتها لكي نعطي فـكرة عن مـدى اتساع معرفته وتشعب همومه واهتماماتـه:

١ ـ حضارة العرب (١٨٨٤).

لحسن الحظ أن الشركة الوطنية للطباعة والتوزيع في الجزائر قد أعادت طبع هذا الكتاب عام ١٩٦٩، أي بعد حوالي المائة عام على صـدوره! (٤٩٤ صفحـة).

٢ ـ حضارات الهند (١٨٨٧).

٣ ـ الحضارات الأولى (١٨٨٩).

٤ ـ القوانين النفسية لتطور الشعوب (١٨٩٤).

٥ ـ سيكولوجية الجماهير (أي علم نفسية الجماهير) (١٨٩٥).

وهو الذي نقدم ترجمته الآن إلى القارىء العربي.

٦ ـ سيكولوجية الاشتراكية (أي تحليل الاشتراكية من وجهة نظر نفسية).

٧ ـ الآراء والعقائد (١٩١١).

٨ ـ الثورة الفرنسية وسيكولوجية الثورات.

هـذه هي بعض عناوين كتبه الأساسية التي تزيد عن الخمسين كتاباً ما عدا المقالات. وهنـاك أيضاً كتـاب آخـر له بعنوان ممتع وجـميل جـداً هو: حياة الحقائق (١٩١٤).

وقد أُعيد طبعه مؤخراً في باريس من قبل جمعية أصدقاء غوستاف لوبون. وفيه يستعرض أبستمولوجيته، أي نظريته في فلسفة المعرفة. فالحقائق ليست مطلقة ولا أبدية، وإنما لها تاريخ محدد بدقة، وعمرها قد لا يتجاوز عمر الزهور، أو قد يتجاوز عمر القرون. إن لها لحظة ولادة ونمو وازدهار مثلها مثل الكائنات الحية، ثم لحظة ذبول فشيخوخة فموت. وتعتقد الباحثة كاترين روفييه أن أبستمولوجية لوبون تشبه إلى حد كبير من حيث نسبيتها وارتيابيتها أبستمولوجية كارل بوبر (Karl Popper) (وهو أكبر عالم أبستمولوجيا في عصرنا الحاضر).

ولكن باعتراف معظم الاختصاصيين فإن كتاب «سيكولوجية الجماهير» هو أشهر كتبه على الإطلاق، وهو الذي بوأه مكانة رفيعة في عالم الفكر والمعرفة. وهو الوحيد الذي قررته الجامعة في برامجها كمرجع بعد أن رفضت صاحبه كأستاذ طيلة كل حياته على الرغم من كل محاولاته. ولكن كم بقي من أسماء أساتذة الجامعة الفرنسية آنذاك في عصرنا الحاضر؟ وما عدا اسم دوركهايم من يعرف اسماً آخر معاصراً لغوستاف لوبون؟ هكذا تذهب المناصب الرسمية وتبقى العبقريات شامخة فوق المناصب والمراكز.

وعلى هذا الكتاب اعتمد معظم الباحثين العالميين فيما بعد من أجل دراسة ظاهرة الجماهير. وهو إنجاز لرائد عبقري وساذج في آن معاً، كما يقول سيرج موسكوفتشي. وأما الرائدان الآخران فهما غابرييل تارد وفرويد. وكان تارد معاصراً للوبون ويقوم بأبحاثه بشكل موازٍ له. وقد حظي بأكبر المناصب الجامعية إذ عيِّن أستاذاً للفلسفة في الكوليج دو فرانس التي تعتبر أعلى مرتبة من السوربون. وقد انتقد تارد كتاب لوبون هذا وكرس لذلك كتاباً كاملاً بعنوان: **الرأي والجمهور**. وصدر عام (١٩٠١) أي بعد ست سنوات من صدور كتاب لوبون. أما فرويد فقد أشاد في كتابه المذكور سابقاً بإسهام لوبون في هذا المجال على الرغم من تحفظاته وانتقاداته وذلك عندما قال: «بتركيزه على دور اللاوعي في الحياة النفسية فإن سيكولوجية السيد لوبون تقترب كثيراً

من سيكولوجيتنا (أو علم نفسه من علم نفسنا)»[٣].

السياق التاريخي والظروف المحيطة بتأليف الكتاب

لكي نفهم فكر لوبون ينبغي أن نعلم أن حياته الطويلة قد أتاحت له أن يشهد انتصار العلم في أواخر القرن التاسع عشر وأزمات الأنظمة الديمقراطية البرلمانية وبزوغ نجم الاشتراكية وصعودها، ثم ظهور تلك القوى الشعبية التي رافقتها وأقلقته كثيراً.

وأما فيما يخص السياق التاريخي السياسي فينبغي أن نعرف أن فرنسا قد خرجت مهزومة وذليلة من حربها مع ألمانيا عام (١٨٧٠) لتعيش حالة التمرد الشعبي المتجسد بكومونة باريس.

وفي مواجهة كل ذلك كان المنطق يقتضي وجود حكومة قوية قادرة على ضبط الأوضاع وإعادة الهيبة والسيادة. ولكن ما هو موجود كان ضعف الحكومات وانقسام الأحزاب السياسية على بعضها البعض وعجزها عن مواجهة المتمردين.

وكانت الدولة الفرنسية تشعر بوجود خطرين، الأول خارجي ويتمثل بألمانيا، والثاني داخلي ويتمثل بالثورة الفرنسية التي لا تعرف كيف تنتهي منذ أكثر من قرن. فقد كان شبحها يخيم على نفوس الحكام.

يقول أحد كبار مؤرخي الثورة الفرنسية المعاصرين فرانسوا فوريه ما يلي: «إن تاريخ القرن التاسع عشر كله كان تاريخ الصراع بين الثورة والارتداد عليها، وذلك عبر حلقات من مثل ١٨١٥، ١٨٣٠، ١٨٤٨، ١٨٥١، ١٨٧٠، كومونة باريس. إلخ...»[٤].

ويكفي أن نقرأ تين أورينان أو حتى روايات إميل زولا، على الرغم من اختلاف هؤلاء فيما بينهم من حيث التوجه المحافظ أو التقدمي، لكي نتيقن من وجود ذلك الخوف من الطبقات الشعبية. ومن أجل مواجهة هذا الخطر كان على المفكرين إيجاد تفسير للأحداث،

أي إيجاد مفتاح يفتح أبواب العصر الحديث ويحل لغزه. فقد كانت أنظار كل الناس في فرنسا آنذاك مركزة على النظام الاجتماعي وتراقب عدم ثبات السلطة السياسية أو استقرارها. فمحاولة الارتداد على الثورة وإعادة النظام القديم بكل ملكيته وكنيسته وكهنته لم تؤد إلى النتيجة المرغوبة، بالرغم من ازدهار العقائد التي تدين أفكار العالم الحديث وتلعن من ينشرونها (كمزاعم العلم، وحق التصويت العام، والمبدأ الأعلى للمساواة بين البشر، إلخ . . .).

وفي هذا الوقت بالذات جاء المنظر غوستاف لوبون. وعلى الرغم من أن الجامعة قد رفضت دخوله إلى صفوفها وكذلك أكاديمية العلوم فإن همته لم تثبط، وإنما راح يفهم العلم فهماً من الفيزياء النظرية إلى الأنتربولوجيا إلى علم النفس. . . ومن خارج الدائرة الرسمية لكبار الجامعيين والأساتذة راح يؤثر على الساحة الثقافية ويصدر الكتاب تلو الكتاب في مختلف المجالات النظرية. وخلال عدة سنوات ألّف أكثر من عشرة كتب طبخ فيها كل النظريات البيولوجية والأنتربولوجية والسيكولوجية. وراح يبلور شيئاً فشيئاً نظريته المتعلقة بسيكولوجية الشعوب ـ أو نفسية الشعوب ـ والأعراق البشرية. وقد استلهم خطوطها العريضة من المؤرخ الاجتماعي هيبوليت تين (Taine) ومن أكبر منظر للعنصرية في فرنسا وأوروبا كلها: غوبينو. وبحسب رأي المؤرخين فإن إسهامه في بلورة تلك النظرية كان حاسماً وكافياً لكي يجعله يحتل مكانة مرموقة يحسد عليها: ألا وهي رائد الفلسفة العنصرية في أوروبا! ولكن هناك رأي آخر في عنصريته أو عدم عنصريته سوف نستعرضه فيما بعد.

وفي أثناء دراسته لمسائل علم النفس هذه اصطدم لوبون بطبيعة الحال بظاهرة الجماهير وهاله أمرها وخصوصاً الجماهير المتمثلة بالحركات الشعبية والإرهاب. وكان الباحثون الإيطاليون قد ألفوا عدة كتب عن هذه الظاهرة واعتبروا هجوم الجماهير على مسرح الأحداث بمثابة عودة أوروبا الحضارية إلى مرحلة البربرية والهمجية. وكان ذكاء لوبون يكمن فيما يلي: لقد عرف كيف يركز انتباهه على هذا الموضوع

ويتناوله من وجهة نظر أخرى غير السائدة ويبني عليه نظرية متكاملة ومتماسكة. وكان الجمهور بأشد الحاجة إليها كما ذكرنا سابقاً.

فقد ابتدأ لوبون بتشخيص أوضاع الديمقراطية البرلمانية التي تولدت عن الثورة الفرنسية كما هو معروف، وحلت محل النظام الملكي والإطلاقي القديم. ولم يقل بأن الحل يكمن في العودة إلى الماضي كما يفعل الذين يحنون راجعين إلى الوراء، ولا في الإشتراكية بطبيعة الحال وإنما في إصلاح النظام البرلماني بشكل يتناسب مع الأوضاع المستجدة. ورأى أن العلة الأساسية لهذا النظام تكمن في عدم التصميم ونقص الإرادة. فقوة الحكم والحاكم تؤدي كما هو معروف إلى استقرار النظام الاجتماعي، وانعدام هذه القوة يؤدي إلى الفوضى واختلال الأوضاع.

صحيح أن غوستاف لوبون يشعر نحو الجماهير الشعبية بالاحتقار. ولكن الجماهير أصبحت حقيقة واقعة، وككل عالم وضعي فإنه لا يمكن أن يحتقر الوقائع المادية القائمة، وإنما ينبغي عليه أن يدرسها ويفهمها ويأخذها بعين الإعتبار. وهكذا يبتدىء بدراسة ظاهرة الجماهير بطريقة علمية. وهو لا يجد منهجيته التحليلية أو التشخيصية لا في علم التاريخ ولا في علم الاقتصاد، وإنما في علم النفس. فعلم النفس يعلمنا أن هناك «روحاً للجماهير»، وهذه الروح مكونة من الانفعالات البدائية، ومكرسة بواسطة العقائد الإيمانية القوية. وهي أبعد ما تكون عن التفكير العقلاني والمنطقي. وكما أن «روح الفرد» تخضع لتحريضات المنوِّم المغناطيسي (أو الطبيب) الذي يجعل شخصاً ما يغطس في النوم، فإن «روح الجماهير» تخضع لتحريضات وإيعازات أحد المحركين أو القادة الذي يعرف كيف يفرض إرادته عليها. وفي مثل هذه الحالة من الإرتعاد والذعر فإن كل شخص منخرط في الجمهور يبتدىء بتنفيذ الأعمال الاستثنائية التي ما كان مستعداً إطلاقاً لتنفيذها لو كان في حالته الفردية الواعية والمتعقلة. فالقائد الزعيم إذ يستخدم الصور الموحية والشعارات البهيجة بدلاً من الأفكار المنطقية والواقعية يستملك روح الجماهير ويسيطر عليها.

هكذا نجد أن الفكرة الأساسية في نظرية غوستاف لوبون بسيطة وواضحة جداً. فهو يريد أن يقول بأن كل كوارث الماضي القريب التي منيت بها فرنسا وكل هزائمها والصعوبات التي تواجهها تعود إلى هجوم الجماهير على مسرح التاريخ وعدم معرفة مواجهته. وهكذا يمكننا أن نفسر سبب ضعف النظام البرلماني الديمقراطي بأنه عائد إلى الجهل بقوانين علم النفس وطرائق تسيير الجماهير. وبعضهم يقول بأن لوبون كان يحلم بنظام برلماني على الطريقة الإنكليزية. وبعضهم الآخر يقول بأنه استبق الجمهورية الخامسة التي أسسها ديغول فيما بعد ووفّر لرئيس الدولة أغلبية قوية في البرلمان تمكنه من حكم فرنسا بشكل قوي وحازم، لا متردد ولا ضعيف كما كان حاصلاً أثناء الجمهورية الثالثة وخصوصاً أثناء الجمهورية الرابعة (حيث كانت تنقلب الحكومة كل شهرين أو ثلاثة).

وبعد أن عبَّر لوبون عن هذه الأفكار بشكل سهل ومبسط، وبعد أن عرضها على هيئة نظرية علمية متكاملة ومتماسكة، فإنه قد أصبح مشهوراً ونال المكانة الرفيعة التي كان يحلم بها عن طريق الدخول إلى الجامعة أو إلى أكاديمية العلوم. يقول سيرج موسكوفتشي، أحد كبار علماء النفسي الاجتماعي في فرنسا اليوم، بهذا الصدد ما يلي:

«وبين عشية وضحاها أصبح لوبون الأستاذ الفكري لمرحلة كاملة بأسرها. وقد حافظ على هذه المكانة حتى نهاية حياته المديدة (...). ولما كان مقيماً في منزله لا يبرحه فقد راحت تتعاقب على زيارته كبريات شخصيات العصر من علمية وفكرية وسياسية كعالم الرياضيات هنري بوانكاريه والفيلسوف بيرغسون والشاعر بول فاليري ثم من رجال السياسة رئيس الجمهورية ريمون بوانكاريه والرئيس الأمريكي تيودور روزفلت. وكانوا يتلقون بكل جدية نصائحه في مجال السياسة والمجتمع. والواقع أن انتشار نظريته قد بلغ أوجه في العشرينات من هذا القرن. ففي ذلك الوقت راح العلم الجديد (علم نفسية الجماهير) يجذب بقوة النخبة الديمقراطية التي تجد فيه الآلة المفهومية أو العلمية التي تؤكد لها خوفها العميق من الجماهير. ولكنها في ذات الوقت تقدم

لها مجموعة من القواعد التي تساعدها على التحكم بعنف الجماهير والسيطرة عليها».

ثم يردف بعد ذلك بقليل:

«الجميع متفقون على أن كتاب «سيكولوجية الجماهير» ومجمل أعمال غوستاف لوبون تشكل نجاحاً منقطع النظير في المكتبات، وأنها إحدى أكبر النجاحات العلمية في كل العصور. وهذا الكتاب هو المانيفست الذي دشن ما يدعى اليوم بعلم النفس الاجتماعي أو الجماعي»(٥).

وحتى مؤسسو مدرسة فرانكفورت الشهيرة لم يأنفوا من ذكر اسم لوبون على الرغم من تقدميتهم بل والثناء عليه وعلى أعماله على الرغم من يمينيته وعنصريته، وعلى الرغم من أفكارهم التقدمية المعادية للفاشية والنازية. فقد كتب أدورنو وهوركهايمر يقولان: «بعد تجارب العقود الماضية (أي الحرب العالمية الثانية ومجازرها) ينبغي أن نعترف بأن أطروحات غوستاف لوبون قد تحققت إلى درجة مدهشة، على الأقل بطريقة سطحية، حتى ضمن إطار الحضارة التكنولوجية الحديثة التي كنا نتوقع أن نجد فيها جماهير أكثر استنارة»(٦).

ومن المعروف أن الشيء الذي صعق فلاسفة مدرسة فرانكفورت هو كيف أن الجماهير قد ثارت باسم الفاشية والنازية في أكثر دول أوروبا تحضراً ورقياً: أي ألمانيا. وكان سؤالهم الأساسي: لماذا لم يستطيع عصر التنوير أن يمنع ذلك؟ بمعنى كيف أن البربرية تعود للانبثاق من جديد حتى بعد التنوير والتحديث وانتصار العلم والتكنولوجيا.

لقد اهتم علم الاجتماع الألماني بكتاب لوبون واعتبره نموذجاً وقدوة حتى مجيء هتلر إلى السلطة وتعبئة الجماهير بشكل لم يسبق له مثيل من قبل في تاريخ البشرية. فقد تأكدت معظم أطروحات لوبون في هذا المجال. وقد انتشرت أفكار لوبون كثيراً وتغلغلت حتى إلى أعماق الناس العاديين وانصهرت في الثقافة العامة إلى درجة أنه يمكن

القول بأن أحد اتجاهات هذا القرن «متأثر بعلم الأحياء الداروييني، وعلم جمال فاغنر وعنصرية غوبينو وعلم نفس لوبون ولعنات بودلير، والنبوءات السوداء لنيتشه وديستوفسكي، ثم أخيراً بفلسفة بيرغسون وعلم التحليل النفسي لفرويد»(٧).

ليس غريباً والحالة هذه أن يجد لوبون في نفسه ماكيافيلي جديداً. إنه ماكيافيلي العصر الجديد، عصر الجماهير. فهو يريد تجديد الفكر السياسي الذي دشنه سلفه الأكبر.

يقول في كتابه علم النفس السياسي: «إن معظم القواعد والقوانين الخاصة بحكم البشر وقيادتهم والتي استخلصها ماكيافيلي لم تعد صالحة منذ زمن طويل. وعلى الرغم من مرور أربعة قرون على هذا الرجل العظيم فإن أحداً لم يحاول إكمال عمله»(٨).

وهنا تكمن رسالته فيما يعتقد، وقد قام بها خير قيام عندما ألّف كل هذه الكتب الشهيرة التي انتشرت في الجمهور انتشار النار في الهشيم. وهكذا راح يتوجه إلى رجالات الدول وقادة الأحزاب السياسية وحكام العصور الحديثة وكأنه يتوجه إلى تلامذته المباشرين.

موقف التيارات الإشتراكية الصاعدة آنذاك من أفكار غوستاف لوبون

كانت الحركات الإشتراكية والأحزاب العمالية هي المعنية الأولى بأطروحات لوبون الجديدة الخاصة بالجماهير. وكانت سياستها قائمة على التسليم بوجود العقلانية فيما يخص تحريك الجماهير والعمل السياسي ككل، مثلهم في ذلك مثل الحركات الليبرالية والأحزاب البورجوازية. فالفكرة الفلسفية التي كانت سائدة ومسيطرة على كلتا الجهتين هي أن الناس يتحركون بشكل عقلاني ويفكرون بمصالحهم بشكل منطقي عندما ينخرطون في العمل السياسي ويتجمهرون ويتظاهرون. . .

ثم جاءت أطروحات لوبون لكي تقلب الأمور رأساً على عقب.

فقد صدمت المفكرين الإشتراكيين لأنها مضادة تماماً لأطروحاتهم. هذا بالإضافة إلى هجوم لوبون في أكثر من موضع على الإشتراكية وجماهيرها وتخوفه من صعودها. والشيء الآخر الذي صدمهم لدى لوبون هو تركيزه على العوامل اللاعقلانية في تسيير الجماهير وقوله بالسمة المحافظة جداً للجماهير. فعلى الرغم من غرائزها الثورية الظاهرية يرى لوبون أن الجماهير تظل محافظة جداً. ذلك أنها تعيد دائماً ما كانت قد دمرته.

وكان رد الفعل الأقوى على أطروحات لوبون قد جاء من جهة المفكر الإشتراكي جورج سوريل، مؤلف الكتاب المعروف «تأملات حول العنف». نقول ذلك على الرغم من أن التعليق النقدي الذي خصصه لكتاب لوبون كان إيجابياً جداً في مجمله. ولكنه رفض وصف الجماهير بالمحافظة كما فعل لوبون، وخصوصاً في المجتمعات التي شهدت التمايز الطبقي. وقد ركز سوريل على انعدام الأطر السوسيولوجية المحسوسة لتحليلات لوبون. ولكن كل هذه الإنتقادات لم تمنعه من الاقتراب من مواقع لوبون بمرور السنوات. والدليل على ذلك اكتشافه لضرورة وجود أسطورة جبارة، وبالتالي لا عقلانية، من أجل تحريك الطبقة العمالية وجعلها ثورية. فلولا الحلم والوهم لما ثارت الجماهير الجائعة لا في الماضي ولا في الحاضر تحت قيادة الزعماء والمحرِّكين. ولولا الوهم الطوباوي بتحقيق الجنة على الأرض لما ثارت الجماهير العمالية في أوروبا تحت قيادة الأحزاب الشيوعية. ولما كان تأثير سوريل في النصف الأول من هذا القرن كبيراً على سياسة عصره فإن أفكار لوبون قد دخلت عن طريقه إلى عقول الناس في كل مكان.

وحتى المنظِّر الإشتراكي الألماني كارل كاوتسكي اعترف بأهمية المشكلة، مشكلة الجماهير، وقال:

«لقد أصبح واضحاً كضوء النهار أن الصراعات السياسية والاقتصادية في زمننا قد أصبحت بدرجات متزايدة من فعل الجماهير». ولكنه راح يدحض فكرة لوبون الخاصة بالتحريض والعدوى والقول

بأن تحريك الجماهير يتم لأسباب نفسية بشكل عام. فهناك أسباب اجتماعية واقتصادية أيضاً. ولكن ذلك لم يمنعه من القبول بفحوى نظرية لوبون، وإن على الرغم منه تقريباً. فالجماهير هي الجماهير في كل مكان أياً تكن الطبقة الإجتماعية التي تنتمي إليها. إن تصرفاتها تظل غير متوقعة، وهدامة، وميالة للمحافظة جزئياً على الأقل. وقد ضرب كاوتسكي على ذلك مثلاً المذابح التي جرت ضد اليهود في أوروبا، وكذلك ذبح السود في أمريكا من قبل البيض. واستخلص قائلاً:

«هكذا نجد أن عمل الجماهير لا يخدم قضية التقدم دائماً. فما يدمره ليس دائماً تلك العقبات الأكثر عرقلة للتنمية. فالجماهير تجيش العناصر الرجعية مثلما تجيش العناصر الثورية»[٩].

سبب إهمال لوبون من قبل علماء الاجتماع المعاصرين

كنا قد أثرنا هذه النقطة بشكل سريع من قبل. ولكن ينبغي أن نفصل فيها القول أكثر. فمعظم علماء الاجتماع والنفس في فرنسا يأنفون من ذكر اسمه أو الاستشهاد علناً بكتبه وآرائه. في الواقع ينبغي ربط ذلك بالمنبت الاجتماعي والطبقي للرجل. فهو ينتمي إلى التراث الليبرالي والبورجوازي. وبالتالي فهو ضد الثورة والفكرة الاشتراكية الصاعدة آنذاك. وهو يفعل ذلك (كما هو واضح في الكتاب) بشكل مباشر وفج.

وهناك سبب آخر لإهمال اسم لوبون هو أن كل الأحزاب السياسية من يمينية ويسارية تستخدم وصفاته في دعاياتها وإعلاناتها وطريقة مخاطبتها للجمهور ولكنها لا تريد أن تعترف بذلك لكيلا تفشل خطتها في التأثير. فكل هذه الوسائل المستخدمة من قبل الأجهزة الحزبية والقادة السياسيين الذين يظهرون على شاشة التلفزيون ترتكز على استراتيجية واحدة هي: الإيمان بلا عقلانية الجماهير ضمنياً ثم التظاهر في نفس الوقت بأنها عقلانية ومنطقية! لهذا السبب يقال بأن كل زعيم سياسي يظهر على شاشة التلفزيون يضع مسبقاً قناعاً على وجهه لكي يقول ما يدغدغ عواطف الجماهير لا ما يعتقده عمقياً بالفعل.

فهـم يحاولون الفصل بين علم النفس وعلم السياسة. فالسياسة سياسة وعلم النفس والمشاكل النفسية شيء آخر فيما يقولون. أما لوبون فيصل بينهما بشكل وثيق عندما يفرق بين الحقيقة الحقيقية «والحقيقة» السوسيولوجية (أي الأفكـار الشائعة لـدى الجمهور والتي هي خـاطئة في الواقع ولكنه يؤمن بها فتصبح حقيقة. بالطبع لوبون لا يستخـدم نفس المصطلح التمييزي الـذي ذكرنـاه ولكنه يعني نفس الشيء. لكأنه يقول: ليس بالحقائـق وحـدها يعيش النـاس وتجـري حركة التـاريخ. وهـذا مبـدأ أبستمولوجي حـديث ومؤكـد).

يقـول عالم الإقتصاد الألماني الكبير شومبيتر بهـذا الصدد ما يـلي:

«إن أهميـة اللاعقلانية في السياسة والتركيز عليها يعـزى دائماً لغوستاف لوبـون. فهـو مؤسس علم نفسية الجماهير أو على الأقل منظره الأول. وذلك عندما استخـلص وإن بنـوع من التضخيم والمبالغة قوانين السلوك البشري المتأثر بالجمهور أو المنخـرط فيه. فقد كشف لنا هـذا المفكر أشياء مشؤومة أو مخيفة، ولكن أحـداً لا يـريد مواجهتها وجهاً لوجـه. وقد وجَّه في ذات الوقت ضربة موجعـة لذلك التصور عن الطبيعة البشرية الذي ترتكز عليه النظرية الكلاسيكية للديمقراطية والأسطورة الديمقراطية للثورات»(١٠).

وهنـاك سبب آخـر لإهمـال لوبون واحتقـاره من قبل التـراث الجامعـي الفرنسي المعاصر هـو تبني أفكـاره وتحـليلاته من قبل الحركة الفاشية في أوروبا. ولعـل ذلك هـو السبب الأهـم. فعـلى الرغم من أن أفكـاره قد دخـلت إلى إيطاليا عن طريق الاشتراكيين الثوريين إلا أن جماعة موسوليني قد استولت عليها بسرعة واستخـدمتهـا في شعاراتهـا ودعاياتهـا. وكـذلك الأمر فيما يخـص الحركة النازية في ألمانية فقد استخـدمته أيضاً لصالحهـا. ويـرى بعض الباحـثين أن تأثير كتـاب لوبون على كتـاب «كفـاحي» لهتلـر أوضح من أن يشار إليه. صحيح أن أفكـاره قد استخـدمت في كـل البلدان الأخـرى تقريباً من أجـل السيطرة على الجمهور والتوصل إلى سـدة السلطة، ولكـن فقط النظام النـازي في

ألمانيا والفاشي في إيطاليا هما اللذان اعترفا بذلك صراحة. وهذا ما لوّثه كثيراً وأساء إلى سمعته.

وهكذا إذا ما سألتهم: لماذا تتجاهلون لوبون؟ أجابوك: لأنه فاشي!

ولكن إذا ما أردنا أن نشمل بنفس الحكم مفكرين آخرين شملنا ماكس فيبر وفرويد نفسه. فقد عبرا عن أفكار مشابهة لأفكاره ولم ينعتهما أحد بالفاشية. والواقع أن سوء حظ لوبون يعود إلى أن هتلر وموسوليني كانا من قرائه! وبالتالي فقد أصبحت إدانة صاحب «سيكولوجية الجماهير» سهلة حتى ولو كنا نعرف عن طريق كتاباته أنه يفضل النظام الديمقراطي بكل عيوبه ونواقصه على الديكتاتورية بكل قوتها وصرامتها. فهو يدين كل أنواع الديكتاتوريات بما فيها الديكتاتورية التي يحسبونها عليه: أي الفاشية. وهذا يعني أنهم قد ألصقوا به تهمة لا يستحقها، ومع ذلك فقد مشت وشاعت. فالإشاعة أقوى من الحقيقة كما يقول لوبون نفسه. ويمكن القول، بمعنى من المعاني، أنه قد راح ضحية الحقائق التي اكتشفها. ويعترف الباحث سيرج موسكوفتشي بأنه ما كان سيجرؤ على إعادة الإعتبار لغوستاف لوبون لولا أن كبار المفكرين الأجانب قد سبقوه إلى ذلك. فالأحكام المسبقة المتعلقة به والشبهات التي تحوم حوله هي من القوة والجبروت في فرنسا بحيث أنها تردع أي باحث عن مجرد التحدث عنه أو حتى ذكر اسمه. يقول موسكوفتشي:

«لقد سبقني إلى الإعتراف به مفكرون ألمان من الدرجة الأولى هم بروخ، شومبيتر، أدورنو. فقد لجأوا إليه من أجل فهم الظاهرة التوتاليتارية (الفاشية) ومن أجل محاربتها. وقد وصل الأمر بأدورنو إلى حد إدانة الربط الكلي بين كتاب «سيكولوجية الجماهير» وبين الفاشية. واعتبر ذلك بمثابة الذريعة السهلة جداً. وراح أدورنو يتساءل: لماذا تكون سيكولوجية الجماعات البشرية التي ندرسها هنا شيئاً خاصاً بالفاشية دون غيرها من الحركات السياسية الأخرى التي تبحث أيضاً

عن دعـم الجماهير وتحـاول تجييش الجماهير؟ فلا فرويد ولا غوستـاف لوبون أقاما مثـل هذا التمييز. فهما قد تحـدثا عن الجمهور «بصفتـه تلك» دون أي تمييز بين جمهور وجمهور بحـسب الأهـداف السياسية للجماعات التي تشكله»[11].

المسألة العنصرية ومفهـوم «العرق التـاريخي»

مما لا ريب فيه أن التمايز المبني على لون البشرة أو الشعر ذو حقيقة واقعة في بـلدان أوروبا، فالعرق الأبيض أو الأشقر الفاتح أفضل، وفقاً للشعور السائد، من العرق الأسمر أو البني الغامق، ناهيك عن الأسود. . . وهـذا التمايز العنصري تـأسس في أوروبا القرن التـاسع عشر على هيئة نظرية متكاملـة حشدت كـل «المبـادىء العلمية» من أجـل تدعيم أركانهـا. لقد كـان القرن التـاسع عشر هو قـرن العرقية أو العنصرية بامتيـاز ولـم ينـج منه أي مفكر تقريباً. فقد راح تصنيف الشعوب إلى أعـراق متفوقة أو عليا وأعراق متخـلفة أو دنيا يشكل بدهية بالنسبة لأنـاس القرن التـاسع عشر. وحـتى شخصية سياسية تقدمية وإنسانية مثل جـول فيرّي صاحـب فكرة العلمنة والمدرسة العامة والشعبية في فرنسا لـم يتردد عن التصريح أمام البرلمان بما يـلي:

«أيهـا السادة، ينبغي أن نتكلم بصوت أعـلى وأقوى! ينبغي أن نقول بـكل صراحة أن للأعـراق العليا حقـاً على الأعراق الدنيا، قـلت إن لها حقـاً بمعنى أن عليها واجـباً. أن عليها واجـب إدخال الأعـراق الدنيا في الحضارة»[12].

(خطـاب ألقي بتـاريخ ٢٨ يوليو ١٨٨٥).

ولكـن هناك فرق بين عنصرية وعنصرية بالطبع. فاستخـدام مفهـوم العرق هنا في خـطاب جول فيرّي ليس سلبياً ولا ينطوي على فـكرة السوء كما يفعل غوبينو مثلاً. فهـو فقط يـريد التنبيه إلى وجـود «شعوب» أكثر تحـضراً من شعوب أخـرى وهذه حقيقة واقعة، ويريد مساعـدة هذه الأخـيرة على اللحـاق بالأولى. انه لا يقصد القول بوجـود تفوق جوهـري أو أزلي للشعوب الأولى على الثانية، بمعنى أن هذه الأخـيرة لا يمكن أن

تساوي الأولى لنقص في عرقها، أي لنقص بيولوجي تكويني. في حين أن هـذا ما يفعله منظر العنصرية الأكبر: غوبينو وكـل النظرية النازية والفاشية الـتي استلهمتـه فيما بعد. ولا يـمكن القول بـأن غوستـاف لوبون عنصري بالمعنى الـذي يقصده غوبينو. فهـو يؤكد مثـلاً بكل قوة على أنه «لا توجـد أعراق صافية في البلدان المتحضرة». وهـذا عـكس أطـروحات غـوبينو. لكن لـديه مفهـوماً للعـرق هـو «العـرق التـاريخي»، أي الـذي يتشكل عبر التـاريخ من خـلال انصهـار عناصر شعب ما ببعضها البعض تدريجياً. فبما أنه لا يؤسس فكـرة العرق على العوامل الشكلية أو الفيزيولوجية، فـإنه راح يؤسسها على عوامل الثقافة والتـراث المشترك لشعب ما. وهي لا تستبعد «التراكمات الوراثية» من ساحتها. لماذا؟ لأن مفهـوم «اللاوعي الجماعي» الـذي يركز عليه لوبون والذي يستمد منه شعب ما الأسباب اللاواعية لأعماله مشكل بالضبط من هذه التراكمـات الوراثية. انه مركـب منهـا كما تتركب الأرض من الطبقات الجيولوجية المتراصة فوق بعضها البعض. وأحياناً يدعو لوبون بنية اللاوعي الجماعي بالتكوين العقلي للشعوب. والشيء الـذي يتحـكم بهذا اللاوعي أو بـذلك التكوين العقلي هو ما يدعوه «بالعرق التـاريخي». ويعرفه على الشكل التـالي:

«عندما تخضـع شعوب من نفس الأصل أو تنتمي إلى أصـول مختلفة ولكن غير متبـاعدة جـداً لنفس العقائد والمؤسسات والقوانين طيلة قرون عديدة فـإنها تشكل عندئذٍ ما كنت قد دعوته في مكان آخـر «بالعرق التـاريخي». وعندئذٍ يمتلك هذا العرق نظاماً أخلاقياً وحـتى دينياً وسياسياً مركباً من مجـموعة من المواضيع والأفكـار والعواطف المشتركة التي هـي منغرسة في النفوس إلى الحـد الذي تقبل فيه دون نقـاش»[١٣].

هـكذا نجـد أن مفهـوم العرق التـاريخي لدى غوستـاف لوبون أقـرب إلى مفهـوم الأمة أو الشعب منه إلى مفهـوم العرق بالمعنى العنصري للكلمة، أي بالمعنى البيولوجي والفيزيولوجي. إنه يختلف مثلاً عن مفهـوم العرق السائد في القرن الثامن عشر والـذي كان يعني «جماعة

عرقية تتمايز عن الجماعات الأخرى بواسطة جملة من الخصائص الجسدية الموروثة والتي تمثل فرادة وخصوصية داخل النوع البشري».

والدليل على عدم عنصريته بالمعنى النازي للكلمة هو أنه لا يعتقد بدوام الحضارة في شعب ما أو عنصر ما. فالتاريخ يعلمنا أن مسار الحضارة دائري، فهي تنتقل من منطقة إلى منطقة، ومن شعب إلى شعب. هذا في حين أن العنصريين الحقيقيين يعتقدون بأن هناك شعوباً خلقت أزلياً لصنع الحضارة، وشعوباً أخرى خلقت للبربرية والهمجية إلى أبد الدهر. فغوستاف لوبون مثلاً لا يستبعد ظهور حضارة «للزنوج» في المستقبل، وربما حلت محل الحضارة الأوروبية يوماً ما بعد أن أصابت هذه الأخيرة عوامل الوهن والشيخوخة. وفي كتابه عن حضارة العرب يكتب قائلاً:

«هل يعني ذلك أن الشعوب نصف المتحضرة أو البربرية لا تحب هي الأخرى أيضاً أن ترتفع إلى مستوى الحضارة الأوروبية؟ هذه ليست عقيدتي على الإطلاق. بل إني أعتقد على العكس إنها سوف تتوصل إلى ذلك يوماً ما. ولكنها لن تتوصل إليه إلا بعد أن تكون قد عبرت الدرجات المتتالية التي تفصلها عنها واحدة بعد الأخرى وليس بقفزة واحدة»[١٤].

نخلص من ذلك إلى القول بأن لوبون ليس عنصرياً بالمعنى المتطرف للكلمة، ولكنه «عنصري» بالمعنى الثقافي والتاريخي، أي بالمعنى الوضعي والعلموي الذي ساد القرن التاسع عشر كله.

اكتشاف ظاهرة الجماهير

عندما ظهرت الجماهير على سطح المسرح الأوروبي كحقيقة واقعة وضخمة وهددت النظام الاجتماعي القائم حاول الباحثون والمفكرون أن يفهموها ويدرسوها. وقد تبلورت ثلاثة أجوبة أساسية على ذلك:

أولاً: الجماهير هي عبارة عن تراكم من الأفراد المتجمعين بشكل مؤقت على هامش المؤسسات وضد المؤسسات القائمة. بمعنى آخر

فإن الجماهير مؤلفة من أشخاص هامشيين وشاذين عن المجتمع. وهكذا نجد أن الجمهور يتطابق، بحسب هذه النظرة، مع «الرعاع» و«السوقة» و«الأوباش». إنهم رجال ونساء بدون عمل محدد ومستبعدون من ساحة المجتمع الفعلية.

ثانياً: الجماهير مجنونة بطبيعتها. فالجماهير التي تصفق بحماسة شديدة لمطربها المفضل أو لفريق كرة القدم الذي تؤيده تعيش لحظة هلوسة وجنون. والجماهير التي تصطف على جانبي الطريق ساعات وساعات لكي تشهد من بعيد مرور شخصية مشهورة أو زعيم كبير للحظات خاطفة هي مجنونة. والجماهير المهتاجة التي تهجم على شخص لكي تذبحه دون أن تتأكد من أنه هو المذنب هي مجنونة أيضاً، فإذا ما أحبت الجماهير ديناً ما أو رجلاً ما تبعته حتى الموت كما يفعل اليهود مع نبيهم والمسيحيون المتعصبون وراء رهبانهم والمسلمون وراء شيوخهم. والجماهير تحرق اليوم ما كانت قد عبدته بالأمس، وتغير أفكارها كما تغير قمصانها.

وهذه الأعمال المتطرفة التي تقوم بها الجماهير ما هي إلا ضرب من أعمال الجنون التي تغذي المشاعر الغامضة وتكشف عن الجانب السري والمظلم من الطبيعة البشرية.

ثالثاً: وأما الجواب الثالث فيزايد على الجوابين السابقين ويمشي خطوة أخرى في اتجاه التهجم على الجماهير ويقول بأنها مجرمة. فهي بما أنها مؤلفة من «الرعاع والأوغاد»، أي من الرجال الغاضبين والحاقدين فإنها تهجم وتقتل وتسلب كل شيء. إنها تجسد العنف الهائج دون أي سبب أو مبرر واضح. وهي تعصى السلطات القائمة وتخرج على القانون. وفي نهاية القرن التاسع عشر تزايد عدد الجماهير في أوروبا، وراحت أعمالها المباغتة تخيف السلطات. وعندئذٍ راح المفكرون الفرنسيون والإيطاليون يتحدثون عن ظاهرة «الجماهير المجرمة»، أي أولئك المجرمين الجماعيين الذين يهددون أمن الدولة وطمأنينة المواطنين وسلامتهم. وكان الباحثون الإيطاليون هم أول من تحدث

عن وجود ظاهرة «الجماهير المجرمة». وهكذا أصبحت الدراسة العلمية للجماهير تمر من خلال «علم القانون الجرائمي». وكان الإيطالي سيجهيل (Sighele) أول من بلور هذه النظرية، وأول من خلع معنى تقنياً واصطلاحياً على مفهوم «الجماهير المجرمة». فهي تضم بحسب رأيه كل الحركات الإجتماعية والمجموعات السياسية من الفوضويين إلى الإشتراكيين. كما وتضم بالطبع العمال وهم في حالة الإضراب عن العمل، أو التجمعات الحاصلة في الشوارع.

لوبون يقترح خطاً جديداً لتفسير ظاهرة الجماهير

تكمن أهمية لوبون في أنه رفض هذه الأجوبة الثلاثة كلها واقترح خطاً جديداً لتفسير ظاهـرة الجماهير وللرد على هـذا السؤال: ما هو الجمهور؟ وكان جوابه يتلخص عموماً على النحو التـالي: الميزة الأساسية للجمهور هي انصهـار أفراده في روح واحـدة وعاطفة مشتركة تقضي على التمايـزات الشخصية وتخـفض من مستوى الملكات العقلية. وهـو يشبه ذلك بالمركب الكيماوي الناتج عن صهر عـدة عناصر مختلفة. فهـي تـذوب وتفقد خصائصها الأولى نتيجة التفاعل ومن أجـل تركيب المركب الجديد. وهـذا التشبيه دليل على مـدى علمية لوبون أو قل «علمويته». فقد كـان غاطساً في منـاخ القرن التـاسع عشر كما قلنا سابقاً. وهـذا القرن الوضعي المؤمن إيماناً مطلقاً بالعلم كان يخـضع العلوم الإنسانية للعلوم الدقيقة. وهـذا ما فعله أيضاً دوركهايـم في ساحة علم الإجتماع مثـلاً. ففي الجمهور يتبع كل شخص شبيهه المجـاور له. والحشد الكبير يجرف الفرد معه مثلما يجرف السيل الحجارة المفردة التي تعترض طريقه. وذلك أياً تكن الطبقة الإجتماعية التي ينتمي إليها عالية أم منخفضة، وأياً تـكن ثقافته أمية أم عالمة جـداً. فهـذا لا يغير في حقيقة الأمر شيئاً.

وينهـض لوبون بشدة ضد آراء الباحـثين الإيطاليين والفرنسيين من أمثـال منافسه تارد (Tarde) والقائلين بـأن الجماهير مجرمة بطبيعتها. ويقول بـأنها ليست مجرمة وليست فاضلة سلفاً. وإنما هـي قد تكون

مجرمة ومدمرة أحياناً، وقد تكون أحياناً أخرى كريمة وبطلة تضحي بدون مصلحة. وأحياناً تكون هذا وذاك في نفس الوقت. وبالتالي فالفكرة الشائعة عن الجماهير بأنها فقط مدمرة وتحب السلب والنهب والشغب من أجل الشغب هي فكرة خاطئة.

الإكتشاف الثاني لغوستاف لوبون: الجمهور والتنويم المغناطيسي

اعتبر لوبون أن المتغيرات التي تطرأ على الفرد المنخرط في الجمهور مشابهة تماماً لتلك التي يتعرض لها الإنسان أثناء التنويم المغناطيسي. وفي الواقع أن لوبون قد استعار هذا التشبيه من علم الطب والطب النفسي على وجه الخصوص. وكان التنويم المغناطيسي قد دخل ساحة العلاج بكل قوة على يد الطبيب شاركو (Charcot) وآخرين. ومارس التنويم المغناطيسي آنذاك سحراً كبيراً على النفوس، ولم نعد نستطيع، نحن المعاصرين، فهم مثل هذا التأثير الكبير بعد أن سقط في ساحة البلى والإستهلاك. إنه يشبه السحر الذي مارسته الكهرباء أثناء اكتشافها للمرة الأولى. يقول الباحث سيرج موسكوفتشي عن السبب في ولادة علم النفس الجماهيري في فرنسا وليس في غيرها: «إذا كان علم نفسية الجماهير قد ولد في فرنسا وليس في إيطاليا أو ألمانيا فإن ذلك عائد إلى التقاطع الحاصل بين الثورات الشعبية ومدارس التنويم المغناطيسي، ما بين انعكاسات ثورة كومونة باريس، والنتائج الطبية للمشافي الفرنسية في نانسي وسالبترير. فقد كانت هذه الثورات تطرح مشكلة، وكانت تلك المشافي تقترح لها حلاً»[١٥].

هكذا نجد أن لوبون كان يفكر بشكل علمي ويحاول أن ينقل إلى ساحة العلوم الإنسانية (ومنها علم نفسية الجماهير) وسائل العلوم التجريبية الدقيقة وأدواتها. وهذا الافتتان بالعلوم الدقيقة كان الصفة المشتركة للمرحلة الوضعية بأسرها كما أسلفنا. وكانت الثقة بالعلم ومقدرته لا تحدها حدود. ويمكن أن نلاحظ هذه التبعية على مدار كتاب لوبون، ومن خلال الأمثلة التي يضربها. فهو يقارن الإنسان

بالحيوان من حيث الغريزة أو القابلية للتحريض والعدوى مثلاً. فالإنسان مأخوذ هنا كمادة للدراسة العلمية والمختبرية مثله في ذلك مثل أي كائن آخر.

وفي الختام، يمكن تلخيص نظرية لوبون حول نفسية الجماهير بالإكتشافات الثلاثة التالية:

١ ـ الجماهير ظاهرة اجتماعية؛ ٢ ـ عملية التحريض هي التي تفسر انحلال الأفراد في الجمهور وذوبانهم فيه؛ ٣ ـ القائد المحرِّك يمارس عملية تنويم مغناطيسي على الجماهير تماماً كما يمارسه الطبيب على المريض.

ويترتب على هذه الإكتشافات الثلاثة المبادىء العلمية التالية:

١ ـ إن «الجمهور النفسي» (Le foule Psychologique) يختلف عن التجمع العادي أو العفوي للبشر في ساحة عامة مثلاً، أو على موقف باص. فالجمهور النفسي يمتلك وحدة ذهنية على عكس هذه التجمعات غير المقصودة.

٢ ـ الفرد يتحرك بشكل واعٍ ومقصود أما الجمهور فيتحرك بشكل لاواعٍ. ذلك أن الوعي فردي تحديداً، أما اللاوعي فهو جماعي.

٣ ـ الجماهير محافظة بطبيعتها على الرغم من تظاهراتها الثورية. فهي تعيد في نهاية المطاف ما كانت قد قلبته أو دمرته. ذلك أن الماضي أقوى لديها من الحاضر بكثير، تماماً كأي شخص منوّم مغناطيسياً.

٤ ـ إن الجماهير، أياً تكن ثقافتها أو عقيدتها أو مكانتها الإجتماعية، بحاجة لأن تخضع لقيادة محرِّك. وهو لا يقنعها بالمحاجات العقلانية والمنطقية، وإنما يفرض نفسه عليها بواسطة القوة. كما أنه يجذبها ويسحرها بواسطة هيبته الشخصية تماماً كما يفعل الطبيب الذي ينوم المريض مغناطيسياً.

٥ ـ إن الدعاية ذات أساس لا عقلاني يتمثل بالعقائد الإيمانية الجماعية. ولها أداة للعمل تتمثل بالتحريض من قريب أو بعيد (أي

بالعدوى). ومعظم أعمالنا ناتجة عن العقائد الإيمانية. أما التفكير النقدي وانعدام المشاعر اللاهبة فيشكلان عقبتين في وجه الإنخراط والممارسة. ويمكن تجاوزها عن طريق التحريض والدعاية. ولهذا السبب ينبغي أن تستخدم الدعاية لغة الصور الموحية والمجازية، أو لغة الشعارات البسيطة والقاطعة التي تفرض نفسها فرضاً دون مناقشة.

ونخلص من كل تحليلات لوبون إلى القول بأن هناك نمطين من الفكر فقط: الأول يستخدم الفكرة المفهومية والثاني يستخدم الفكرة المجازية أو الصورية. والأول يعتمد على قوانين العقل والبرهان والمحاجة المنطقية، وأما الثاني فيعتمد على قوانين الذاكرة والخيال والتحريض. وأكبر خطأ يرتكبه القائد السياسي هو أن يحاول إقناع الجماهير بالوسائل العقلانية الموجهة إلى أذهان الأفراد المعزولين. فالجماهير لا تقتنع إلا بالصور الإيحائية والشعارات الحماسية والأوامر المفروضة من فوق. فمثلاً لكي يهيج السياسي اليميني موريس باريس الشعب الفرنسي فإنه يدين «البورجوازية السامية الكبرى» (أي اليهودية ضمناً) لأنه يعرف أن في أعماق الشعب الفرنسي عاطفة عداء موروثة ضد اليهود. وأما السياسي اليساري موريس توريز، زعيم الحزب الشيوعي سابقاً، فهو يدين في خطاباته حكم «المائتي عائلة» المتحالفة ضد الشعب. فسواء أكانت هناك مائتا عائلة تحكم فرنسا بالفعل أم لا، فإن المسألة ليست هنا ولا تهم في الأمر شيئاً. المهم أن الشعب حساس لهذه اللغة ويتفهمها جيداً ويثور لدى سماعها، مثلما إنه حساس للغة المضادة لليهود.

هذا لا يعني بالطبع أن لوبون يقترح علينا طريقة للتلاعب بعقول الجماهير من أجل تذليلها وقيادتها كما نشاء ونشتهي. فهذا مناقض لمقصده ولمعطيات العلم. والواقع أنه لا يمكن إقناع الجمهور بفكرة ما أو بعقيدة ما إذا لم نكن مقتنعين بها سلفاً، بل ومقتنعين بها حتى درجة الهوس. ولكنه يعتقد أنه لا يمكن التوجه إلى الجماهير بشكل مختلف. فلا يمكن القيام بعمل فردي. فهما من نوعيتين مختلفتين تماماً. ومن يفعل ذلك يكون جاهلاً بقوانين علم النفس. وتكون معاملته مع الجماهير

وكأنها ليست جماهيراً. وهذا ما يؤدي إلى إحباط همتها بدلاً من تجييشها. وقوانين علم النفس هذه هي بالنسبة لغوستاف لوبون بنفس حتمية قوانين علم الإقتصاد أو الفيزياء. وإذا ما استوعبنا هذه القوانين عرفنا كيف نحكم الجماهير ونقود مخيلتها.

ويرى لوبون أنه على هذه المخيلة تم تأثير رجالات التاريخ الكبار، وعن طريق هذا التأثير أنجزت الأديان الكبرى والأعمال التاريخية العظيمة كالمسيحية والبوذية والإسلام وحركة الإصلاح الديني (لوثر) ثم الثورة الفرنسية لاحقاً. ولم يستطع أحد في العالم ولا في التاريخ أن يحكم ضد مخيلة الجماهير هذه بمن فيهم الطغاة الأكثر استبداداً. فحتى هؤلاء كانوا حريصين على إثارة مخيلة الجماهير وإلهاب حماسها عن طريق خطبهم القوية وأسطورتهم الذاتية ومعاركهم الحامية. نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر: نابليون، أو ماوتسي تونغ أو غيرهما.

هاشم صالح

باريس، ١٩٩٠/٩/١٣

توطئة

بقلم: أوتو كلينبيرج

لماذا نقدم طبعة جديدة لكتاب «سيكولوجيا الجماهير» أو علم نفسية الجماهير؟ أليس صحيحاً أن أفكار غوستاف لوبون قد أصبحت لاغية، وأن علم النفس الذي كان يعتنقه مؤسّس على نزعة التصوف العرقي والعنصري، وأن النتائج التي توصل إليها متأثرة بالأحكام المسبقة، وأن ملاحظاته وتحليلاته محصورة ببعض النوادر الصغيرة والآراء الشخصية؟ وهل ينبغي لهذا الكتاب أن يقرأ أو تعاد قراءته من قبل جيل جديد من الباحثين الاجتماعيين أو الاجتماعيين ـ النفسانيين الذين يحرصون على الموضوعية وعلى المقاربة العلمية لفهم سلوك الجماعات وطريقة تصرف الجماهير؟

لا ريب في أن هناك انتقادات عديدة يمكن توجيهها لهذا الكتاب الصغير. وربما كان أهمها يتعلق بطريقة توظيفه لمفهوم الجنس (أو العرق)، هذا المفهوم الذي يستخدمه مرات عديدة لكي يفسر سبب السلوك المتنوع لمختلف أنواع الجماهير. فهو يتحدث مثلاً عن «المستودع الثابت والمهيمن للعرق» بصفته العامل الذي «ينبغي أن يحظى بالمرتبة الأولى» من اهتمام الباحث. وهو يعتقد بأن «روح العرق ـ أي عرق بشري كان ـ تهيمن كلياً على روح الجمهور». كما أنه يعود باستمرار إلى «مفهوم العرق الأساسي» هذا. وهو يعترف بدور اللاوعي في حسم سلوك الجماهير، ولكنه لا ينسى أن يربطه «بالبنية العقلية لعرقنا». وحتى عظمة الحضارات وانحطاطها مرتبطان بحسب رأيه بالمتغيرات الكائنة في الطبيعة، أو في «روح» العرق الذي ننتمي إليه. وليس ذلك

عائداً إلى أنه يطابق بين العرق والثقافة أو التراث، وإنما لأنـه يؤمن بوجود «تراكمـات موروثة». وفيما يخـص هذه النقطة قلة هم علماء الاجتماع المعاصرون الذين يقبلونها.

وهنـاك عدة أشياء أخـرى يمكننا أن نلومـه عليها ونخـتلف معه فيها. فهو من جهـة يولِّد الانطباع بـأن هناك تطابقاً بين «الجمهور» والأعمال المتطرفة التي تصحب الثورة أو ترافقها. وهـو من جهـة أخـرى يـدمج في سيكولوجية الجماهير مداولات هيئة المحلفين في محكمة الجنايات وكـذلك أنواع السلوك التي تتميز بها المجـالس البرلمانية. ونحـن نعلم أن سيكولوجيا واحـدة لا تـكفي اطلاقاً لتفسير طبيعة هذه الفئات المختلفة جـداً. يـضاف إلى ذلك أن معرفته بعلم الإناسة (أي الإتنولوجيا) تظـل تبسيطية ومسطحـة إلى حـد ما. فهـو يتحـدث عن شيوعية بدائية لم يستطع أحـد حـتى الآن أن يبرهـن على وجودها. وهو يشبِّه سيكولوجيا الجماهير بسيكولوجيا الإنسان «البدائي». كما أنه يقوم بتنبؤات تـدعو للسخرية عندما يصرح مثلاً بـأن النقد المسرحي سوف يلغى «خـلال عشرين سنة» لأن كـل رأي شخصي سوف يصبح بـدون قيمة. وهو يعتبر أن التعصب واللاتسامح «يشكـلان الصفة الملازمة بشكل طبيعي لكل عاطفة دينية»، وأن تربيتنا الحالية «تجـند الكثير من الأتباع المتحمسين لأبشع أنواع الإشتراكية». حقـاً أن الكتاب يحتوي على الكثير من الآراء التي ينبغي أن تخضع للمناقشة من جديد.

ولكـن على الرغم من كل شيء فـإن هذا الكتاب يستحق النشر ثانية! وأنا أتذكر أنني عندما قمت بدراساتي الجامعية الأولى عن علم النفس الاجتماعي، فـإن المشكلة الأساسية لهذا العلم كانت في نظر معظم الطلاب وحتى في نظر رجل الشارع هي كتاب «سيكولوجيا الجماهير». لقد أثار كتاب غوستاف لوبون هذا الكثير من المناقشات الكبرى والاعتراضات، ولكنه حـرَّض أيضاً على ولادة عـدد كبير من البحوث والكتب الجديدة. كان علم سيكولوجيا الشكل (الجيشتالت باللغة الألمانية) قد عوَّدنا على الاعتراف بـأن الكلّ هـو أكثر من العناصر التي تشكله، وبالتـالي فـإن الجماعة (أو الجمهور) هـو أكثر من كمية من

الأفراد التي يقل عددها أو يكثر. إن ديناميكية الجماعات البشرية والتجارب التي أجريت على التحريض الاجتماعي لا تتفق مع الكثير من الملاحظات التي أوردها غوستاف لوبون دون برهان. ولكن المشاكل المطروحة حالياً ليست مختلفة جداً عن تلك التي تحدث عنها لأول مرة. وعلى الرغم من كل نواقصه، فإنه قد مارس تأثيراً كبيراً على نشأة هذا العلم وتطوره.

لذلك أقول في النهاية: اقرأوا هذا الكتاب بروح نقدية، ولكن اقرأوه..

أوتو كلينبيرج
أستاذ مشارك في كلية الآداب
والعلوم الإنسانية بجامعة باريس
أستاذ شرف في جامعة كولومبيا

الإهداء

إلى تيوفيل ريبو

مدير «المجلة الفلسفية»

أستاذ علم النفس في الكوليج دو فرانس

عضو معهد فرنسا

تحية محبة



تمهيد (١)

إن مجمل الخصائص المشتركة المفروضة من قبل الوسط المحيط والوراثة على كل أفراد شعب ما تشكل روح هذا الشعب.

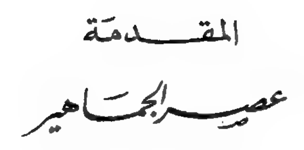
وبما أن هذه الخصائص ذات أصل عائد إلى الأسلاف فإنها ثابتة جداً. ولكن عندما يحدث أن يتجمهر مؤقتاً عدد كبير من الأفراد بتأثير من عوامل عديدة، فإن الملاحظة العيانية تبين لنا بأنه تنضاف إلى خصائصهم السلفية الموروثة مجموعة أخرى من الخصائص الجديدة مختلفة أحياناً إلى حد كبير عن خصائص العرق الذي ينتسبون إليه.

وتجمهرهم يشكل روحاً جماعية جبارة، ولكن مؤقتة.

لقد لعبت الجماهير في التاريخ دائماً دوراً مهماً، ولكنها لم تلعب هذا الدور بنفس حجم الأهمية الذي تلعبه اليوم. فالعمل اللاواعي للجماهير يمثل (بعد أن يحل محل الفعالية الواعية للأفراد) أحدى خصائص العصر الحالي.

---

(١) لم أغيِّر شيئاً في هذا الكتاب الذي كان قد صدر للمرة الأولى عام (١٨٩٥). والأفكار المعروضة فيه والتي كانت تبدو آنذاك غريبة لا معقولة أصبحت اليوم كلاسيكية (أي مقبولة من قبل الرأي العام). وقد ترجم كتاب «سيكولوجيا الجماهير» إلى العديد من اللغات: الإنكليزية، والإسبانية، والروسية، والسويدية، والتشيكية، والبولونية، والتركية، واليابانية، إلخ...



إن الإنقلابات الكبرى التي تسبق عادة تبديل الحضارات تبدو للوهلة الأولى وكأنها محسومة من قبل تحولات سياسية ضخمة. نذكر من بينها الغزو الذي تتعرض له الشعوب، أو قلب السلالات المالكة. ولكن الدراسة المتفحصة عن كثب لهذه الأحداث تكشف لنا غالباً أن السبب الحقيقي الذي يكمن وراء هذه الأسباب الظاهرية هو التغير العميق الذي يصيب أفكار الشعوب. والإنقلابات التاريخية الحقيقية ليست هي تلك التي تدهشنا بضخامتها وعنفها. ذلك أن المتغيرات الوحيدة المهمة (أي تلك التي ينتج عنها تجدد الحضارات) هي تلك التي تصيب الآراء العامة والتصورات والعقائد. وأما الأحداث الضخمة المأثورة التي تتناقلها كتب التاريخ فهي ليست إلا الآثار المرئية للمتغيرات اللامرئية التي تصيب عواطف البشر. وإذا كانت لا تظهر إلى السطح إلا نادراً، فذلك لأن المخزون الوراثي لعواطف عرق بشري ما هو عنصره الأكثر ثباتاً.

إن الفترة الحالية تشكل إحدى اللحظات الحرجة التي نشهد فيها الفكر البشري وهو في طور التحول والتبدل.

وهناك عاملان أساسيان يشكلان الأساس الجذري لهذا التحول هما: أولاً تدمير العقائد الدينية والسياسية والاجتماعية التي اشتقت منها كل عناصر حضارتنا. وأما الثاني فهو خلق الشروط الجديدة كلياً بالنسبة للوجود والفكر. وقد تولّدت عن الاكتشافات الحديثة للعلوم والصناعة.

وبما أن أفكار الماضي لا تزال رازحة وجبارة حتى الآن على الرغم من أنها قد زعزعت، وبما أن الأفكار الجديدة المدعوة للحلول محلها لا تزال في طور التبلور، فإن العصر الحديث يمثل فترة انتقالية وفوضوية.

وبما أن فترة كهذه هي بالضرورة مشوشة وفوضوية، فإنه ليس من السهل أن نتنبأ اليوم بما سيتولد عنها مستقبلاً. فالسؤال المطروح هو: على أية أفكار أساسية سوف تنهض المجتمعات المقبلة التي ستخلف مجتمعنا؟ إننا لا نزال نجهل ذلك حتى الآن. ولكننا نستطيع أن نتنبأ منذ الآن بأنه ينبغي عليها أن تحسب الحساب فيما يخص بنيتها وتنظيمها لقوة جديدة تمثل آخر سيادة تظهر في العصر الحديث: إنها قوة الجماهير وجبروتها. فعلى أنقاض أفكار كثيرة كانت معتبرة صحيحة سابقاً وميتة اليوم، وعلى أنقاض تلك السلطات العديدة التي سحقتها الثورات، نجد أن هذه القوة الجديدة هي وحدها التي نهضت وترسخت. ويبدو أنها سوف تمتص كل الأخريات قريباً. وفي الوقت الذي راحت فيه عقائدنا القديمة تترنح وتتهاوى، وفي الوقت الذي أخذت فيه الأعمدة القديمة للمجتمعات تتساقط الواحد بعد الآخر، فإننا نجد أن نضال الجماهير هو القوة الوحيدة التي لا يستطيع أن يهددها أي شيء. وهي القوة الوحيدة التي تتزايد هيبتها وجاذبيتها باستمرار. إن العصر الذي ندخل فيه الآن هو بالفعل **عصر الجماهير**.

ومنذ قرن فقط، كانت السياسة التقليدية للدول والمنافسات الجارية بين الحكام هي التي تشكل العوامل الأساسية لتحريك الأحداث. ولم يكن لرأي الجماهير في الغالب الأعم أي قيمة. وأما اليوم فنلاحظ أن التقاليد السياسية والتوجهات الفردية للملوك والحكام والمنافسات الكائنة بينهم لا تؤثر على مسار الأحداث إلا قليلاً. وقد أصبح صوت الجماهير راجحاً وغالباً. فهو الذي يملي على الملوك تصرفاتهم. ولم تعد مقادير الأمم تحسم في مجالس الحكام، وإنما في روح الجماهير.

إن دخـول الطبقات الشعبية في الحياة السياسية وتحـولها التدريجي إلى طبقات قائدة يمثل أحـد الخصائـص الأكثر بـروزاً لعصرنا، عصر التحول. وهـذا الحـدث الجديد لم يكن، في الواقع، متأثراً بحـق التصويت العام الذي بقي ضعيفاً طيلة فترة طويلة والذي كان ذا توجه سهل جداً في البداية. وإنما لاحظنا أن ولادة قـوة الجماهير قد نشأت أولاً عن طريق نشر بعض الأفكار التي زُرِعـت في النفوس بشكل بطيء، ثم بواسطة التجميع المتدرج للأفـراد من خـلال الروابط والجمعيات. وقد أدى هذا التجمع إلى تجسيد بعض المفاهيم التي كانت قد بقيت نظرية حـتى ذلك الوقت. وقد أتـاح هـذا التجمع للجماهير أن تبلور الأفكار التي إن لم تكن عادلة جداً، فعلى الأقل كانت واعية جداً بمصالحها وقوتها. وراحـت الجماهير تشكل النقابات التي تنحـني أمامها كـل السلطات وتستسلم. كما وشكلت بورصات للعمل تحـاول، على الرغم من القوانين الإقتصادية السائدة، أن تتحـكم بشروط العمل والأجـور (أو الرواتب). كما وراحـت ترسل مندوبين عنها إلى المجـالس الحكومية التي تتخـذ القرار. وهـؤلاء الممثلون مجـردون من روح المبادرة والإستقلالية الشخصية، وهم في الغالب الأعم ليسوا إلا الناطقين باسم اللجـان التي اختارتهـم.

والـيوم نلاحظ أن مطالب الجماهير قد أصبحت واضحة أكثر فأكثر وتميل إلى تدمير المجتمع الحالي وقلبه عاليه سافله، لكي تعود به إلى تـلك الشيوعية البدائية التي كانت تمثل الحالة الطبيعية لكل الجماعات البشرية قبل فجر الحضارة. وتتمثل هذه المطالب بالأشياء التالية: تحديد ساعات العمل، تأميم المناجم وسكك الحديد والمعامل والأرض، ثم التوزيع المتساوي للسلع والمنتوجات، ثم تصفية الطبقات العليا لمصلحة الطبقات الشعبية، إلخ . . .

إن الجماهير غير ميَّالة كـثيراً للتأمل، وغير مؤهـلة للمحاكمة العقلية. ولكنها مؤهـلة جـداً للإنخـراط في الممـارسة والعمل. والتنظيم الحـالي يجعل قوتها ضخمة جـداً. والعقائد الجـديدة التي نشهد ولادتها أمام أعيننا اليـوم سوف تكتسب قريباً نـفس قوة العقائد القديمة: أي القوة

الطغيانية والمتسلطة التي لا تقبل أي مناقشة أو اعتراض. وهكذا نجد أن الحقوق الإلْهية للجماهير قد أخذت تحل محل القانون الإلْهي للملوك.

إن الكتّاب المقربين من بورجوازيتنا الحاكمة والذين يعتبرون أفضل ممثلين لأفكارها الضيقة ووجهات نظرها المحدودة وشكوكيتها المختزلة وأنانيتها المفرطة أحياناً قد أخذوا يشعرون بالهلع والخوف أمام هذه السلطة الجديدة التي يرونها تبزغ وتكبر أمام أعينهم. وهم لكي يحاربوا هذا الإضطراب الذي يصيب النفوس راحوا يوجهون النداءات اليائسة للقوى الأخلاقية للكنيسة، هذه الكنيسة التي طالما احتقروها في الماضي. وقد أخذوا يتحدثون عن إفلاس العلم ويذكّروننا بتعاليم الوحي وحقائقه. ولكن هؤلاء المعتنقين الجدد للإيمان ينسون أنه إذا كانت العناية الإلْهية قد مسّتهم أخيراً، فإنها لا تمارس نفس التأثير على الآخرين غير المكترثين بمشاكل الدار الآخرة. والجماهير لم تعد تريد اليوم آلهة كان أسيادها السابقون قد تنكروا لها بالأمس وحطموها. فالأنهار لا تعود أبداً إلى منابعها.

يضاف إلى ذلك أن العلم لم يفلس أبداً وليس مسؤولاً عن الفوضى الحالية التي تصيب النفوس، ولا عن القوة الجديدة التي تنمو وتكبر وسط هذه الفوضى. فهو قد وعدنا باكتشاف الحقيقة، أو على الأقل معرفة العلاقات التي هي في متناول قدراتنا العقلية. ولكنه لم يعدنا أبداً بتحقيق السلام ولا السعادة. فهو لا يبالي اطلاقاً بعواطفنا، ولا يسمع نواحنا وتأوهاتنا، ولا شيء قادر على إعادة الأوهام التي أزالها وطردها.

وهناك أعراض كونية عديدة موجودة لدى مختلف الأمم وتشهد على النمو السريع لقوة الجماهير. ومهما حمل لنا ذلك من أشياء جيدة أو سيئة، فإننا مضطرون لأن نشهد الظاهرة ونتعرض لها. ولن تؤدي الشتائم والاتهامات إلى أي نتيجة. وربما كان مجيء عصر الجماهير يمثل أحدى آخر مراحل حضارة الغرب. ربما كان يمثل العودة إلى

فترات الفوضى المضطربة التي تسبق عادة ولادة المجتمعات الجديدة. ولكن كيف نمنع مجيء ذلك العصر؟

كان تدمير الحضارات العتيقة قد مثَّل حتى هذه اللحظة الدور الأكبر الذي تلعبه الجماهير. والتاريخ يعلمنا أنه عندما تفقد القوى الأخلاقية التي تشكل هيكل المجتمع زمام المبادرة من يدها، فإن الإنحلال النهائي يتم عادة على يد هذه الكثرة اللاواعية والعنيفة التي تدعى، عن حق، بالبرابرة. وقد كانت الحضارات قد بنيت ووجهت حتى الآن من قبل أرستقراطية مثقفة قليلة العدد، ولم تبنَ أبداً من قبل الجماهير. فهذه الأخيرة لا تستخدم قوتها إلا في الهدم والتدمير. كما أن هيمنتها تمثل دائماً مرحلة من مراحل الفوضى. فالحضارة ـ أية حضارة ـ تتطلب قواعد ثابتة، ونظاماً محدداً، والمرور من مرحلة الفطرة إلى مرحلة العقل، والقدرة على استشراف المستقبل، ومستوى عالياً من الثقافة. وكل هذه العوامل غير متوافرة لدى الجماهير المتروكة لذاتها. فالجماهير بواسطة قوتها التدميرية فقط تمارس فعلها كالجراثيم التي تساعد على انحلال الأجسام الضعيفة أو الجثث. وعندما تنخر أسس الحضارة، فإن الجماهير تجيء لكي تقوضها. وفي تلك اللحظة بالذات يتجلّى دورها. وعندئذٍ تصبح القوة العمياء للكثرة هي الفلسفة الوحيدة للتاريخ.

فهل سيحصل ذلك لحضارتنا؟ إننا نجهل النتيجة حتى الآن، ولكننا نخشاها.

لنستسلم إذن لحكم الجماهير، ذلك أن الأيدي الجاهلة قد حطمت كل الحواجز التي كان بإمكانها أن توقفها عند حدها.

وهذه الجماهير التي ابتدأ الناس يتحدثون عنها بكثرة لا تزال معرفتنا بها ضعيفة جداً. فبما أن علماء النفس المحترفين قد عاشوا بعيداً عنها فإنهم تجاهلوها باستمرار. ولم يهتموا بها إلا من خلال الجرائم التي قد ترتكبها. وهناك جماهير مجرمة بدون شك، ولكن هناك أيضاً جماهير فاضلة، وجماهير بطلة، وجماهير أخرى عديدة أيضاً. وجرائم الجماهير

لا تشكل إلا حالة خاصة من نفسيتها، ولا يمكننا التعرف عليها فقط من خلالها إلا إذا كان بإمكاننا معرفة الفرد من خلال عيوبه وحدها.

في الواقع أن أسياد العالم ومؤسسي الأديان أو الامبراطوريات ورسل كل العقائد ورجالات الدول العظام وعلى مستوى أقل زعماء الفئات البشرية الصغيرة، كلهم كانوا علماء نفس على غير وعي منهم. وكانوا يعرفون روح الجماهير بشكل فطري، وفي الغالب بشكل دقيق وموثوق جداً. وبما أنهم يعرفونها جيداً ويعرفون كيف يتعاملون معها فإنهم قد أصبحوا أسيادها. فنابليون بونابرت مثلاً كان ينفذ بشكل رائع إلى أعماق نفسية الجماهير الفرنسية، ولكنه كان يجهل بشكل كلي أحياناً نفسية الجماهير التي تنتمي إلى أجناس أو أعراق مختلفة[1].

وهذا الجهل قاده إلى خوض الحروب في إسبانيا وروسيا خصوصاً، هذه الحروب التي أدت فيما بعد إلى سقوطه.

إن معرفة نفسية الجماهير تشكل المصدر الأساسي لرجل الدولة الذي يريد ألا يُحكَم كلياً من قبلها، ولا أقول يحكمها لأن ذلك قد أصبح اليوم صعباً جداً.

إن نفسية الجماهير تبين لنا إلى أي مدى يكون تأثير القوانين والمؤسسات ضعيفاً على طبيعتها الغرائزية العنيفة. كما وتبين لنا إلى أي مدى تبدو عاجزة عن تشكيل أي رأي شخصي ما عدا الآراء التي لقنت لها أو أوحيت إليها من قبل الآخرين. ولا يمكن للقواعد المشتقة من العدالة النظرية الصرفة أن تقودها. وحدها الانطباعات التي يمكن توليدها في روحها يمكنها أن تجذبها. نضرب على ذلك المثل التالي: إذا ما أراد مشرِّع ما أن يفرض ضريبة جديدة، فهل ينبغي عليه أن يختار الضريبة الأكثر عدالة نظرياً؟ بالتأكيد لا. فالضريبة الأكثر ظلماً يمكنها أن تكون الأفضل عملياً بالنسبة للجماهير إذا كانت الأقل مرئية والأقل ثقلاً من حيث المظهر. وهكذا يمكن للضريبة غير المباشرة أن تصبح دائماً مقبولة من قبل الجماهير حتى لو كانت باهظة. فبما أنها موزعة يومياً على مواد الاستهلاك بمبالغ زهيدة جداً، فإنها لا تزعج عادات الجماهير

ولا تخيفها. ولكن إذا ما بدلناها بضريبة تتناسب طرداً مع الرواتب أو الموارد الأخرى وطلب من الجماهير أن تؤديها دفعة واحدة فإنها ستثير الاحتجاجات الهائجة حتى ولو كانت أقل من السابقة بعشر مرات. ذلك أنه محل القروش اللامرئية التي تدفع كل يوم، قد حل مبلغ كلي مرتفع نسبياً، وبالتالي فيثير الانتباه والاعتراض. وهو لا يمر بسهولة إلا إذا دفع يومياً شيئاً فشيئاً. وهذه الحيلة الاقتصادية تحتاج من أجل اكتشافها إلى قدر من الذكاء والفطنة، وهذا ما تعجز عنه الجماهير.

إن هذا المثل يضيء لنا عقلية الجماهير بأوضح ما تكون. وهذا ما لم يخف على خبير نفساني يدعى نابليون. ولكن المشرعين الذين يجهلون روح الجماهير لا يمكنهم أن يفهموها. فالتجربة لم تعلمهم بالشكل الكافي حتى الآن أن البشر لا يتصرفون أبداً انطلاقاً من مبادىء العقل النظري المحض.

وهناك تطبيقات أخرى عديدة يمكننا أن نجريها على نفسية الجماهير. ومعرفة هذه النفسية تلقي أضواء باهرة على العديد من الظواهر التاريخية والاقتصادية التي تبدو غير مفهومة اطلاقاً بدونها.

إن نفسية الجماهير تستحق الدراسة إذن، حتى ولو لم يكن ذلك إلا بغرض الفضول المحض. ذلك أنه من الممتع أن نحلل الدوافع التي تحرك البشر من أجل الإنخراط والممارسة، مثلما هو ممتع أن نحلل معدناً ما أو نبتةً ما.

ودراستنا لروح الجماهير لا يمكنها أن تكون إلا توليفة مختصرة، أو مجرد تلخيص لأبحاثنا. وبالتالي فلا ينبغي أن يطلب منها القارىء أكثر من بعض الآراء ووجهات النظر الموحية. ذلك أنه سيأتي باحثون آخرون ويعمقون الخط أكثر. فنحن لا نفعل اليوم إلا مجرد رسمه على أرضية لا تزال مجهولة جداً حتى الآن[٢].

الكِتابُ الأول

روح الجماهير

الفصـل الأول

الخصائص العامة للجماهير
القانون النفسي لوحدتها الذهنية

إن كلمة جمهور تعني في معناها العادي تجمعاً لمجموعة لا على التعيين من الأفـراد، أياً تـكن هويتهم القومية أو مهنتهم أو جنسهم، وأياً تـكن المصادفة التي جمعتهم.

ولكن مصطلح الجمهور يتخـذ معنى آخـر مختلفاً تماماً من وجهـة النظر النفسية. ففي بعض الظروف المعينة، وفي هذه الظروف فقط، يمكن لتكتل ما من البشر أن يمتلك خصائص جديدة مختلفة جـداً عن خصائص كل فـرد يشكله. فعندئذٍ تنطمس الشخصية الواعية للفرد، وتصبح عواطف وأفكار الوحـدات المصغرة المشكلة للجمهور موجهـة في نفس الاتجاه. وعندئذٍ تتشكل روح جماعية، عابـرة ومؤقتـة بـدون شك، ولكنها تتمتع بخصائص محـددة ومتبلورة تماماً. وعندئذٍ تصبح هذه الجماعـة ما سأدعـوه بالجمهور المنظم نظراً لعـدم امتلاكي مصطلحاً آخـر. أو قل إنها تصبح جمهوراً نفسياً (سيكولوجياً). إنها تشكل عندئذٍ كينونة واحـدة وتصبح خاضعة لقانون الوحـدة العقلية للجماهير.

وظاهـرة أن الكثيرين من الأفـراد يجـدون أنفسهم متجمعين إلى جـانب بعضهم البعض عن طريق المصادفة لا تخـلع عليهم خصائص الجمهور المنظَّم. فـألف فـرد مجتمعون بالمصادفة على الساحة العامة بـدون أي هـدف محـدد لا يشكلون اطلاقاً جمهوراً نفسياً. ولكي يكتسبوا خصائصه المحـددة ينبغي أن يحصل تأثير بعض المحرضات التي سنتحـدث عنها لاحـقاً ونكشف عن طبيعتها.

إن ذوبان الشخصية الواعية للأفراد وتوجيه المشاعر والأفكار في اتجاه واحد يشكل الخصيصة الأولى للجمهور الذي هو في طور التشكل. ولكن ذلك لا يتطلب بالضرورة الحضور المتزامن للعديد من الأفراد في نقطة واحدة. ذلك أنه يمكن لآلاف الأفراد المنفصلين عن بعضهم البعض أن يكتسبوا صفة الجمهور النفسي في لحظة ما وذلك تحت تأثير بعض الإنفعالات العنيفة أو تحت تأثير حدث قومي عظيم مثلاً. وإذا ما جمعتهم صدفة ما كانت كافية لكي يتخذ سلوكهم فوراً الهيئة الخاصة بأعمال الجماهير. ويمكن لنصف دزينة من البشر أن يشكلوا، في ساعات معينة من التاريخ، جمهوراً نفسياً، هذا في حين أن المئات من البشر المجتمعين بطريق الصدفة في مكان ما يمكنهم ألا يشكلوه. من جهة أخرى نلاحظ أن شعباً بأكمله يمكنه أن يصبح جمهوراً بتأثير من هذا العامل أو ذاك بدون أن يكون هناك تجمع مرئي.

ذلك أنه ما إن يتشكل الجمهور النفسي حتى يكتسب خصائص عامة ومؤقتة، ولكنها قابلة للفرز والتحديد. وتنضاف إلى هذه الخصائص العامة خصائص خاصة متغيرة بحسب العناصر التي يتألف منها الجمهور، والتي يمكنها أن تعدل من بنيته العقلية.

وبالتالي فإن ذلك يعني إمكانية تصنيف الجماهير النفسية. ودراسة هذا التصنيف سوف تبين لنا بأن الجمهور غير المتجانس والمؤلف من عناصر متباعدة يتميز بنفس الخصائص المشتركة التي تتصف بها الجماهير المتجانسة. والمؤلفة من عناصر متشابهة قليلاً أو كثيراً (نقصد بالعناصر هنا الطوائف، أو الفئات أو الطبقات). ولكن توجد بالإضافة إلى هذه الخصائص المشتركة خصوصيات تتيح لنا إقامة التمايز بينها.

قبل أن نهتم بدراسة الفئات المختلفة من الجماهير، دعونا نتفحص أولاً الخصائص المشتركة لدى الجميع. ونحن نفعل ذلك على طريقة عالم الطبيعيات والنباتات فنبتدىء بتحديد الخصائص العامة

لأفراد عائلة واحدة ثم الخصائص الخاصة التي تقيم التفريق والتمايز بين الأنواع والأصناف التي تنطوي عليها هذه العائلة بالذات.

وليس من السهل دراسة روح الجماهير، وذلك لأن تركيبتها تختلف ليس فقط بحسب العرق البشري وتشكيلة الجماعات، وإنما بحسب طبيعة المحرضات التي تتعرض لها ودرجة قوتها. ونصطدم بنفس الصعوبة في الواقع إذا ما أردنا القيام بدراسة نفسية لكائن ما. ففي الروايات نجد أن الأفراد يتحلون بخصائص ثابتة ومستمرة، ولكن ليس في الحياة الواقعية. وحدها تماثلية البيئة تخلق التماثلية الظاهرية للخصائص والسمات. كنت قد بينت في مكان آخر أن كل التشكيلات العقلية أو الذهنية تحتوي على إمكانيات خصائص يمكنها أن تبرز إلى السطح تحت تأثير التغيير المفاجىء للبيئة. وهكذا يمكننا تفسير وجود بورجوازيين وديعين في صفوف الثوار الفرنسيين الهائجين. وكان يمكن لهؤلاء البورجوازيين أن يكونوا في الحالات العادية كتّاب عدل مسالمين أو رجال قضاء فاضلين. وما إن تمر العاصفة (عاصفة الثورة) حتى يستعيدوا خصائصهم النفسية الطبيعية. وقد عثر نابليون في صفوفهم على أفضل خدمه وأكثرهم طاعة.

ولما كنا لا نستطيع أن ندرس هنا كل مراحل تشكل الجماهير، فإننا سوف ندرسها بشكل خاص في المرحلة الأخيرة والمكتملة من تنظيمها. وعندئذٍ يمكننا أن نرى ماذا يمكن أن تصبح، ولكن ليس ماهيتها الدائمة. ذلك أنه في مثل هذه المرحلة المتقدمة من التنظيم فقط، وعلى الخلفية الثابتة والمهيمنة للعرق، يمكن لبعض الخصائص الجديدة والخصوصية أن تجيء وتتموضع على السابقة. وتؤدي بذلك إلى توجيه كل مشاعر الجماعة وأفكارها في اتجاه واحد. وعندئذٍ يتجلّى ما كنت قد دعوته سابقاً **بالقانون النفسي للوحدة الذهنية للجماهير**.

والكثير من الخصائص النفسية للجماهير موجودة لدى بعض الأفراد المعزولين، ولكن هناك خصائص أخرى لا يمكن أن نجدها إلا

لـدى الجماعات أو التجـمعات. وسوف نحـاول أن نـدرس أولاً هـذه الخصائـص الخصوصية لكي نبين مـدى أهميتها.

والظاهـرة التي تدهشنا أكثر في الجمهور النفسي هي التـالية: أياً تـكن نوعية الأفـراد الـذين يشكلونه، وأياً يـكن نمط حياتهم متشابهاً أو مختلفاً وكـذلك اهتماماتهم ومزاجهـم أو ذكاؤهـم، فـإن مجـرد تحولهم إلى جمهـور يزودهم بنوع من الـروح الجماعية. وهـذه الروح تجعلهم يحسـون ويفكرون ويتحركـون بطريقة مختلفة تماماً عن الطريقة التي كان سيحس بها ويفكر ويتحـرك كل فرد منهم لو كان معزولاً. وبعض الأفكار والعواطف لا تنبثق أو لا تتحـول إلى فعل إلا لـدى الأفـراد المنطوين في صفوف الجمهور. إن الجمهور النفسي هو عبارة عن كائن مؤقت مؤلف من عناصر متنافرة ولكنهـم متراصو الصفوف للحـظة من الزمن. إنهم يشبهون بالضبط خلايا الجسد الحي التي تشكل عن طريق تجمعها وتوحدها كائناً جديداً يتحـلى بخصائص جديدة مختلفة جـداً عن الخصائص التي تمتلكها كل خـلية.

وعـلى عكس الرأي الشائع الـذي يدهشنا أن يتبناه فيلسوف في حجـم وألمعية هيربيرت سبنسر فـإنه لا يوجـد في التجـمع الذي يشكله جمهور ما حـاصل ومتوسط للعناصر، وإنما يوجـد فقط تركيب وخـلق للخاصيات. وهـذا يشبه ما يحصـل في مجـال الكيمياء. فبعض العناصر المستخـدمة في التركيب كالقواعد والحوامض مثـلاً تتداخل في بعضها البعض وتتركب من أجـل تشكيل مادة جديدة مزودة بخصائص مختلفة عن تـلك الخصائص التي كانت تتحـلى بها العناصر المفردة قبل تركيبها.

هـكذا نلاحـظ بـكل سهولة إلى أي مـدى يكون الفرد المنخـرط في الجمهور مختلفاً عن الفرد المعزول. ولكن الشيء الأقـل سهولة هو اكتشاف أسباب مثل هـذا الإختـلاف.

ولكي نتوصل إلى اكتشافها ينبغي أن نتذكر أولاً هذه الملاحظة الخاصة بعلم النفس الحـديث: إن الظواهر اللاواعية تلعب دوراً حـاسماً ليس فقط في الحياة العضوية أو الفيزيولوجية، وإنما أيضاً في طريقة

اشتغال الذهن أو آليّة العقل. والحياة الواعية للروح البشرية لا تشكل إلا جزءاً ضعيفاً جداً بالقياس إلى حياتها اللاواعية. والمحلل الأكثر فطنة والمراقب الأكثر ذكاء ونفاذاً لا يستطيع التوصل إلا إلى اكتشاف عدد ضئيل جداً من البواعث اللاواعية التي تحركه. فأفعالنا الواعية متفرعة عن جوهر لا واع مشكّل من التأثيرات الوراثية بشكل خاص. وهذا الجوهر ينطوي على البقايا اللانهائية الموروثة عن الأسلاف، وهي التي تشكل روح عرق بشري ما. ذلك أنه وراء الأسباب الظاهرية لأعمالنا تربض أسباب سرية مجهولة من قبلنا. ومعظم أعمالنا اليومية ناتجة عن دوافع مخبوءة تتجاوزنا.

إن أفراد عرق ما يتشابهون خصوصاً بواسطة العناصر اللاواعية التي تشكل روح هذا العرق. وهم يختلفون عن بعضهم البعض بواسطة العناصر الواعية الناتجة عن التربية ثم بشكل أخص عن الوراثة الاستثنائية. والبشر الأكثر اختلافاً وتمايزاً من حيث الذكاء لهم غرائز وانفعالات وعواطف متماثلة أحياناً. والرجال الأكثر عظمة وتفوقاً لا يتجاوزون إلا نادراً مستوى الناس العاديين في كل ما يخص مسائل العاطفة: من دين وسياسة وأخلاق وتعاطف وتباغض، إلخ. . . فمثلاً يمكن أن توجد هوة سحيقة بين عالم رياضيات شهير وصانع أحذيته على المستوى الفكري، ولكن من وجهة نظر المزاج والعقائد الايمانية فإن الإختلاف معدوم غالباً، أو قل إنه ضعيف جداً.

وهذه الصفات العامة للطبع التي يتحكم بها اللاوعي والتي يمتلكها معظم الأفراد الطبيعيين لعرقٍ ما بنفس الدرجة تقريباً هي بالضبط تلك التي نجدها مستنفرة لدى الجماهير. فالكفاءات العقلية للبشر وبالتالي فرادتهم الذاتي تمّحي وتذوب في الروح الجماعية. وهكذا يذوب المختلف في المؤتلف وتسيطر الصفات اللاواعية.

وهذا الإستنفار المشترك للصفات العادية هو الذي يفسر لنا السبب في أن الجماهير لا تستطيع إنجاز الأعمال التي تتطلب ذكاء عالياً. فالقرارات ذات المصلحة العامة التي تتخذها جمعية متميزة من

البشر ولكن من اختصاصات مختلفة ليست متفوقة كثيراً على القرارات التي يتخذهـا تجمع من البلهاء. ذلك أنه يمكنهم أن يجمعوا هذه الصفات المتدنية التي يمتلكها الجميع. فالجماهير لا تجمع الذكاء في المحصلة وإنما التفاهة. فـليس المجتمع يمتلك ذكاء أكثر من فولتير كما يـرددون غالباً. وإنما فولتير يمتلك ذكاء أكثر من المجـموع إذا كان «المجـموع» يعني الجماهير.

ولكـن إذا كان الأفـراد المنضوون في صفوف الجمهور يقبلون بـذوبان خصوصيتهم وصفاتهم العادية، فـإننا نتوصل إلى معـدل وسطي وليس إلى خـلق صفات جديدة كما ذكرنا سابقاً. فبـأي طريقة تتشكل هذه الصفات؟ لنبحـث عنها دفعة واحـدة.

هناك أسباب عديدة تتحكم بظهـور الصفات الخاصة بالجماهير. وأولها هـو أن الفرد المنضوي في الجمهور يكتسب بواسطة العدد المتجـمع فقط شعوراً عارماً بالقوة. وهـذا ما يتيح له الإنصياع إلى بعض الغرائز، ولولا هذا الشعور لما انصاع. وهو ينصاع لها عن طوع واختيـار لأن الجمهور مُغْفَل بطبيعته وبالتـالي فغير مسؤول. وبما أن الحس بالمسؤولية هـو الـذي يـردع الأفراد فـإنه يخـتفي في مثل هذه الحالة كلياً.

وأما السبب الثاني فهـو العدوى العقلية أو الذهنية. فهـي تتدخل أيضاً لـكي ترصد لدى الجماهير تجليات الصفات الخاصة، ثم لـكي توجهها في نفس الوقت. والعـدوى ظاهرة تسهل ملاحظتها، ولكنها غير مفسَّرة حـتى الآن. وينبغي أن نربطها بالظواهر ذات التنويم المغناطيسي التي سندرسها بعد قـليل. فـلدى الجمهور نجـد أن كـل عاطفة وكـل فعل هما معديان بطبيعتهما، وهـما معديان إلى حـد أن الفرد يضحي بسهولة كـبيرة بمصلحته الشخصية من أجـل المصلحة الجماعية. وهـذه قابلية معاكسة لطبيعته، ولا يمكن للمرء أن يمتلكها إلا إذا أصبح جـزءاً من الجمهور.

وهنـاك سبب ثالث أكثر أهمية وحسماً بـكثير لأنه يوجـد في الأفـراد

المنخرطين في الجمهور صفات خصوصية تكون أحياناً معاكسة لصفات الفرد مأخوذاً على حدة. أقصد بذلك هنا صفة التحريضية التي لا تشكل عدواها المذكورة آنفاً إلا أثراً من آثارها.

ولكي نفهم هذه الظاهرة ينبغي أن تكون لدينا بعض المعلومات عن آخر الاكتشافات الحديثة لعلم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا). فنحن نعلم اليوم أنه يمكن وضع الفرد في حالة معينة يفقد فيها شخصيته الواعية، وبالتالي فهو يخضع لكل اقتراحات الجراح الذي جعله يفقدها. وعندئذٍ يقترف أكبر الأعمال مخالفة لطبعه الحقيقي وعاداته. وعلى نفس الشاكلة نجد أن المراقبة اليقظة قد برهنت على أن الفرد المنضوي منذ بعض الوقت في وسط جمهور هائج سرعان ما يسقط في حالة خاصة تشبه كثيراً حالة الإنجذاب الشديد الذي يشعر به المنوَّم مغناطيسياً تجاه منوِّمه. وبما أن حياة الدماغ تصبح مشلولة لدى الإنسان المنوَّم مغناطيسياً، فإنه يصبح عبداً لكل فعالياته اللاواعية. ويصبح منوِّمه قادراً على توجيهه الوجهة التي يشاء. وهكذا تصبح الشخصية الواعية مغمياً عليها، وتصبح إرادة التمييز والفهم ملغاة. وعندئذٍ تصبح عواطف المنوَّم وأفكاره موجهة في الإتجاه الذي يحدده المنوِّم.

هذه هي حالة الفرد المنخرط في الجمهور. وقد قدمنا لها وصفاً متكاملاً تقريباً. فهذا الفرد لا يعود واعياً بأعماله. فحالته تشبه حالة المنوَّم مغناطيسياً، بمعنى أن بعض ملكاته تصبح مدمَّرة، في حين أن بعضها الآخر يستثار ويستنفر إلى الحد الأقصى. وتأثير كل اقتراح يملى عليه أو كل تحريض يمثل قوة طائشة لا يمكن ردها من أجل تنفيذ بعض الأعمال. وهذه القوة الهائجة تكون عادة أقوى لدى الجماهير منها لدى الإنسان المنوَّم مغناطيسياً. فبما أن المحرِّض هو واحد بالنسبة لكل أفراد الجمهور، فإنه يتضخم ويكبر عن طريق التبادل. وأفراد الجمهور الذين يمتلكون شخصية قوية جداً تمكّنهم من مقاومة المحرِّض هم ذوو عدد ضئيل وبالتالي فإن التيار يجرفهم معه. وكل ما يستطيعونه هو محاولة تحويل الأنظار باتجاه آخر عن طريق تقديم اقتراح مختلف .وأحياناً تجيء كلمة في الوقت المناسب أو تثار

صورة معينة فتحـول الجماهير عن اقتراف أبشع الأعمال الدموية.

إذن إليكم الآن مجموع الخصائص الأساسية للفرد المنخـرط في الجمهور: تـلاشي الشخصية الواعية، هيمنة الشخصية اللاواعية، توجه الجميع ضمن نفس الخط بواسطة التحـريض والعدوى للعواطف والأفكار، الميل لتحـويل الأفكار المحرَّض عليها إلى فعل وممارسة مبـاشرة. وهـكذا لا يعـود الفرد هـو نفسه، وإنما يصبح عبارة عن إنسان آلي ما عـادت إرادته بقادرة على أن تقوده.

هـذا يعني أنه بمجـرد أن ينضوي الفرد داخـل صفوف الجمهور فـإنه ينزل درجـات عديدة في سلم الحضارة. فهـو عندما يـكون فرداً معـزولاً ربما يـكون إنساناً مثقفاً متعقلاً، ولكنـه ما إن ينضم إلى الجمهور حتى يصبح مقوداً بغريزته وبالتـالي همجياً. وهو عندئذٍ يتصف بعفوية الكائنات البدائية وعنفها وضراوتها وحماستها وبطولاتها أيضاً. ويقترب منها أكثر بالسهولة التي يترك نفسه فيها عرضة للتأثـر بالكلمات والصور التي تقوده إلى اقتراف أعمال مخالفة لمصالحه الشخصية بشكل واضح وصريح. إن الفرد المنخرط في الجمهور هو عبارة عن حبـة رمل وسط الحبات الرملية الأخـرى التي تذروها الرياح على هواها.

عـلى هذا النحو يمكننا أن نفهم كـيف أن هيئات التحـكيم الجماعية تصدر أحـكاماً كان يمكن أن يدينها كـل عضو مأخـوذاً على حدة. وهكذا نفهم كـيف أن المجـالس البرلمانية تتبنى القوانين والمراسيم التي كان سيخالفها كـل عضو مؤخوذاً على حـدة. وإذا ما نظرنا إلى أعضاء الجمعية التأسيسية بعد الثورة الفرنسية وجدنا أنهم كانوا بورجوازيين هـادئين ذوي عادات مسالمة. ولكنهـم ما إن اندمجـوا بالجمهور حتى أصبحوا هائجين متحمسين. ولم يترددوا تحت تأثير بعض المشاغبين في أن يرسلوا إلى المقصلة الأشخاص الأكثر بـراءة. وقد ساروا بذلك عكس مصالحهـم الخاصة وتخـلوا عن حصانتهم البرلمانية وأبادوا أنفسهم بأنفسهم.

إن الفرد المنخـرط في الجمهور لا يختـلف فقط بالأعمال

والتصرفات عن نفسه وهو في الحـالة العادية، وإنما نلاحـظ أنه حـتى قبل أن يفقد كـل استقلالية فـإن أفكاره وعواطفه قد تحـولت وتغيرت إلى درجة القدرة على تحـويل البخيل إلى كريم، والشكّاك إلى مؤمن، والرجـل الشريف إلى مجـرم، والجبـان إلى بـطل. إن تخـلي النبلاء الفرنسيين عن كـل امتيازاتهـم وتصويتهم على قـرار التخـلي هـذا في لحظة حماسة واندفاع في تـلك الليلة الشهيرة لأربعة أغسطس/آب من عام (١٧٨٩) ما كان ممكناً أن يحصل أو يقبل من قبل كل واحـد منهم مأخـوذاً على حـدة.

لنلخص كـل الملاحظات السابقة قائلين بـأن الجمهور هـو دائماً أدنـى مرتبـة من الإنسان المفرد فيما يخـص الناحيـة العقلية والفكرية. ولكـن من وجهـة نظر العواطف والأعمال التي تثيرها هـذه العواطف فـإنه يمكن لهـذا الجمهـور أن يسير نحـو الأفضل أو نحـو الأسوأ. وكـل شيء يعتمد على الطريقة التي يتم تحريضه أو تحريكـه بها. وهذه هي النقطة التي جهلها الكتـاب الذين لم يـدرسوا الجماهير من وجهـة النظر الجرائمية. صحيح أن الجماهير غالباً ما تكون مجرمة، ولكنها غالباً ما تكون أيضاً بـطلة. فمن السهل اقتيادهم إلى المذبحة والقتل بـاسم النضال من أجـل انتصار عقيدة إيمانية أو فكـرة ما. ومن السهـل تحريكهم وبث الحماسة في مفاصلهم من أجـل الدفاع عن المجـد والشرف. وبالإمكان تجييشهم واقتيادهم بدون خـبز وبـدون سلاح تقريباً كما حصل أثنـاء الحروب الصليبية من أجـل تخليص قبر المسيح من أيـدي الكفـار، أو من أجـل الدفاع عن تـراب الوطن كما حـصل عام (١٧٩٣) أي بعد قيام الثورة الفرنسية بـأربع سنوات فقط. صحيح أنها بطولة لا واعية إلى حـد ما، ولكن التـاريخ لا يصنع إلا من قبل بطولات كهـذه. وعلى فرض إننا لم نتذكر من فضائل الشعوب إلا الأعمال التي أنجزتهـا بـكل برودة أعصاب وعقلانية هادئة، فـإن حوليات العالم لن تسجـل إلا العدد القليل جـداً منها.

الفصل الثاني

عواطف الجماهير وأخلاقيتها

بعد أن تحدثنا بشكل عام جداً عن الخصائص الأساسية للجماهير، سوف نتحدث الآن عنها بالتفصيل.

إن العديد من خصائص الجماهير الخصوصية من مثل سرعة الإنفعال والنزق والعجز عن المحاكمة العقلية وانعدام الرأي الشخصي والروح النقدية والمبالغة في العواطف والمشاعر، وغيرها،

كل ذلك نلاحظه لدى الكائنات التي تنتمي إلى الأشكال الدنيا من التطور كالشخص المتوحش أو الطفل مثلاً. وهذه المقارنة التشبيهية لا أثيرها هنا إلا عرضاً. فالبرهنة عليها تتجاوز حدود هذا الكتاب وإطاره. وسوف تكون بلا جدوى بالنسبة للمطلعين على علم نفس الأشخاص البدائيين، وسوف يكون اقناعها ضعيفاً بالنسبة لأولئك الذين يجهلونه.

سوف أتناول الآن الخصائص الأساسية الواحدة بعد الأخرى، هذه الخصائص التي تسهل ملاحظتها لدى معظم أنواع الجماهير.

١ ـ سرعة انفعال الجماهير وخفتها ونزقها

كنا قد قلنا سابقاً عندما درسنا الخصائص الأساسية للجمهور بأنه مقود كلياً تقريباً من قبل اللاوعي. فأعماله واقعة تحت تأثير النخاع الشوكي أكثر مما هي واقعة تحت تأثير المخ أو العقل. ويمكنها أن تنجز هذه الأعمال بكل دقة وتمام من حيث التنفيذ. ولكن بما أنها غير

موجهة من قبل المخ فإن الفرد يتصرف على هوى صدف التحريض والإثارة. إن الجمهور، الذي يمثل لعبة واقعة تحت تأثير كل المحرضات الخارجية، يعكس متغيراتها التي لا تتوقف. وبالتالي فهو عبد للتحريضات التي يتلقاها. والفرد المعزول يمكنه أن يخضع لنفس المحرضات المثيرة كالإنسان المنخرط في الجمهور. ولكن عقله يتدخل ويبين له مساوىء الانصياع لها، وبالتالي فلا ينصاع. ويمكننا أن نحدد فيزيولوجيا هذه الظاهرة عن طريق القول بأن الفرد المعزول يمتلك الأهلية والكفاءة للسيطرة على ردود فعله، هذا في حين أن الجمهور لا يمتلكها.

إن الإنفعالات التحريضية المختلفة التي تخضع لها الجماهير يمكنها أن تكون كريمة أو مجرمة، بطولية أو جبانة وذلك بحسب نوعية هذه المحرضات. ولكنها سوف تكون دائماً قوية ومهيمنة على نفوس الجماهير إلى درجة أن غريزة حب البقاء نفسها تزول أمامها. (بمعنى أنها مستعدة للموت من أجلها).

وبما أن المحرضات القادرة على تهييج الجماهير متنوعة ومتعددة، وبما أن الجماهير تنقاد لها دائماً، فإننا نجدها حيوية ومتحركة إلى أبعد حد. فنحن نجدها تنتقل في لحظة واحدة من مرحلة الضراوة الأكثر دموية إلى مرحلة البطولة المطلقة. إن الجمهور يمكنه بسهولة أن يصبح جلاداً، ولكن يمكنه بنفس السهولة أن يصبح ضحية وشهيداً. فمن أعماقه سالت جداول الدم الغزيرة الضرورية لانتصار أي عقيدة أو إيمان جديد. ولا داعي للعودة إلى العصور البطولية لكي نعرف مدى إمكانيات الجماهير وقدراتها. فهي لا تبخل أبداً بحياتها عندما يحدث الهياج الشعبي. والدليل على ذلك أن جنرالاً في الجيش أصبح شعبياً فيما بعد واستطاع أن يسوق معه مائة ألف شخص مستعدين للتضحية بأنفسهم من أجل قضيته. (المقصود نابليون).

وإذن فلا شيء متعمَّد أو مدروس لدى الجماهير. فهي تستطيع أن تعيش كل أنواع العواطف وتنتقل من النقيض إلى النقيض بسرعة البرق وذلك تحت تأثير المحرض السائد في اللحظة التي تعيشها. إن

الجماهير تشبه الأوراق التي يلعب بها الإعصار ويبعثرها في كل اتجاه قبل أن تتساقط على الأرض. إن دراسة بعض الجماهير الثورية تقدم لنا بعض الأمثلة عن تغير عواطفها وتنوعها وتقلبها.

وهذه الصفة الحركية المتغيرة التي تتميز بها الجماهير تجعل من الصعب حكمها، وخصوصاً عندما يسقط جزء من السلطات العامة في يدها. ولو أن ضرورات الحياة اليومية لا تشكل نوعاً من الميزان الناظم غير المرئي للأحداث لما استطاعت الأنظمة الديمقراطية أن تستمر. ولكن الجماهير التي ترغب في الوصول إلى الأشياء بنوع من السعار المجنون لا تثبت عليها لفترة طويلة. فهي عاجزة عن الإرادة الدائمة مثلما هي عاجزة عن التفكير الدائم والمستقر.

ولكن الجمهور ليس فقط انفعالياً ومتقلباً. وإنما هو أيضاً كالإنسان الهمجي لا يعبأ بأي عقبة تقف بين رغبته وبين تحقيق هذه الرغبة. نقول ذلك وخصوصاً أن عدده الكبير يشعره بامتلاك قوة لا تقاوم. فمهوم المستحيل لا معنى له بالنسبة للفرد المنخرط في الجمهور. فالإنسان المعزول يعرف جيداً أنه لا يستطيع أن يحرق قصراً أو ينهب مخزناً، وبالتالي فإن مجرد التفكير بذلك لا يخطر على باله. ولكنه ما إن ينخرط في الجمهور حتى يحس بالقوة الناتجة عن العدد والكثرة. وفي أي فرصة تسنح للقتل أو النهب فإنه ينصاع فوراً ولا يتردد في اقتراف ذلك. وكل عقبة مفاجئة تعترض طريقه يكسرها بجنون مسعور. وإذا كان الجسم البشري يسمح بتأبيد الهيجان فإنه يمكننا القول بأن الحالة الطبيعية للجمهور المغيظ هي الهيجان.

وفي نزق الجماهير وانفعاليتها وتقلبها وفي كل العواطف الشعبية التي سندرسها لاحقاً تتدخل دائماً الخصائص الأساسية للعرق. فهذه الخصائص تشكل الأرضية الثابتة التي تنبت عليها عواطفنا أو مشاعرنا. لا ريب في أن الجماهير ـ كل الجماهير ـ تتسم بالنزق والانفعالية، ولكن بدرجات متفاوتة ومتغيرة. فالفرق بين الجمهور اللاتيني والجمهور الانغلوساكسوني مثلاً يثير الدهشة حقاً. والأحداث القريبة التي شهدها

تاريخنا تلقي أضواء ساطعة على ما نقول. ففي عام (١٨٧٠) كان مجرد نشر برقية تتضمن شتيمة مزورة كافياً لإنفجار الغضب الذي أدى مباشرة إلى إشعال حرب رهيبة. وبعد بضع سنوات من ذلك التاريخ كان الإعلان برقاً عن حصول فشل لا أهمية له في لانغسون قد ولّد انفجاراً جديداً أيضاً أدى إلى القلب الفوري للحكومة الفرنسية. ولكن تعرضت حملة إنكليزية أمام الخرطوم في نفس اللحظة لفشل آخر (أو لهزيمة أخرى) أكثر أهمية بكثير ولم ينتج عنها في إنكلترا إلا انزعاج خفيف، ولم يستقل أي عضو من أعضاء الحكومة. إن الجماهير أنثوية في كل مكان، ولكن أكثرها أنثوية هي الجماهير اللاتينية. والقائد الذي يعتمد عليها يمكنه أن يصعد عالياً وبسرعة شديدة ولكنه يحاذي الخطر باستمرار ويعرف يقيناً أنه سوف يسقط يوماً ما لا محالة.

٢ ـ سرعة تأثر الجماهير وسذاجتها وتصديقها لأي شيء

قلنا سابقاً بأن إحدى الخصائص العامة للجماهير هي سرعة تأثرها بأي اقتراح، وبيّنا حجم عدوى وانتشار أي اقتراح يطلق في تجمع بشري معين. وهذا ما يفسر لنا القدرة على التوجيه السريع لعواطف الجمهور باتجاه محدد.

وأياً تكن حيادية الجمهور، فإنه يجد نفسه في غالب الأحيان في حالة من الترقب المهيأة لتلقي أي اقتراح. وأول اقتراح يظهر يفرض نفسه مباشرة عن طريق العدوى والانتشار لدى كل الأذهان، ثم يحدد الاتجاه الذي ينبغي اتباعه حالاً. ولدى الأشخاص المستثارين تميل الفكرة الثابتة إلى أن تتحول إلى فعل. وسواء أكان هذا الفعل هو حرق قصر أم القيام بعمل خيري جليل فإن الجمهور ينخرط من أجله مباشرة وبنفس السهولة. وكل شيء يعتمد على طبيعة المحرِّض، وليس على العلاقات الكائنة بين العمل المحرَّض عليه وبين حجم السبب الذي قد يعاكس تحقيقه كما هو عليه الحال لدى الفرد المعزول.

إن الجمهور يشرد باستمرار على حدود اللاشعور ويتلقى بطيبة خاطر كل الاقتراحات والأوامر. كما أنه مليء بالمشاعر الخاصة

بالكائنات غير القادرة على الاحتكام للعقل ومحروم من كل روح نقدية. وبالتالي فهو لا يستطيع إلا أن يبدي سذاجة وسرعة تصديق منقطعة النظير. والمستحيل غير موجود بالنسبة له، وينبغي التذكير بذلك من أجل أن نفهم كيف تخلق الأساطير والحكايات الأكثر غرابة وشذوذاً، وكيف تشيع وتنتشر بسهولة[1].

إن خلق الأساطير التي تنتشر بمثل هذه السهولة في أوساط الجماهير ليس فقط ناتجاً عن سرعة كاملة في التصديق، وإنما عن تشويه هائل أو تضخيم هائل للأحداث في مخيلة الأفراد المحتشدين (أي الجمهور). فالحدث الأكثر بساطة يتحول إلى حدث آخر مشوه بمجرد أن يراه الجمهور. فالجمهور يفكر عن طريق الصور، والصور المتشكلة في ذهنه تثير بدورها سلسلة من الصور الأخرى بدون أي علاقة منطقية مع الأولى. ويمكننا أن نتصور بسهولة هذه الحالة عن طريق التفكير بالتتابع الغريب للأفكار الذي يقودنا إليه تذكر حدث معين. والعقل يبين لنا عدم تماسك مثل هذه الصور، ولكن الجمهور لا يرى ذلك. فالواقع إنه يخلط بين التضخيم الذي يلحقه بالحدث وبين الحدث ذاته. وبما أنه غير قادر على التمييز بين الذاتي والموضوعي فإنه يعتبر الصورة المثارة في خياله بمثابة الواقعية والحقيقية، هذا على الرغم من أنها ذات علاقة بعيدة جداً مع الواقعة المرئية.

ومن المتوقع أن تكون التضخيمات والتشويهات التي يلحقها جمهور ما بحدث مايشهده شخصياً، كثيرة جداً وذات معان متعددة، وذلك لأن الأشخاص الذين يشكلون الجمهور ذوو طباع شديدة الاختلاف والتنوع. ولكن الواقع غير ذلك أبداً. ذلك أنه بسبب العدوى، فإن هذه التشويهات هي ذات طبيعة واحدة ومعنى واحد بالنسبة لكل أفراد الجماعة. فأول تشويه يلحظه أحدهم يشكل نواة التحريض المُعدِي. نضرب على ذلك مثلاً القديس جورج. فقبل أن يظهر على جدران القدس بالنسبة لكل الصليبيين، كان قد ظهر فقط لأحد الحاضرين أولاً. وعن طريق التحريض والعدوى فإن المعجزة التي شاهدها هذا الشخص قد أصبحت مقبولة من قبل الجميع.

هذه هي الآليّة التي تحرك تلك الهلوسات الجماعية المتكررة كثيراً جداً في التاريخ، والتي تبدو وكأنها تمتلك كل الخصائص الكلاسيكية للصحة والموثوقية لأنها تخص ظواهر ملاحظة من قبل آلاف الأشخاص.

والقيمة العقلية للأفراد الذين يشكلون الجمهور لا تنقض هذا المبدأ. فهي غير ذات أهمية. ذلك أنه بمجرد أن يجتمع هؤلاء على هيئة جمهور فإن الجاهل والعالم يصبحان عاجزين عن الملاحظة والنظر.

وقد تبدو هذه الفكرة تناقضية. ولكي نبرهن عليها ينبغي أن نستعيد عدداً كبيراً من الوقائع التاريخية. ولو قمنا بتأليف عدة كتب عن هذه النقطة لما كفاها.

ولكن بما أني لا أريد أن أترك القارىء يتلقى هذه الأقوال دون برهان، فإني سأقدم له بعض الأمثلة التي يمكن تناولها بالمصادفة من بين كل الأمثلة العديدة التي يمكننا ملاحظتها.

والواقعة التالية التي سأذكرها تعتبر نمطية وعامة لأنها مختارة من بين تلك الهلوسات الجماعية التي تحل بالجمهور الذي يتواجد فيه أفراد من كل نوع سواء أكانوا جهلة أم متعلمين. وقد ذكر عرضاً من قبل ضابط البحرية جوليان فيليكس في كتابه عن تيارات الماء البحرية.

كانت الفرقاطة الملقبة بالدجاجة الجميلة تنتشر في البحر من أجل العثور على السفينة الحربية الملقبة بالمهد التي كانت عاصفة عنيفة قد فصلتها عنها. وكان ذلك في عز النهار تحت السماء ذات الشمس الساطعة. وفجأة رأى مراقب السفينة زورقاً مضطرباً خائفاً. وعندئذٍ وجه الفريق أنظاره نحو النقطة المرصودة، أي نحو الزورق. ورأى الجميع من ضباط وبحارة طوافة محملة بالرجال المجرورين بواسطة زوارق، وتلوح عليها علائم الاستغاثة. وعندئذٍ جهّز الأميرال ديسفوسي قارباً محملاً بالأسلحة وأرسله من أجل إنقاذ هؤلاء الأشخاص المهددين بالغرق. وعندما اقترب الضباط والبحارة منهم تخيلوا رؤية «مجموعة

من الرجال الذين يتخبطون في الماء ويمدون أيديهم للإنقاذ. وتخيلوا سماع أصوات عديدة تصرخ منادية بالإستغاثة». ولكن عندما وصلوا إليهم وإلى الطوافة المزعومة فإنهم لم يجدوا إلا مجموعة من أغصان الأشجار المغطاة بأوراق منتزعة من الشاطىء المجاور! وأمام هذه الحقيقة الواضحة كعين الشمس تبخرت الهلوسات وانتهت.

إن هذا المثال يعري لنا بوضوح آلية الهلوسة الجماعية كما كنا قد شرحناها سابقاً. فمن جهة نجد الجمهور في حالة الانتظار والترقب، ومن جهة أخرى نجد الاقتراح التحريضي الذي أثاره مراقب مرصد السفينة وأشعل بذلك الهلوسة بخصوص الزورق المضطرب والضائع في البحر. وهذا الاقتراح التحريضي انتشر إلى الآخرين بواسطة العدوى وقبلوه جميعاً من ضباط أو بحارة عاديين.

وليس الجمهور بحاجة لأن يكون كثير العدد لكي تُدمَّر إمكانيته على الرؤية بشكل صحيح، ولكي تحل الهلوسات محل الوقائع الحقيقية التي لا علاقة لها بها. فيكفي أن يجتمع بعض الأفراد لكي يشكلوا جمهوراً، وحتى لو كانوا علماء متميزين، فإنهم يتحلون بكل صفات الجماهير فيما يخص الموضوعات الخارجة عن دائرة اختصاصهم. ذلك أن مَلَكَة الملاحظة والروح النقدية التي يمتلكها كل واحد منهم تضمحل وتتبخر.

وقد قدم لنا عالم النفس الأريب السيد «دافي» مثالاً غريباً على ذلك. وأوردته حوليات العلوم النفسية على صفحاتها. وهو يستحق الذكر هنا. فقد دعا السيد دافي مجموعة من المراقبين الكبار لحضور اجتماع خاص. وكان من بينهم أحد علماء إنكلترا الكبار السيد والاس. وقد أجرى أمامهم عملية تحضير الأرواح بعد أن تركهم يتفحصون كل المواد التي استخدمها ويتركون عليها بصماتهم أو دمغاتهم. وقد تمثلت هذه العملية بتجسيم الأرواح والكتابة على ألواح اردواز، إلخ... وبعد أن حصل من مشاهديه المشهورين على تقارير مكتوبة تؤكد على أن الظواهر التي جرت أمام أعينهم قد حصلت بوسائل

خارقة للطبيعة، فإنه كشف لهم أنهم وقعوا ضحية حيلة أو خدعة بسيطة جداً. وقد كتب ناقل هذه القصة يقول: «الشيء المدهش أكثر في دراسة السيد دافي ليس إعجاب الجميع بأنفسهم، وإنما الضعف الهائل للتقارير التي كتبها مشاهدون غير مجربين بهذه الأشياء. وبالتالي فإنه يمكن للشهود أن يرووا حكايات عديدة وإيجابية عما شاهدوه، ولكنها خاطئة. ومفادها أنه إذا ما قبلنا بصحة ما تقوله، فإنه لا يمكن تفسير الظواهر التي يذكرونها بأنها خدعة. والمناهج التي اخترعها السيد دافي كانت بسيطة إلى درجة أننا أصبنا بالدهشة لأنه استخدمها. ولكنه كان يمتلك سلطة كبيرة على الجماهير إلى درجة أنه كان قادراً على إقناعها برؤية ما لا تراه». وهذه هي دائماً سلطة المنوِّم مغناطيسياً على المنوَّم. ولكن عندما نرى هذه السلطة تمارس على شخصيات كبيرة يصعب خداعها فإنه يمكننا أن نتصور مدى السهولة التي تسقط فيها الجماهير العادية في الأوهام.

والأمثلة الشبيهة بذلك عديدة جداً. فقبل بضع سنوات تحدثت الصحف عن طفلتين غرقتا في نهر السين وتم سحبهما. وقد تعرف عليهما بشكل قاطع دزينة من الشهود. وأمام مثل هذه التأكيدات القاطعة لم يبق هناك أي شك لدى قاضي التحقيق. وسمح عندئذٍ بكتابة وثيقة الوفاة. ولكن في اللحظة التي تهيأوا فيها للدفن شاءت الصدفة أن تكشف أن الضحيتين المفترضتين كانتا على قيد الحياة ولا تشبهان إلا قليلاً جداً الفتاتين الغريقتين. وهكذا نجد كما في الأمثلة العديدة السابقة أن شهادة الشاهد الأول الواقع ضحية الوهم تعدي بقية الشهود.

وفي الحالات المشابهة نجد أن نقطة الإنطلاق للاقتراح التحريضي تكمن دائماً في الوهم المتولد لدى فرد ما عن طريق التذكر المبهم والغامض قليلاً أو كثيراً، ثم بعدئذٍ عن طريق العدوى المتمثلة بالتأكيد على هذا الوهم الأولي. وإذا كان المراقب الأول للظاهرة متأثراً جداً، فإنه يكفي أن تتصف الجثة التي يعتقد بأنه قد تعرف عليها ببعض العلامات الخصوصية كنُدْب مثلاً أو أي شيء آخر قادر على أن يثير لديه صورة شخص آخر. وعندئذٍ تصبح هذه الفكرة المثارة نواة لنوع من

التبلور والتضخم الذي يغزو ساحة العقل ويشل كل فعالية نقدية. وما يراه المراقب عندئذٍ لا يعود الشيء ذاته، وإنما الصورة المثارة في مخيلته عنه. وهكذا يمكن تفسير التعرف الخاطىء على جثث الأطفال من قبل أمهم كما هو عليه الحال في القصة التالية. وفي هذه القصة القديمة نجد كلا النوعين من التحريض اللذين تحدثت عن آليتهما آنفاً:

«لقد تم التعرف على الطفل من قبل طفل آخر، وكان مخطئاً. وعندئذٍ ابتدأت سلسلة من التعرف غير الدقيق.

ثم رأينا شيئاً خارقاً للعادة. ففي صبيحة اليوم الذي تعرف عليه تلميذ مدرسة صرخت امرأة قائلة: «آه يا إلهي، إنه طفلي!».

فأدخلوها حتى أصبحت على مقربة من الجثة، وتفحصتها ولاحظت وجود ندب في الجبين. وقالت: «إنه ولدي المسكين بالفعل. لقد ضاع منذ شهر يوليو الماضي. لقد سرقوه مني وقتلوه!».

كانت المرأة تشتغل بواباً في شارع «فور» وكان اسمها شافاندريه. ثم أحضروا أخ زوجها الذي قال بدون أي تردد: «ها هو فيليبير الصغير». وقد تعرف العديد من سكان الشارع على فيليب شافاندريه في الطفل الميت، هذا دون أن نعد أستاذه في المدرسة الذي تعرف عليه من خلال الميدالية في عنقه.

ولكن! ولكن على الرغم من كل ذلك فإن الجيران وأخ الزوج والأستاذ كانوا جميعاً مخطئين. فبعد ستة أسابيع من ذلك التاريخ استطاع المحققون أن يتأكدوا من هوية الطفل. وكان طفلاً من بوردو، قتل في بوردو، ونقل عن طريق البريد إلى باريس»[٢].

لنلاحظ أولاً بأن كل شهادات التعرف هذه قد قدمت من قبل النساء والأطفال، أي من قبل الكائنات الأكثر عرضة للتأثر والتأثير الذاتي. وهي تدل على هشاشة مثل هذه الشهادات أمام العدالة. وما كان ينبغي أبداً إثبات شهادات الأطفال بشكل خاص. صحيح أن القضاة

يكررون تلك الكليشيه التي تقول بأن الأطفال لا يكذبون في مثل تلك السن. ولو كانوا يمتلكون ثقافة متماسكة في علم النفس لعرفوا أن الأطفال يكذبون في مثل هذه السن بشكل دائم تقريباً. صحيح إنها كذبة بريئة ولكنها كذبة على أي حال. ويفضل أن ندين متهماً ما عن طريق لعبة الوجه أو القفا على أن ندينه من خلال شهادة طفل.

ولكي نعود إلى الملاحظات التي تتشكل لدى الجماهير نقول بأن الملاحظات الجماعية هي الأكثر بعداً عن الصواب. وهي تمثل في الأغلب الأعم مجرد وهم تشكل لدى فرد واحد ثم انتقل عن طريق العدوى إلى الآخرين.

وهناك وقائع لا حصر لها ولا عد تدعونا إلى عدم الثقة بشهادات الجماهير. فمثلاً لقد شهد آلاف البشر تلك الهجمة الشهيرة للخيّالة في معركة سيدان، ومع ذلك فمن المستحيل أن نعرف من الذي قادها بسبب الشهادات البصرية الأكثر تناقضاً. وقد أثبت الجنرال الإنكليزي ولسلي في كتاب حديث أنه قد ارتكبت أبشع الأخطاء بخصوص الوقائع الشهيرة لمعركة واترلو، هذا على الرغم من تأكيد مئات الشهود على هذه الوقائع بالذات[٣].

وكل هذه الأمثلة تبين لنا، ولأكرر ذلك مرة أخرى، قيمة شهادات الجماهير أو بالأحرى عدم قيمتها. نحن نعلم أن كتب المنطق تعتبر إجماع شهود عديدين على شيء ما بصفته إحدى المقولات البرهانية الأكثر إقناعاً على صحة هذا الشيء أو تلك الواقعة. ولكن ما نعرفه عن نفسية الجماهير يثبت لنا مدى حجم أوهامهم وأخطائهم بخصوص هذه النقطة. فالأحداث الأكثر شبهة هي تلك التي لاحظها أكبر عدد من الأشخاص. وإذا قلنا بأن حادثة ما قد لوحظت في نفس الوقت من قبل آلاف الشهود، فإن ذلك يعني أن الحادثة الحقيقية هي بشكل عام مختلفة جداً عن الرواية المنقولة عنها.

ينتج عن كل ما قلناه سابقاً بأنه ينبغي أن نعتبر كتب التاريخ بمثابة كتب الخيال الصرف. فهي عبارة عن حكايات وهمية عن وقائع

لوحظت بشكل رديء، كما إنها مصحوبة بتأويلات شكلت فيما بعد. ولو أن الماضي لم يورثنا كتبه الأدبية والفنية والتذكارية لما عرفنا شيئاً عن الواقع. فهل نعرف كلمة واحدة صحيحة عن حياة الرجال العظام الذين لعبوا دوراً كبيراً في تاريخ البشرية كهرقل وبوذا والمسيح ومحمد؟ في الغالب الأعم لا. وفي نهاية المطاف فإن سيرة حياتهم الحقيقية لا تهمنا كثيراً. فالأشخاص الذين أثروا على الجماهير كانوا أبطالاً أسطوريين وليسوا أبطالاً حقيقيين.

ولكن للأسف فإنه ليس للأساطير أي تماسك ذاتي. فخيال الجماهير يحولها ويعدلها باستمرار بحسب الأزمان، وخصوصاً بحسب الأعراق والأجناس. فإله التوراة المرعب والدموي (ياهوه) مختلف جداً عن إله المحبة الذي كانت تؤمن به القديسة تيريزا، وبوذا المعبود في الصين لا علاقة له ببوذا المعبود في الهند.

وليس من الضروري أن تمضي القرون العديدة على أبطال التاريخ لكي تتشكل أسطورتهم ويتم تحويرها بواسطة خيال الجماهير. فالتحوير قد يتم خلال بضع سنوات. فقد شهدنا بأم أعيننا تحول أسطورة أحد كبار أبطال التاريخ مرات عديدة خلال الخمسين سنة الماضية أو أقل. أقصد بذلك نابليون بونابرت. فقد أصبح نوعاً من الشخصيات المثالية والمحبة للإنسانية والليبرالية في ظل حكم سلالة البوربون. لقد أصبح صديقاً للضعفاء والفقراء الذين احتفظوا بذكراه تحت أكواخهم لفترة طويلة بحسب أقوال الشعراء. ولكن بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ تحولت صورة هذا البطل الطيب القلب والرحيم إلى نوع من المستبد الدموي المبتز للسلطة والحرية والذي ضحى بثلاثة ملايين رجل من أجل طموحاته في السلطة والمجد. ونلاحظ الآن أن أسطورته قد أخذت تتحول أيضاً من جديد. وبعد أن تمر عشرات القرون على ذكراه، فإن علماء المستقبل سوف يقفون محتارين أمام كل هذه الروايات المتناقضة عنه وربما شكّوا في وجوده أصلاً، كما نشك نحن أحياناً بوجود بوذا. ولا يعودون يرون فيه إلا أسطورة شمسية أو نوعاً من التكبير لأسطورة هرقل. وسوف يتعزون بسهولة عن هذه الشكوك لأنهم

سيكونون عندئذٍ أكثر درايةٍ بعلم نفس الجماهير، وبالتالي فيعلمون أنه لا يمكن للتاريخ أن يخلِّد إلا الأساطير.

٣ ـ عواطف الجماهير: تضخيمها وتبسيطها

إن العواطف التي تعبر عنها الجماهير سواء أكانت طيبة أم شريرة تتميز بطابع مزدوج: بمعنى أنها مضخمة جداً ومبسَّطة جداً. وفيما يخص هذه النقطة وغيرها من النقاط نجد أن الفرد المنخرط في الجمهور يقترب كثيراً من الكائنات البدائية. فهو غير قادر على رؤية الفروقات الدقيقة بين الأشياء ،وبالتالي فهو ينظر للأمور ككتلة واحدة ولا يعرف التدرجات الإنتقالية. وفيما يخص الجمهور نلاحظ أن المبالغة في العاطفة مدعَّمة من قبل الحقيقة التالية: بما أن هذه العاطفة تنتشر بسرعة شديدة عن طريق التحريض والعدوى، فإن الاستحسان والقبول الذي تلقاه يزيد من قوتها إلى حد كبير.

إن بساطة عواطف الجماهير وتضخيمها يحميها من عذاب الشكوك وعدم اليقين. فالجماهير، كالنساء، تذهب مباشرة نحو التطرف. فما إن يبدر خاطر ما حتى يتحول إلى يقين لا يقبل الشك. والشعور البسيط بالنفور من شيء أو عدم استحسانه يظل في حجمه الطبيعي لدى الشخص العادي، ولكنه يتحول مباشرة إلى حقد هائج لدى الفرد المنخرط في جمهور.

وعنف عواطف الجماهير يزداد مبالغة وتضخيماً لدى الجماهير غير المتجانسة بسبب انعدام المسؤولية. وتصبح الثقة بالنفس والاطمئنان بعدم المعاقبة أقوى كلما كان عدد الجمهور أكبر لأن ذلك يشعره بزيادة سلطته. وهذا ما يجعل الجماهير المحتشدة قادرة على القيام بأعمال يعجز عنها الفرد الواحد. ففي الجمهور يتحرر الأبله والجاهل والحسود من الإحساس من دونيتهم وعدم كفاءتهم وعجزهم، ويصبحون مجيَّشين بقوة عنيفة وعابرة، ولكن هائلة.

للأسف فإن حس المبالغة والتضخيم لدى الجماهير يتركز غالباً

على العواطف الشريرة التي تمثل بقايا وراثية عن الإنسان البدائي. ومن المعروف أن الخوف من العقوبة يجبر الإنسان الفرد والمسؤول على قمع هذه العواطف. وهكذا يمكننا تفسير السبب في استسلام الجماهير لأبشع أنواع الممارسات وأكثرها تطرفاً.

إن الجماهير إذ تحرَّض بذكاء تصبح قادرة على البطولة والتفاني من أجل قضية نبيلة. وهي أكثر قدرة على ذلك بكثير من الإنسان المعزول. وسوف تسنح لنا الفرصة قريباً لكي نتحدث عن هذه النقطة عندما ندرس أخلاقية الجماهير.

وبما أنه لا يمكن تحريك الجماهير والتأثير عليها إلا بواسطة العواطف المتطرفة، فإن الخطيب الذي يريد جذبها ينبغي أن يستخدم الشعارات العنيفة. ينبغي عليه أن يبالغ في كلامه ويؤكد بشكل جازم ويكرر دون أن يحاول إثبات أي شيء عن طريق المحاجة العقلانية. وهذه هي الطريقة التي يستخدمها الخطباء في الملتقيات الشعبية.

ويطالب الجمهور أيضاً بنفس المبالغة والتضخيم في عواطف أبطاله أو مشاعرهم. فصفاتهم وفضائلهم الظاهرية ينبغي أن تضخَّم دائماً أكثر. ففي المسرح مثلاً يطلب الجمهور من بطل المسرحية الكثير من الفضائل والشجاعة والأخلاقية التي لا يمكن أن توجد في الحياة.

لقد أثرنا بحق المنظور الخصوصي للمسرح. فهناك منظور له بدون شك، ولكن قواعده مخالفة غالباً للحس الصائب والمنطق ولا علاقة لها بهما. ففن التحدث إلى الجماهير واتقانه يعود إلى مستوى أدنى، ولكنه يتطلب كفاءات خاصة جداً. وأحياناً نستغرب نجاح بعض المسرحيات ولا نعرف كيف نفسر سبب هذا النجاح. فمديرو المسارح أنفسهم يبدون عموماً غير واثقين من نجاحها، وذلك لأنه ينبغي عليهم أن يتحولوا إلى جمهور لكي يستطيعوا الحكم عليها(٤).

ولو كنا نمتلك الوقت الكافي للدخول في التفاصيل لكان من السهل علينا أن نبين أيضاً التأثير المهيمن للعرق. فالمسرحية التي يتحمس لها الجمهور في بلد ما لا تلقى أحياناً أي نجاح في بلد آخر أو

أنها تلقى نوعاً من الإحترام المحدود لأنها لا تجيش الحوافز القادرة على إثارة حماسة جمهورها الجديد.

لا داعي للقول بأن مبالغة الجماهير تخص العواطف وليس العقل بأي شكل من الأشكال. فبمجرد أن ينخرط الفرد في الجمهور، فإن مستواه الفكري ينخفض إلى حد بعيد كما برهنت سابقاً. وقد توصل السيد تارد إلى نفس الملاحظة عندما ركز بحوثه على دراسة جرائم الجماهير. وإذن فإنه يمكن للجماهير على المستوى العاطفي فقط أن ترتفع عالياً جداً أو أن تنحط إلى أسفل السافلين.

٤ ـ تعصب الجماهير واستبداديتها ونزعتها المحافظة

وبما أن الجماهير لا تعرف إلا العواطف البسيطة والمتطرفة، فإن الآراء والأفكار والعقائد التي يحرضونها عليها تقبل من قبلها أو ترفض دفعة واحدة. فأما أن تعتبرها كحقائق مطلقة أو كأخطاء مطلقة. وهذه هي دائماً حالة العقائد المتشكلة عن طريق التحريض بدلاً من أن تكون متولدة عن طريق التعقل والمحاجة العقلانية. وكلنا يعلم مدى تعصب العقائد الدينية ومدى الهيمنة الاستبدادية التي تمارسها على النفوس.

وبما أن الجمهور لا يشك لحظة واحدة فيما يعتقده الحقيقة أو الخطأ، وبما أنه واعٍ كل الوعي بحجم قوته فإن استبداده يبدو بحجم تعصبه. وإذا كان الفرد يقبل الاعتراض والمناقشة، فإن الجمهور لا يحتملهما أبداً. وفي الاجتماعات العامة نلاحظ أن أقل اعتراض يصدر عن خطيب ما سرعان ما يقابل بالصياح والغضب والشتائم العنيفة، ثم بالضرب والطرد إذا ما أصر هذا الخطيب على موقفه. ولولا وجود قوات الأمن لذبحوه في غالب الأحيان.

إن نزعتي الاستبدادية والتعصب عامتان لدى كل فئات الجماهير، ولكنهما تتجسدان بأنواع ودرجات متفاوتة جداً. وهنا أيضاً نلتقي مرة أخرى بالمفهوم الأساسي للعرق وتأثيره. فهو الذي يهيمن على عواطف البشر وأفكارهم. ونحن نلاحظ أن الاستبداد والتعصب

منتشران بشكل خاص لدى الجماهير ذات العرق اللاتيني. فهما قويان ومتأصلان فيه إلى حد أنهما يدمران لديه عاطفة الاستقلالية الفردية المتطورة جداً لدى أبناء عرق الأنغلوساكسون. أما الجماهير اللاتينية فهي ليست حساسة إلا للاستقلالية الجماعية لطائفتها. وسمة هذه الاستقلالية هي الحاجة إلى إخضاع كل المنشقين لعقائدهم عن طريق القسر والعنف. ونلاحظ لدى الشعوب اللاتينية أن اليعاقبة في كل العصور منذ عصر محاكم التفتيش لم يستطيعوا الارتفاع بأنفسهم إلى مستوى مفهوم آخر للحرية.

إن الإستبداد والتعصب يشكلان بالنسبة للجماهير عواطف واضحة جداً، وهي تحتملها بنفس السهولة التي تمارسها. فهي تحترم القوة ولا تميل إلى احترام الطيبة التي تعتبرها شكلاً من أشكال الضعف. وما كانت عواطفها متجهة أبداً نحو الزعماء الرحيمين والطيِّبي القلب، وإنما نحو المستبدين الذين سيطروا عليها بقوة وبأس. وهي لا تقيم تلك النصب التذكارية العالية إلا لهم. وإذا كانت تدعس بأقدامها الديكتاتور المخلوع فذلك لأنه قد فقد قوته ودخل بالتالي في خانة الضعفاء المحتقرين وغير المهابين. إن نمط البطل العزيز على قلب الجماهير هو ذلك الذي يتخذ هيئة القيصر. فخيلاؤه تجذبها، وهيبته تفرض نفسها عليها، وسيفه يرهبها.

وبما أن الجماهير مستعدة دائماً للتمرد على السلطة الضعيفة فإنها لا تحني رأسها بخنوع إلا للسلطة القوية. وإذا كانت هيبة السلطة متناوبة أو متقطعة فإن الجماهير تعود إلى طباعها المتطرفة وتنتقل من الفوضى إلى العبودية، ومن العبودية إلى الفوضى.

إن الاعتقاد بهيمنة الغرائز الثورية على الجماهير يعني الجهل بنفسيتها. فعنفها وحده هو الذي يوهمنا بخصوص هذه النقطة. فانفجارات الإنتفاضة والتدمير التي تحصل من حين لحين ليست إلا ظواهر عابرة ومؤقتة. فالجماهير محكومة كثيراً باللاوعي، وبالتالي فهي خاضعة أكثر مما يجب لتأثير العوامل الوراثية العتيقة التي تجعلها تبدو

محافظة جداً جداً. فإذا ما تركت لنفسها فإنها تملّ من فوضاها وتتجه بالغريزة نحو العبودية. فأكثر أنواع اليعاقبة اعتداداً بأنفسهم وافتخاراً راحوا يصفقون لنابليون بشدة عندما راح يلغي كل الحريات ويحكم بيد من حديد.

ومن الصعب فهم تاريخ الثورات الشعبية إذا ما جهلنا غرائز الجماهير المحافظة جداً. صحيح أنها تريد تغيير أسماء مؤسساتها وتقوم أحياناً بثورات عنيفة من أجل تحقيق هذه المتغيرات. ولكن عمق هذه المؤسسات ومضمونها يبقى معبراً عن الحاجيات الوراثية للعرق وبالتالي فهي تعود إليه دائماً في نهاية المطاف. فحركيتها المستمرة لا تخص إلا الأشياء السطحية. في الواقع إنها تمتلك غرائز محافظة نهائية. وكجميع الناس البدائيين فإنها تشعر باحترام وثني تجاه التقاليد وبهلع لا واع تجاه البدع المستجدة القادرة على تعديل الظروف الحقيقية لوجودها. ولو أن القوة الحالية للأنظمة الديمقراطية قد وجدت في الفترة التي اخترعت فيها المِهَن الميكانيكية والبخار وسكك الحديد لكان إنجاز مثل هذه المخترعات مستحيلاً أو فقط بعد أن دفع ثمنه على هيئة الثورات المتتابعة. ولحسن حظ تقدّم الحضارة فإن هيمنة الجماهير على الحياة العامة لم تولد إلا بعد أن كانت الإكتشافات الكبرى للعلم والصناعة قد تحققت وانتهت.

٥ - أخلاقية الجماهير

إذا كنا نربط بكلمة الأخلاقية معنى الاحترام الحقيقي لبعض الأعراف والتقاليد الاجتماعية ثم القمع الدائم للنزوات الأنانية فإنه لمن الواضح أن الجماهير صاحبة نزوات وغرائز شديدة الهيجان وبالتالي فغير مهيأة لاحترام النزعة الأخلاقية. ولكن إذا كنا نعني بالأخلاقية بعض الصفات كالتفاني والإخلاص والنزاهة والتضحية بالذات وحسن العدالة فإنه يمكننا أن نقول على العكس بأن الجماهير قادرة على أرفع أنواع الأخلاقية. فعلماء النفس النادرون الذين درسوا الجماهير لم يدرسوها إلا من وجهة نظر أفعالها الجرائمية، ولما رأوا أن هذه الأفعال عديدة

ومتكـررة فـإنهم استنتجـوا بـأن الجماهير ذات أخلاقية منحـطة جـداً.

لا ريب في أن الجماهير تبرهن على إنحـطاط أخلاقيتها غالباً. ولكن لماذا؟ لسبب بسيط هـو أن غرائز التوحش الهدّامة هي عبـارة عن بقايا العصور البدائية النائمة في أعماق كـل منا، وسوف يـكون من الخـطر إرضاؤها أو إشباعها بالنسبة للفرد المعـزول، هـذا في حين أن انخـراطه في جمهور ما غير مسؤول يجعلـه قادراً على اتباعها لأنـه يعرف بعدم تعرضه للمعاقبة. ولما كنـا غير قـادرين عادة على ممارسة هذه الغرائز الهدامة على أشباهنا فـإننا نحـرص على ممارستها على الحيوانات. والهـوس بالصيد كضـراوة الجماهير مشتقـان من مصدر واحد. فالجمهور الـذي يمزق إرباً إرباً ويبـطء ضحية لا تستطيع الـدفاع عن نفسها يبرهن على قسوة جبانة جـداً. ولكنه بالنسبة للفيلسوف يشبه تماماً جماعة الصيادين المجتمعين بالدزينات لكي يشاهدوا بنوع من المتعة كـيف تمزق كلابهم غزالاً بـائساً كانوا قد اصطادوه.

وإذا كان الجمهور قادراً على القتل والحـرق ومخـتلف أنواع الجرائم، فـإنه قادر أيضاً على أفعـال التضحية والنزاهة الأكثر ارتفاعاً بـكثير من تـلك التي يقدر عليها الفرد الواحـد. فالتأثير يتم بشكل خـاص على الفرد المنخـرط في الجمهور وذلك عن طريق التركيز على عواطف المجـد والشرف والدين والوطن. فالتـاريخ مـلـيء بالأمثلة المشابهـة للحـروب الصليبية أو الجنود المتطوعين عام ١٧٩٣ للدفاع عن الثورة الفرنسية. ووحدها الجماهير الجماعية تـكون قادرة على إنجـاز الأعمال الكبرى والتفاني العظيم والنزاهة من أجـل القضايا الكبرى. فـكم هو عدد الجماهير التي ضحت بأنفسها بنوع من البطولة من أجل عقائد وأفكـار لا تفهمها إلا بالكـاد! فالجماهير التي تضرب عن العمل تفعل ذلك من أجل إطاعة الأوامر أكثر مما تفعله من أجـل الحصول على زيادة الرواتب. ونـادراً ما تكـون المصلحة الشخصية محركاً قوياً لـدى الجماهير، هـذا في حين أنها تشكل المحـرك الكلي تقريباً لـدوافع الفرد الواحـد. فمن المؤكد أنها ليست هي التي تجيش الجماهير في الحـروب العديدة غير المفهومة بالنسبة لعقلها، وحـيث تترك نفسها لعبة للمجـازر

السهلة وتقع في الفخ كما تقع القبرات المخدوعة من قبل مرآة الصياد.

وأرذل أنواع الأوغاد يمكنهم أن يتحلوا بمبادىء أخلاقية صارمة بمجرد أن ينخرطوا في الجمهور. ويلاحظ عالم الاجتماع الفرنسي «تين» أن الذين قاموا بمجازر سبتمبر قد جاؤوا بمحافظ النقود والحلى والجواهر التي وجدوها في جيوب ضحاياهم وسلموها للجان الثورية. وكان من السهل عليهم أن يسرقوها دون أن يعرف بذلك أحد. وكذلك الأمر فيما يخص الجمهور الهادر والزاخر والبائس الذي هجم على قصر التويلري أثناء ثورة ١٨٤٨ فإنه لم يسرق أي تحفة ثمينة من تحفه. وكانت واحدة منها فقط كافية لإطعامه أياماً عديدة.

صحيح إن جعل الفرد أخلاقياً من خلال الجمهور لا يشكل قاعدة عامة أو مستمرة. ولكننا نلاحظ أنها تتكرر غالباً، وحتى في ظروف أقل ضخامة وخطورة من تلك التي ذكرتها. ففي المسرح نلاحظ كما قلت سابقاً أن الجمهور يطلب من بطل المسرحية التحلي بفضائل مبالغ فيها. وحتى الحضور المشكَّلون من عناصر أدنى مستوى يبدون محتشمين في بعض الأحيان. فمحترف الملذات المنغمس فيها والقوّاد والأزعر المتهكم يتمتمون غالباً بصوت هامس أمام مشهد خطر أو كلام خفيف غير مزعج على الإطلاق بالقياس إلى عاداتهم المعهودة في الحديث والنقاش. (عادات الصخب والعنف).

وإذن فإن الجماهير التي تستسلم غالباً للغرائز المنحطة تقدم أحياناً أيضاً عدة أمثلة على أعمال أخلاقية عالية. وإذا كانت قيم النزاهة والإنقياد والتفاني المطلق في سبيل مثال أعلى وهمي أو واقعي تمثل فضائل أخلاقية، فإنه ليمكننا القول بأن الجماهير تمتلك أحياناً هذه الفضائل بدرجة عالية لم يتوصل إليها أعظم الفلاسفة والحكماء إلا نادراً، وهي تمارسها بلا وعي بدون شك. ولكن لا يهم، فلو أن الجماهير قد حكّمت عقلها غالباً واستشارت مصالحها الآنية، لربما انعدمت كل حضارة على سطح كوكبنا الأرضي وما تطورت، ولما كان للبشرية من تاريخ.

الفصل الثالث

أفكار، محاجّات عقلية، مخيلة الجماهير

١ - أفكار الجماهير

كنا قد درسنا في كتاب سابق دور الأفكار بخصوص تطور الشعوب، وبرهنا على أن كل حضارة مشتقة من عدد صغير من الأفكار الأساسية التي نادراً ما تجددت أو تغيرت. وقد شرحنا كيف تنغرس هذه الأفكار في روح الجماهير، وهول الصعوبات التي تصطدم بها قبل أن تنفذ إليها. كما وبيّنا أيضاً أن الإضطرابات التاريخية الكبرى تنتج غالباً عن المتغيرات التي تصيب هذه الأفكار الأساسية.

ولما كنت قد عالجت هذا الموضوع بما فيه الكفاية، فإني لن أعود إليه. وسوف أكتفي بقول بعض الكلمات عن هذه الأفكار السهلة الموجودة في متناول أيدي الجماهير، وتحت أي صيغة أو هيئة تتصورها الجماهير.

ويمكننا أن نقسم هذه الأفكار إلى فئتين. في الفئة الأولى نضع الأفكار الطارئة والآنية العابرة التي تتشكل تحت تأثير اللحظة. نضرب على ذلك مثلاً الانبهار بفرد ما أو بعقيدة ما. ونضع في الفئة الثانية الأفكار الأساسية التي تقدم لها البيئة والوراثة والرأي العام استقراراً كبيراً. نذكر من بينها الأفكار الدينية سابقاً، والأفكار الديمقراطية والاجتماعية اليوم. (المقصود بالاجتماعية هنا الإشتراكية أو العدالة الإجتماعية).

ويمكن تشبيه الأفكار الأساسية بواسطة مياه نهر يجري ببطء،

وأما الأفكار العابرة فتشبه الأمواج الصغيرة المتغيرة دائماً والمتحركة على السطح. وعلى الرغم من أنها غير ذات أهمية حقيقية فإنها أكثر ظهوراً ووضوحاً من مسار النهر نفسه.

وفي أيامنا هذه نلاحظ أن الأفكار الكبرى الأساسية التي عاش عليها آباؤنا قد أصبحت مهتزة أكثر فأكثر. وبالتالي فإن المؤسسات التي ترتكز عليها قد أصبحت مزعزعة إلى حد كبير. والآن تتشكل الكثير من الأفكار الصغيرة المؤقتة التي كنت قد تحدثت عنها للتو. ولكن يبدو أن القليل منها مؤهل لأن يمارس تأثيراً مهماً أو دائماً.

وأياً تكن الأفكار التي تُوحَى للجماهير أو تحرَّض عليها، فإنه لا يمكنها أن تصبح مهيمنة إلا بشرط أن تتخذ هيئة بسيطة جداً وأن تتجسد في نفوسها على هيئة صور. وليس هناك أي رابط منطقي من النوع القياسي أو المتوالي يربط هذه الأفكار ـ الصور فيما بينها. فيمكنها بسهولة أن تحل الواحدة محل الأخرى كزجاجات المصباح السحري التي يسحبها العامل الميكانيكي من العلبة حيث تكون مصفوفة فوق بعضها البعض. وهكذا يمكننا أن نجد الأفكار الأكثر تناقضاً تتابع على الجمهور. وبحسب اللحظات وصدفها فإن الجمهور يتعرض لتأثير إحدى الأفكار المتنوعة والمختزنة في عقله، وبالتالي فهو يرتكب الأعمال الأكثر تناقضاً واختلافاً. فانعدام الروح النقدية لديه لا يسمح له برؤية التناقضات.

وهذه الظاهرة ليست حكراً على الجماهير، وإنما نحن نجدها لدى الكثير من الأفراد الوحيدين. وليس فقط لدى الكائنات البدائية، وإنما لدى كل أولئك الذين يقتربون في إحدى خصائصهم من البدائيين (كالمتعصبين لإيمان ديني كثيف مثلاً). فمثلاً لقد لاحظت الظاهرة لدى الهنود المتعلمين الذين تربوا في جامعاتنا الأوروبية ونالوا منها كل الشهادات الجامعية. فعلى المخزون الثابت لأفكارهم الدينية والاجتماعية الموروثة تركّبت دون أن تغيرها في شيء طبقة من الأفكار الغربية لا علاقة لها بالأولى. وبحسب اللحظة وصدفها فإن الطبقة

الأولى هي التي تظهر أو الثانية. وكل واحدة منهما مصحوبة بموكب خطاباتها الخصوصية المعروفة. وهكذا نجد أن نفس الأفراد يبرزون بتناقضاتهم الأكثر وضوحاً وسطوعاً. وهذه التناقضات ظاهرية أكثر مما هي حقيقية، وذلك لأن الأفكار الوراثية هي وحدها القوية والمهيمنة لدى الفرد الواحد، وبالتالي فهي وحدها القادرة على أن تصبح حوافز مؤثرة فعلاً على سلوكه ومحركة له. وفي حالة واحدة فقط يجد المرء نفسه عن طريق التقاطعات متوزعاً بين دوافع وراثية مختلفة، وبالتالي فإن أعماله يمكن أن تكون متناقضة تماماً من لحظة إلى أخرى. ولا داعي للإلحاح هنا على هذه الظواهر، على الرغم من أن أهميتها النفسية حاسمة وأساسية. وأنا أرى أنه يلزمنا عشر سنوات على الأقل من الرحلات في البلدان المختلفة وجمع الملاحظات لكي نتوصل إلى فهمها.

ولما كانت الأفكار تستعصي على الجماهير إذا لم تتخذ هيئة بسيطة جداً فإنه ينبغي لكي تصبح شعبية أن تتعرض لتحويل كامل. وعندما يتعلق الأمر بأفكار فلسفية أو علمية عالية نسبياً، فإننا نلاحظ مدى عمق التحويل اللازم لكي تنزل من طبقة إلى طبقة حتى تصل إلى مستوى الجماهير. وهذه التحولات تعتمد أساساً وبشكل خاص على العرق الذي تنتمي إليه هذه الجماهير، ولكنها دائماً تخفيضية وتبسيطية للأفكار المعنية. كما أنه لا يوجد في الواقع من وجهة النظر الاجتماعية أية مراتبية للأفكار، أقصد للأفكار العالية قليلاً أو كثيراً. فبمجرد أن تتوصل فكرة ما إلى الجماهير وتقدر على تحريكها فإنها تصبح معرّاة من كل ما صنع رفعتها وعظمتها.

والواقع أن القيمة المراتبية الهرمية لفكرة ما لا أهمية لها. وحدها الآثار الناتجة عنها ذات أهمية. فالأفكار المسيحية في العصور الوسطى والأفكار الديمقراطية في القرن الماضي والأفكار الاجتماعية السائدة اليوم ليست مرتفعة جداً بدون شك. ويمكننا فلسفياً أن نعتبرها كأخطاء فقيرة وبائسة بما فيه الكفاية. ولكن دورها كان ضخماً

وسيكـون. وسوف تؤثر لفترة طويلة على سلوك الأنظمة والـدول باعتبارها إحـدى العوامل الأساسية.

ولكـن حـتى بعد أن تتعرض الفكرة لتحـولات تجعلهـا في متناول أيدي الجماهير فـإنها لا تفعل فعلها ولا تؤثـر إلا بعد أن تدخـل إلى اللاوعي وتصبح عاطفة متماسكة أو متينة مبلـورة من قبل مجريـات مختلفة سوف ندرسها في مكان آخـر. وهذا التحـول يكون عادة طويلاً جـداً.

وعلى أي حـال فلا ينبغي علينا أن نعتقد أن مجـرد البرهـنة على صحـة فكرة ما يعني أنها سوف تفعل مفعولها حـتى لـدى النـاس المثقفين فعلاً. ويمكننا أن نتحـقق من ذلك عندما نـرى أن البرهـنة الأكثر وضوحاً ليس لهـا تـأثير على معظـم البشر. صحيح أنه يمكن للحقيقة الساطعة أن تلقى أذناً صاغية لـدى السامع المثقف، ولكـنه سيعيدها فوراً بـواسطة لا وعيه إلى تصوراته البدائية. حـاولوا أن تـروه بعد بضعة أيـام فسوف ترونه يستخـدم من جـديد محاجـاته القديمة وبنفس الألفاظ تماماً. وذلك لسبب بسيط هـو أنه واقع تحت تـأثير الأفكار السابقة التي تحـولت إلى عواطف وترسخـت. وهذه الأفكار هي وحـدها التي تؤثـر علينا وتحـرك بواعثنا العميقة التي تربض خـلف أعمالنا وكلامنا.

وعندما تتوصل فـكرة ما بواسطة مجريـات متعـددة إلى الإنغـراس في روح الجماهير فـإنها تكتسب قـوة لا تقـاوم وينتج عنها سلسلة من الإنعكاسات والنتائج. فالأفكـار الفلسفية التي أدت إلى الثورة الفرنسية أخـذت وقتاً طويلاً قبل أن تنغرس في الروح الشعبية. ونحـن نعلم مـدى قوتها التي لا تقـاوم بعدما استقـرت في النفوس. لقد أدت إلى انتفاضة شعب بأسره من أجـل التوصل إلى العدالة الاجتماعية، ومن أجـل إنجـاز الحقوق المجـردة والحريـات المثالية إلى زعزعة كـل العروش، وقلبت بعمق كـل العالم الغربي. وخـلال عشرين سنة راحـت الشعوب تهـجم على بعضها البعض، وشهـدت أوروبا مجـازر تشبه تـلك التي حصـلت على يد جنكيزخـان وتيمورلنـك. وهـكذا لم يحـصل في أي يوم من الأيـام أن اتخـذت فيه الأفكار مثل هذه الأهمية ومـدى قدرتها على تغيير وجهـة العواطف إذا ما جُيِّشت وعُبِّئت.

وإذا كان يـلزم وقت طويل لكي تترسخ الأفكار في نفوس الجماهير، فـإنه يلزم وقت لا يقل عنه طولاً لكي تخرج منها. وهـكذا نجـد من وجهـة النظر الفكرية أن الجماهير متأخـرة عن العلماء والفلاسفة بعدة أجيـال. وكل رجـالات الدولة السياسيين يعرفون اليوم مـا الذي تشتمل عليه الأفكار الأساسية المذكورة آنفـاً من أخـطاء. ولكن بما أن تأثيرهـا على النفوس لا يزال قوياً حتى الآن، فـإنهم مضطـرون للحـكم بموجبهـا على الرغم من أنهم انفكـوا عن الإقتناع بحقيقتها.

٢ ـ المحاجات العقلية للجماهير

لا يمكننا القول بشكل مطلق أنه لا يمـكن التأثير على الجماهير بواسطة المحاجـات العقلية. ولكن الحجج التي تستخدمها وتـلك التي تؤثـر عليها تبـدو من وجهـة النظر المنطقية جداً متدنية إلى حـد أنه لا يمكننا وصفهـا بالعقلانية إلا عن طريق القياس والتشبيه.

والمحاجـات المتدنية للجماهير مرتكـزة على الترابط والضـم مثلها في ذلك مثل المحاجـات العالية للمثقفين. ولكن الأفكـار الموصولة ببعضهـا البعض ليس بينها إلا روابط ظاهريـة من التشابه أو التوالي. فهـي تتلاحـم على طريقة أفكار الأسكيمو الـذين يعرفون عن طريق التجربة أن الجليد يشكل جسماً شفافاً ويـذوب في الفم عندما نضعه فيه. وبما أن الزجاج شيء شفاف أيضاً فـإنهم يعتقدون أنه يـذوب في الفم أيضاً! أو تشبه «منطق» الإنسان المتوحش الـذي يعتقد أنه إذا ما أكل قـلب عدو شجاع فـإنه يكتسب شجاعته، أو منطق العامل المستغل من قبل رب عمل معين فيستنتج من ذلك أن كل أربـاب العمل مستغـلون.

فهـذه ترابطات بين أشياء متنافـرة ليس بينها إلا علاقـات سطحية ظاهرية، كما أنهم يقومون بتعميم مبـاشر لحـالات فردية وخصوصية. وهـاتان هما الخاصيتان الأساسيتـان للمنطق الجماعي. والخطباء الـذين يعرفون كيفية التلاعب بالجماهير يستخـدمون مثل هذه الترابطـات. فهـي وحـدها قادرة على تحريكهم والتأثير عليهـم. وأما سلسلة المحاجـات العقلانية الصارمة فلا يمكن أن تفهم إطلاقاً من قبل الجماهير. ولهذا

السبب يمكن القول بأنها لا تفكر أو أنها تفكر بشكل خاطىء ولا يمكن التأثير عليها عن طريق التفكير العقلاني.

وضعف بعض الخطابات التي مارست تأثيراً ضخماً على السامعين تدهشنا أحياناً عندما نقرؤها. ولكننا ننسى أنها قد كتبت من أجل تعبئة الجماهير وليس من أجل أن تقرأ من قبل الفلاسفة. والخطيب المتواصل بشكل حميمي مع الجمهور يعرف كيف يثير الصور التي تجذبها وتحركها. فإذا ما نجح تحقق هدفه. ومجموعة كبيرة من الخطب لا تساوي بضعة جمل نجحت في جذب النفوس التي ينبغي إقناعها.

لا داعي للقول بأن عجز الجماهير عن التفكير المتعقل يحرمها من كل روح نقدية، أي من كل قدرة على التمييز بين الحقيقة والخطأ، وبالتالي من تشكيل حكم دقيق على الأمور. فالأحكام التي تقبلها ليست إلا أحكاماً مفروضة من فوق، أي غير قابلة للنقاش. ومن وجهة النظر هذه نلاحظ أن الأفراد الذين لا يرتفعون فوق مستوى الجماهير هم عديدون. فالسهولة التي تنتشر فيها بعض الآراء وتصبح عامة تعود بشكل خاص إلى عجز معظم الناس عن تشكيل رأي خاص مستوحى من تجاربهم الشخصية في المحاكمة والتعقل.

٣ ـ خيال الجماهير (أو مخيِّلة الجماهير)

إن الخيال الخاص بالجماهير، كخيال كل الكائنات التي لا تفكر عقلانياً، مهيأ لأن يتعرض للتأثير العميق. فالصور التي تثيرها في نفوسهم شخصية ما أو حدث ما أو حادث ما لها نفس حيوية وقوة الأشياء الواقعية ذاتها. فالجماهير تشبه إلى حد ما حالة النائم الذي يتعطل عقله مؤقتاً ويترك نفسه عرضة لانبثاق صورة قوية ومكثفة جداً، ولكنها سرعان ما تتبخر على محك التفكير. ولما كانت الجماهير غير قادرة لا على التفكير ولا على المحاكمة العقلية فإنها لا تعرف معنى المستحيل أو المستبعد الحدوث. ونحن نعلم أن الأشياء الأكثر استحالة هي عادة الأكثر ادهاشاً وتأثيراً.

ولهـذا السبب فـإن الجوانب الساحـرة والأسطورية من الأحـداث هـي التي تدهش الجماهير دائماً وتؤثر عليها. والواقع أن العجيـب الساحر والأسطوري هما الدعامتان الحقيقيتان للحضارة. ونلاحـظ أن المظهـر قد لعب دائماً في التـاريخ دوراً أكثر أهمية من الواقع. فـاللاواقعي يهيمن فيه على الواقعـي.

ولـما كانت الجماهير عاجـزة عن التفكير إلا بـواسطة الصور فـإنه لا يمكن جذبها والتأثير عليها إلا عن طريق الصور. ووحـدها هذه الأخيرة ترعبهـا أو تجـذبها وتصبح باعثاً على العمل والممارسة.

ولهـذا السبب فـإن التمثيلات المسرحية التي تقدم الصور بصيغتها الأكثر وضوحاً لها دائماً تأثير ضخـم على الجماهير. وكان الخبز والعـروض المسرحية يشكلان قديماً مثال السعادة بالنسبة لكـل الناس في روما القديمة. ولم يتغير هذا المثال إلا قـليلاً على مـدار العصور المتتابعة. ولا شيء يـؤثر على الخيـال الشعبي أكثر من قطعة مسرحية. فـكل الصالة التي تشاهدها تحـس بنفس المشاعر، وإذا لم تتحـول هذه المشاعر فوراً إلى أعمال فعلية فـذلك لأن المشاهد الأكثر لاوعياً لا يمكنه أن يجهـل أنه واقع ضحية الأوهام، وأنه قـد ضحـك أو بكى من مغامـرات خيـالية بحتـة.

ولكـن أحياناً تـكون العواطف الموحـاة من قبل الصور قوية إلى درجة أنها تميل لأن تتحـول إلى ممارسة وفعل تماماً كالمقترحـات العادية. وغالباً ما رووا قصة ذلك المسرح الشعبي المأساوي الذي يضطر لحماية الممثل على المخـرج بعد انتهاء المسرحية، وذلك خـوفاً من اعتـداء المشاهـدين عليه بسبب جرائمة الخيالية. وهنا تكمن في رأيي إحـدى أهـم العلامات والمؤشـرات على الحالة العقلية للجماهير، وخصوصاً على درجة السهولة التي يمكن لهم أن يـؤثـروا عليها فيها ويحرضوها. فاللاواقعي له نفس الأهمية تقريباً بالنسبة لهم كالواقعي. وهي تميل بشكل واضح إلى عـدم التمييز بينهـما.

وعـلى قاعدة الخيال الشعبي تأسست مقدرة الفاتحيـن وقوة

الدول. فعن طريق التأثير عليها تم تجييش الجماهير وتحريكها. وكل الأحداث التاريخية الكبرى كتأسيس البوذية والمسيحية والإسلام والإصلاح اللوثري والثورة الفرنسية ثم في أيامنا هذه الغزو المهدِّد للإشتراكية، كل ذلك عبارة عن نتائج مباشرة أو بعيدة لانطباعات قوية أثرت على خيال الجماهير.

ولهذا السبب نجد أن رجالات الدولة الكبار في كل العصور وفي كل البلدان بما فيها الأكثر استبداداً قد اعتبروا الخيال الشعبي بمثابة أكبر دعم لسلطتهم. فهم لم يحاولوا أبداً أن يحكموا ضده. قال نابليون بهذا الصدد الكلام العميق التالي في مجلس الدولة الفرنسي: «لم أستطع إنهاء حرب الڤانديڤ[1] إلا بعد أن تظاهرت بأني كاثوليكي حقيقي. ولم أستطع الإستقرار في مصر إلا بعد أن تظاهرت بأني مسلم تقي. وعندما تظاهرت بأني بابوي متطرف استطعت أن أكسب ثقة الكهنة في إيطاليا. ولو أنه أتيح لي أن أحكم شعباً من اليهود لأعدت من جديد معبد سليمان»! ربما لم يفهم أي رجل كبير في العالم منذ الإسكندر المقدوني والقيصر كيف ينبغي جذب الجماهير والتأثير على مخيلتها مثلما فهم نابليون. فقد كان همه الأول والدائم الضرب على وترها وإدهاشها. وكان يفكر فيها أثناء انتصاراته وخطبه وخطاباته وفي كل حالاته. وحتى على فراش الموت كان يفكر في الجماهير ومخيلتها.

ولكن، كيف يمكن التأثير على خيال الجماهير ونيل إعجابها؟ سوف نرى ذلك قريباً. لنقل منذ الآن بأن التظاهرات والوسائل الموجَّهة للتأثير على الفهم والعقل عاجزة عن تحقيق هذا الهدف. فانطونيو ليس بحاجة إلى بلاغة خطابية متقعرة لكي يستنهض الشعب ضد قتلة القيصر. يكفي أن يقرأ عليه وصيته ويريه جثته.

كل ما يؤثر على مخيلة الجماهير يقدم نفسه على هيئة صورة مؤثرة وصريحة مخلَّصة من كل تأويل ثانوي، أو غير مصحوبة إلا من قبل بعض الوقائع العجيبة الساحرة: كالنصر الكبير، أو المعجزة الكبيرة، أو جريمة كبيرة، أو أمل كبير. ومن المهم هنا عرض الأشياء ككتلة

واحدة وبدون تبيان منشئها أو ولادتها. فمائة جريمة صغيرة أو مائة حادث صغير لا تؤثر أبداً على مخيلة الجماهير ولا تحركها. ولكن جريمة واحدة كبيرة أو كارثة واحدة كبيرة تؤثران عليها بعمق حتى ولو كانت نتائجهما أقل بكثير من النتائج القاتلة لمائة حادث مجتمعة. إن وباء الأنفلونزا الكبير الذي أهلك في باريس خمسة آلاف شخص في بضعة أسابيع لم يؤثر إلا قليلاً على المخيلة الشعبية. فهذه المذبحة الكبرى لم تتجسد في صور مرئية ومكشوفة وإنما فقط من قبل التأشيرات الأسبوعية للإحصائيات. ولو حصل في نفس اليوم وعلى الساحة العامة حادث أودى بحياة خمسمائة شخص فقط بدلاً من خمسة آلاف كأن يقع برج إيفل مثلاً لولَّد تأثيراً ضخماً وهائلاً على النفوس. والخسارة المفترضة لقارب عابر للأطلسي انقطعت أخباره واعتقد أنه غرق في وسط البحر أثر بعمق طيلة ثمانية أيام على مخيلة الجماهير. هذا مع العلم أن الإحصائيات الرسمية بينت أنه قد غرق في نفس السنة ألف قارب وزورق. ولم تكترس الجماهير لحظة واحدة لهذه الخسارة الجسيمة التي تزيد أضعافاً مضاعفة من حيث الأرواح البشرية والسلع عن الخسارة الأولى.

نستنتج من ذلك إذن أنه ليست الوقائع بحد ذاتها هي التي تؤثر على المخيلة الشعبية، وإنما الطريقة التي تعرض بها هذه الوقائع. وينبغي على هذه الأحداث عن طريق التكثيف إذا جاز التعبير أن تولد صورة مؤثرة وأخاذة تملأ الروح كالهوس. إن معرفة فن التأثير على مخيلة الجماهير تعني معرفة فن حكمها.

الفصل الرابع

الأشكال الدينية التي تتخذها كل قناعات الجماهير

كنّا قد رأينا أن الجماهير لا تفكر عقلانياً، وإنها تتبنى الأفكار دفعة واحدة أو ترفضها، وإنها لا تحتمل لا مناقشة ولا اعتراضاً، وأن التحريضات المؤثرة عليها تغزو كلياً ساحة فهمها وتميل للتحول إلى فعل وممارسة فوراً. وكنّا قد بيّنا أن الجماهير التي يعرفون تحريضها بشكل جيد تصبح مستعدة للتضحية بنفسها من أجل المثال الأعلى الذي حرضوها عليه. ثم بيّنا أخيراً أنها تعرف فقط العواطف العنيفة والمتطرفة. فالتعاطف مع شيء ما يتحول لديها فوراً إلى عبادة، والنفور يتحول مباشرة إلى حقد. وهذه الإشارات العامة تتيح لنا أن نفهم طبيعة قناعاتها.

وإذا ما تفحصنا عن كثب قناعات الجماهير في فترات الإيمان كما في فترات الإنتفاضات السياسية الكبرى التي حصلت في القرنين الماضيين وجدنا أنها تمثل دائماً شكلاً خاصلاً لا أستطيع وصفه إلا باسم العاطفة الدينية.

ولهذه العاطفة خصائص بسيطة جداً: أولاً عبادة إنسان يعتبر خارقاً للعادة، الخوف من القوة التي تعزى إليه، الخضوع الأعمى لأوامره، استحالة أي مناقشة لعقائده، الرغبة في نشر هذه العقائد، الميل لاعتبار كل من يرفضون تبنيها بمثابة أعداء. وسواء أسقطت عاطفة كهذه على الاله الذي لا يُرى، أو على صنم معبود، أو على بطل أو فكرة سياسية، فإنها تبقى دائماً ذات جوهر ديني. كما أن كلاًّ من العنصرين الخارق للطبيعة والمعجز يتواجد فيها. فالجماهير تخلع على التشكيلة

السياسية أو الزعيم الـذي يلهب حماستها مؤقتاً نفس القوة السرية المليئة بالأسرار.

فالإنسان ليس متديناً فقط عن طريق عبـادة آلهـة معينة، وإنما أيضاً عندما يضـع كـل طاقاته الروحية وكـل خضـوع إرادته، وكل احتـدام تعصبه في خـدمة قضية ما أو شخـص ما كان قد أصبـح هـدف كـل العواطف والأفكار وقائدهـا.

إن عـدم التسامح والتعصب يشكـلان المرافق الطبيعي للعاطفة الدينية. وهما موجودان حتماً لـدى أولئك الـذين يعتقدون بأنهـم يمتلكون سر السعادة الأرضية أو الأبـدية. وهاتـان الخاصيتان موجودتـان لـدى كـل البشر المنخرطين في جماعة ما، وذلك عندما يحركهـم يقين أو اعتقاد ما. فاليعاقبة الذين فرضوا الرعب أثنـاء المرحلـة الثانية من الثورة الفرنسية كانوا متدينين بعمق مثل الكاثوليك الـذين قاموا بمحـاكم التفتيش، وضراوتهم الوحشية مستمدة من نفس المنبع.

إن قناعـات الجماهير تتسم بهذه الخصائص من الخضوع الأعمى، والتعصب العنيد، وحـب الدعاية العنيفة الملازمة لكل عاطفة دينية. وبالتـالي فيمكننا أن نقول بـأن كـل عقائدها تتلبس زياً دينياً. فالبطل الـذي تصفق له الجماهير هو بالفعل إله بالنسبة لها. وقد مثّل ذلك نابليون مـدة خـمسة عشر عاماً. ولم يحـصل تأليه لشخص مثلما حـصل له. ولم يحـصل أن استطاع معبـود إرسـال النـاس إلى الموت بمثل هذه السهولة مثلما فعل هو. فآلهـة الوثنية والمسيحيـة لم تستطع أن تمـارس هيمنة مطلقة على النفوس أكثر مما فعـل نـابليون.

إن مؤسسي العقائد الدينية أو السياسية لم يؤسسوها إلا عندما عرفوا كـيف يفرضون على الجماهير عواطف التعصب الديني هـذه، هذه العواطف التي تجعل الإنسان يجـد سعادته في العبادة وتدفعه لأن يضحي بحيـاته من أجـل معبوده. وهـذا ما حـصل في كـل العصور. وفي كتـابه الجميل عن بـلاد الغال الرومانية نبّه «فوستيـل دو كولانج» إلى أن الأمبراطورية الرومانية لم تستمر على قيد الحياة بواسطة القوة، وإنما

بواسطة الإعجاب الديني الذي تلهمه للناس. يقول بحق: «سوف يكون من غير المعقول أن يستمر نظام سياسي ما مدة خمسة قرون وهو مكروه من قبل الشعب... هذا شيء لا سابقة له في تاريخ العالم. ولا نستطيع أن نفهم كيف يمكن لثلاثين فوجاً عسكرياً في الإمبراطورية أن تهيمن على مائة مليون وتجبرهم على الطاعة». فإذا كانوا يخضعون ويطيعون فذلك لأن الامبراطور الذي يجسد العظمة الرومانية كان معبوداً من قبل الشعب كإله. ففي أصغر قرية من قرى الأمبراطورية كانت له هياكل. ثم يقول الكاتب المذكور مردفاً: «وقد شهدنا في ذلك الزمن انبثاق دين جديد في النفوس في طول الامبراطورية وعرضها. وكانت آلهة هذا الدين الأباطرة أنفسهم. فقبل بضع سنوات من العهد المسيحي كانت منطقة الغال نفسها ممثلة بستين مدينة. وقد ساهمت جميعها في إقامة معبد على شرف الإمبراطور أوغست بالقرب من مدينة ليون... وكان كهنته الذين ينتخبون من قبل اجتماع المدن الغالية هم أعيان مناطقهم وشخصياتها الأولى... ومن المستحيل أن نعزو كل ذلك إلى الخوف والعبودية. فشعوبٌ بأكملها لا يمكن أن تكون عبدة أو مستعبدة، ولا يمكن أن تظل كذلك طيلة ثلاثة قرون. فلم يكن الممالقون هم وحدهم يعبدون الحاكم وإنما روما كلها. ولم تكن روما وحدها وإنما كل بلاد الغال، واسبانيا واليونان وآسيا».

وأما في أيامنا هذه فإن معظم الفاتحين والمهيمنين على النفوس لا يمتلكون هياكل شخصية في المدن والقرى، ولكن لهم تماثيل عديدة وصور معلقة. والعبادة التي يتلقونها من قبل الناس ليست مختلفة كثيراً عن عبادة الأباطرة في العصور القديمة. ولن نستطيع أن نفهم قليلاً فلسفة التاريخ إلا بعد أن نفهم هذه النقطة الأساسية الخاصة بنفسية الجماهير: أقصد ينبغي على الحاكم أن يكون إلٰهاً بالنسبة لها أو لا يكون.

فهذه الأشياء ليست خرافات تنتمي إلى العصور القديمة، ثم جاء العقل وطردها نهائياً. فالعاطفة في صراعها الأبدي ضد العقل لم تكن مهزومة أبداً. صحيح أن الجماهير لم تعد تريد أن تسمع كلمتي

الآلهة والدين اللتين هيمنتا عليها زمناً طويلاً. ولكن ليس هناك من فترة في التاريخ شهدت ارتفاع التماثيل وبناء الهياكل على يدها مثل فترتنا هذه (أي منذ قرن من الزمن). فالحركة الشعبية الفرنسية المعروفة باسم البولانجية[1] تبين لنا مدى حجم السهولة التي تنبعث فيها الغرائز الدينية للجماهير من جديد. فلا يوجد أي نزل أو فندق في قرى فرنسا إلا وهو يعلق صورة البطل. فقد كانوا يعتقدون أنه قادر على علاج كل أنواع الظلم وكل الأمراض والشرور. وكان آلاف البشر مستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيله. ويا لها من مكانة ضخمة تلك التي كان سيحتلها في التاريخ لو أن شخصيته كانت قادرة على دعم أسطورته!

نستنتج من ذلك أنه لا داعي لتكرار الحقيقة البدهية بأن الجماهير بحاجة إلى دين. فالعقائد السياسية والسماوية والاجتماعية لا تترسخ لديها إلا بشرط أن تكتسي دائماً الحلة الدينية التي تضعها بمنأى عن المناقشة والأخذ والرد. فلو أنه أمكن فرض الإلحاد على الجماهير لاتخذت كل ضراوة التعصب الخاص بالعاطفة الدينية، ولأصبحت بسرعة في أشكالها الخارجية نوعاً من الطقس الشعائري. والتطور الأخير للطائفة الوضعية الصغيرة يقدم لنا برهاناً غريباً على ذلك. فهي تشبه ذلك العدمي الذي روى لنا الكاتب العميق دوستويفسكي قصته. فبعد أن أضاءته أنوار العقل يوماً ما، فإنه كسر صور الآلهة والقديسين التي كانت تزين هيكل مصلاه الصغير، وأطفأ الشمعات، وبدون أن يضيع لحظة واحدة فإنه استبدل بالصور الممزقة مؤلفات بعض الفلاسفة الملحدين، ثم أعاد من جديد إشعال الشمعات. لا ريب في أن موضوع عقائده الدينية قد تحول، ولكن هل يمكننا القول فعلاً بأن عواطفه الدينية قد تغيرت؟

سوف أكرر مرة أخرى القول بأننا لن نفهم بعض الأحداث التاريخية وخصوصاً الأكثرها أهمية إلا بعد أن ندرك الصيغة الدينية التي تنتهي عقائد الجماهير بتلبُّسها أخيراً. وهناك الكثير من الظواهر الاجتماعية التي تتطلب دراسة عالم نفس أكثر مما تتطلب دراسة عالم الطبيعة. إن مؤرخنا الكبير «تين» لم يدرس الثورة الفرنسية إلا من خلال وجهة نظر العالم الطبيعي، ولهذا السبب فإن المنشأ الحقيقي

للأحداث قد خفي عليه سابقاً. لقد رصد وقائعها وأحداثها بشكل ممتاز، ولكن بما أنه لم يقدر على فهم نفسية الجماهير، فإن كاتبنا المشهور لم يعرف دائماً كيف يعود إلى الأسباب العميقة لهذه الثورة. وبما أن أحداثها قد أرعبته بجانبها الدموي والفوضوي والمتوحش فإنه لم ير في أبطال الملحمة الكبرى إلا عصابة من البرابرة المتوحشين والمصروعين الذين يستسلمون بدون أي وازع لنزواتهم. فأعمال العنف التي نتجت عن الثورة الكبرى ومجازرها وحاجتها للدعاية وإعلانها الحرب على كل الملوك، كل ذلك لا يمكن فهمه إلا إذا اعتبرنا أنها زرعت إيماناً دينياً جديداً في نفوس الجماهير. فحركة الإصلاح الديني اللوثري ومجزرة سان بارتيليمي[٢] وحروب الأديان ومحاكم التفتيش والرعب الذي فرضته الثورة الفرنسية، كلها عبارة عن ظواهر متماثلة ومنجزة بتحريض من هذه العواطف الدينية التي تؤدي بالضرورة إلى استئصال كل من يعارض ترسيخ الإيمان الجديد بالحديد والنار. فالأساليب التي اتبعتها محاكم التفتيش المسيحية وتلك التي استخدمتها الثورة الفرنسية أثناء ما يدعى بمرحلة الرعب هي أساليب المؤمنين المقتنعين حقيقة. ولن يكونوا مقتنعين ولا مؤمنين لو أنهم اتبعوا أساليب أخرى.

إن الإنقلابات المشابهة لتلك التي ذكرتها ليست ممكنة إلا عندما تجعلها روح الجماهير تنبثق. فأكبر المستبدين ليسوا قادرين على إثارتها أو تهييجها. والمؤرخون الذين يلقون بمسؤولية مجزرة سان بارتيليمي على الملك يجهلون نفسية الجماهير مثلما يجهلون نفسية الملوك. فتظاهرات كهذه (أو مجازر كهذه) لا يمكن أن تخرج إلا من الروح الشعبية. وأكبر قوة مطلقة لعاهل مستبد لا يمكنها أن تفعل شيئاً يذكر فيما يخص هذه الوقائع الكبرى، اللهم إلا أن تسرِّع من لحظتها قليلاً أو تؤجل قليلاً. وليس الملوك هم الذين فعلوا مجزرة سان بارتيليمي ولا حروب الأديان، مثلما أنه ليس روبسبيير ولا دانتون ولا سان جوست هم الذين نظموا الرعب بعد قيام الثورة الفرنسية. فوراء أحداث كبرى كهذه نجد دائماً روح الجماهير.

الكِتابُ الثاني

آراء الجماهير وعقائدها

الفصل الأول

العوامل البعيدة المشكلة لعقائد الجماهير وآرائها

انتهينا للتو من دراسة التكوين الذهني للجماهير. وأصبحنا نعرف أساليبها في الإحساس، والتفكير، والمحاجّة. لندرس الآن إذن كيف تولد آراؤها وعقائدها وكيف تترسخ في النفوس.

إن العوامل التي تحدد آراء الجماهير وعقائدها ذات نوعين: عوامل بعيدة وعوامل قريبة (أو مباشرة).

فالعوامل البعيدة تجعل الجماهير قادرة على تبني بعض القناعات وغير مؤهلة لتبني قناعات أخرى. فهذه العوامل تمهد الأرضية لتبرعم وانبثاق الأفكار الجديدة التي تدهشنا بقوتها ونتائجها. ولكن عفوية انبثاقها ليست إلا شيئاً سطحياً وظاهرياً. فانفجار بعض الأفكار وتبلورها لدى الجماهير يشكل أحياناً مباغتة صاعقة. ولكن ذلك ليس إلا أثراً سطحياً يخبيء وراءه عادة عملاً طويلاً وبطيئاً سابقاً.

وأما العوامل المباشرة فهي تلك التي إذا ما تراكبت على ذلك العمل التمهيدي الطويل الذي لا يمكّنها أن تفعل فعلها بدونه، أثارت الإقتناع الفعال لدى الجماهير. نقصد بذلك أنها تبلور الفكرة وتخلع عليها هيئتها ثم تجيشها وتهيجها بكل نتائجها وانعكاساتها. وتحت ضغط هذه العوامل المباشرة تنبثق القرارات التي تحرك الجماعات البشرية فجأة. فهي التي تؤدي إلى انفجار تمرد شعبي ما أو شن إضراب ما. وهي التي تدفع أغلبية كبيرة من الشعب إلى الوصول بشخص ما إلى سدة السلطة، أو إسقاط حكومة معينة.

وفي كل الأحداث الكبرى للتاريخ نلاحظ وجود التأثير المتتالي لهذين النوعين من العوامل. فإذا ما ضربنا مثلاً الثورة الفرنسية التي تشكل أحد أهم الأمثلة وأكثرها إثارة، وجدنا أن من بين عواملها البعيدة نقد الكتّاب والمفكرين للنظام القديم، ثم ابتزاز هذا النظام القديم وتجاوزاته. وهكذا تمت تهيئة روح الجماهير للثورة واستطاعوا تجييشها فيما بعد بواسطة عوامل مباشرة كخطابات الخطباء مثلاً ومقاومة البلاط الملكي لإجراء اصلاحات زهيدة لم تعد ذات معنى.

ومن بين العوامل البعيدة هناك عوامل عامة نجدها في أعماق كل عقائد الجماهير وآرائها: كالعرق مثلاً، والتقاليد الموروثة، والزمن، والمؤسسات، والتربية والتعليم. وسوف ندرس فيما يلي دور كل منها على التوالي.

١ - العرق

إن عامل العرق ينبغي أن يوضع في المرتبة الأولى لأنه هو وحده أهم من كل العوامل الأخرى مجتمعة. وقد درسناه بما فيه الكفاية في كتاب سابق، ولن نعود إليه مطولاً هنا. كنا قد بيّنا ما الذي يعنيه العرق التاريخي، وكيف أنه ما إن تتشكل خصائصه وعقائده ومؤسساته وفنونه، وباختصار كل عناصر حضارته، حتى تصبح التعبير الخارجي لروحه. إن قوة العرق كبيرة إلى درجة أنه لا يمكن لأي عنصر أن ينتقل من أي شعب إلى آخر دون أن يتعرض للمتغيرات الأكثر عمقاً(١).

فالبيئة والظروف والأحداث تمثل المقترحات الاجتماعية الخاصة باللحظة. ويمكنها أن تمارس فعلاً مهماً، ولكن دائماً مؤقتاً، إذا كانت مضادة لمقترحات العرق أي لكل سلسلة الأسلاف والآباء والأجداد.

وسوف تتاح لنا الفرصة في فصول عديدة من هذا الكتاب لكي نعود إلى أهمية العرق ومدى تأثيره، ولكي نبين أن هذا التأثير من القوة والأهمية بحيث أنه يسيطر على الخصائص المتعلقة بروح الجماهير. ولهذا السبب فإن العديد من البلدان المختلفة تجسد في عقائدها

وسلوكها اختلافات متمايزة وقوية جداً، ولا يمكن التأثير عليها بنفس الطريقة.

٢ ـ التقاليد الموروثة

إن التقاليد تمثل الأفكار والحاجيات والعواطف الخاصة بالماضي. وهي تمثل خلاصة العرق وتضغط بكل ثقلها علينا.

فعلوم الأحياء كانت قد تعرضت للتحول والتغيير منذ أن كان علم الأجنة قد بيّن التأثير الهائل للماضي على تطور الكائنات. وسوف تشهد العلوم التاريخية نفس الظاهرة عندما يصبح هذا المفهوم أكثر انتشاراً. فهي غير منتشرة حتى الآن بالحد الكافي، والكثير من رجال السياسة لا يزالون عائشين على أفكار منظّري القرن الماضي. فهم يتخيلون أنه يمكن لمجتمع ما أن يقطع مع ماضيه ويعيد تشكيل نفسه من جديد عن طريق اتخاذه لأنوار العقل قائداً ودليلاً.

ولكننا نرى أن الشعب هو عبارة عن كائن عضوي مخلوق من قبل الماضي. وهو، ككل الكائنات العضوية الأخرى، لا يمكنه أن يتغير إلا بواسطة التراكمات الوراثية البطيئة.

فالقادة الحقيقيون للشعوب هم تقاليدها الموروثة. وكما كررت أكثر من مرة فإنهم لا يغيرون منها بسهولة إلا الأشكال الخارجية. ولا يمكن لأي حضارة أن تتوجد بدون تقاليد، أي بدون روح قومية.

والواقع أن أكبر همّين للإنسان منذ أن وجد على سطح هذه الأرض كانا يتمثلان في خلق شبكة من التقاليد أولاً، ثم في تدميرها عندما تكون آثارها الإيجابية والنافعة قد استنفدت. وبدون تقاليد ثابتة لا يمكن أن توجد حضارة. وبدون الإزالة البطيئة والتدريجية لهذه التقاليد لا يمكن أن يوجد تقدم. والصعوبة تكمن في إيجاد توازن عادل بين الثبات والتحول. وهذه الصعوبة ضخمة جداً. فعندما يتيح شعب ما لأعرافه وتقاليده أن تثبت وتترسخ بقوة زائدة طيلة أجيال عديدة، فإنه لا يعود يستطيع التطور ويصبح كالصين عاجزاً عن التطور والإصلاح. وحتى

الثورات العنيفة نفسها تصبح عاجـزة عن ذلك لأنه يحصل عندئذٍ إما أن تلتحم الأجـزاء المكسورة من السلسلة ببعضها البعض وعندئذٍ يستعيد الماضي هيمنته دون تغيير، وأما أن تولِّد هذه الأجزاء المتفرقة نوعاً من الفوضى أولاً ثم الإنحـطاط لاحقاً.

وبالتـالي فـإن المهمة الأساسية الملقاة على عاتق شعب ما ينبغي أن تـكمن في الحفـاظ على مؤسسات الماضي عن طريق تعديلها شيئاً فشيئاً. وإنها لمهمة صعبة وشاقة. ويمكن القول بـأن الرومان في الماضي والإنكليز في الحاضر هم وحـدهم الذين استطاعوا إنجازها.

إن المحافظين الأكثر عناداً وصلابة على الأفكار التقليدية والـذين يعارضون بإصـرار أي محـاولة لتغييرها هم الجماهير بـالذات، وخـصوصاً الفئات التي تشكل الطبقات المغلقة ذات الإمتيـازات. كـنت قد لفتُّ الإنتبـاه إلى هـذه الروح المحافظة وبيَّنت أن الكثير من الإنتفاضات لا تؤدي إلا إلى تغيير في الكلمات. نضـرب على ذلك المثل التـالي:

اعتقد النـاس في نهاية القرن الماضي أمام الكنائس المدمَّرة والكهنة المطرودين أو المعدومين بالمقصلة والاضطهاد الكوني الشامل للشعائر الكاثوليكية أن الأفكار الدينية العتيقة قد انتهت وفقدت كـل سلطة. ولكن بعد بضع سنوات من ذلك التـاريخ أدت الالتماسات والمطـالب الكونية العامة إلى إعـادة الشعائر الملغاة[٢].

وليس هنـاك من مثـال آخـر يبين لنا بشكل أفضل مدى تأثير التقاليد الموروثة على روح الجماهير. فالمعابد لا تحتوي على الأصنـام المعبودة الأكثر جبروتاً، كما أن القصور لا تحتوي على الطغـاة الأكثر استبـداداً. ذلك أنه يمكن تدميرها بسهولة. فالأسياد المتوارون الـذين يسيطرون على أرواحنا يقاومون كـل محاولة لـلإطاحـة بهـم ولا يستسلمون إلا للإستهـلاك البطيء للقـرون.

٣ ـ الزمـن

إن الزمن يشكل بالنسبة للمشاكل الاجتماعية كما بالنسبة للمشاكل

البيولوجية أحد العوامل الأكثر تأثيراً ونشاطاً. فهو يمثل المولِّد الحقيقي والمدمِّر الكبير. فهو الذي بنى الجبال من حبات الرمال، ورفع إلى مستوى الكرامة البشرية تلك الخلية الحية الصغيرة عبر الأزمنة الجيولوجية. ويكفي لكي نحول ظاهرة ما أو نغيرها أن ندخل عامل الزمن والقرون. وكما قالوا بحق فإن النملة تستطيع أن تزيل الجبل الأبيض[٣] لو امتلكت الزمن الكافي. والشخص الذي يمتلك القوة السحرية للتحكم بالزمن والتلاعب به، سوف يمتلك الجبروت الذي يعزوه المؤمنون لآلهتهم.

ولكن لا تكمن مهمتنا هنا في دراسة تأثير الزمن على منشأ آراء الجماهير. فتأثيره من وجهة النظر هذه عظيم. فهو يتحكم بالقوى الكبرى المؤثرة كالعرق مثلاً، وهي لا تستطيع التواجد والتشكل إلا بدونه. وهو الذي يجعل كل العقائد تتطور وتموت. فبه تمتلك قوتها وجبروتها، وبه تفقدها.

إن الزمن هو الذي يطبخ آراء وعقائد الجماهير على ناره البطيئة، بمعنى أنه يهيئ الأرضية التي ستنشأ عليها وتبرعم. نستنتج من ذلك أن بعض الأفكار التي يمكن تحقيقها في فترة ما تبدو مستحيلة في فترة أخرى. فالزمن يراكم البقايا العديدة جداً للعقائد والأفكار، وعلى أساسها تولد أفكار عصر ما. فهذه الأفكار لا تنبت بالصدفة أو عن طريق المغامرة. وإنما نجد جذورها تضرب عميقاً في ماضٍ طويل. وعندما تزهر يكون الزمن قد هيَّأ المجال لتفتحها. وإذا ما أردنا أن نفهم منشأها فينبغي دائماً أن نرجع في الزمن إلى الوراء. فهي بنات الماضي وأم المستقبل وعبدة الزمن دائماً (أي تابعة له).

وبالتالي فهذا يعني أن الزمن هو سيدنا الحقيقي، ويكفي أن نتركه يفعل فعله لكي نرى كل الأشياء تتحول وتتغير. واليوم نحن نقلق كثيراً من المطامح الخطرة للجماهير، ومن الدمار والإنقلابات التي تنذر بها. والزمن هو وحده الذي يتكفَّل بإعادة التوازن. كتب السيد لافيس ومعه كل الحق يقول: «لا يمكن لأي نظام سياسي أن

ينهـار في يوم واحـد. فالتنظيمات السياسية والاجتماعيـة هي عبـارة عن أعمـال تتطلب قـروناً لإنجـازها. وقد انوجـد النظام الإقـطاعي بشكل هـلامي وفوضوي طيلة قـرون عديدة قبـل أن يستقر ويبلور قواعده وأسسه. والنظام الملكي المطلق عـاش قـروناً عـديدة أيـضاً قبل أن يجـد الوسائل المستقرة والمنتظمة للحـكم. وقد حصـلت اضطرابات كـبرى في فواصل الإنتظـار هـذه».

٤ ـ المؤسسات السياسية والاجتماعية

إن الفكـرة القائلة بـأن المؤسسات يمكنها أن تشكل علاجـاً لنواقص المجتمع، وإن تقدم الشعوب نـاتج عن اكتمال الدسـاتير وأشكال الحـكومات، وإن المتغيرات الإجتماعية يمكن أن تنتج بمجـرد سن القوانين، هـي فكرة لا تـزال شائعة جـداً حـتى الآن كما قـلت. وقد انطلقت منها الثورة الفرنسية، وكـذلك الأمر فيما يخـص النظريات الإجتماعية الحالية فهـي تستند إليها.

إن التجـارب الأكثر استمرارية وتواصلية لم تنجح في زعزعة هـذا الوهم الكـبير. وقد حـاول الفلاسفة والمؤرخـون أن يبرهـنوا على عبثيته ولكن دون جـدوى. هـذا على الرغم من أنه لـم يـكن من الصعب عليهم أن يبينوا أن المؤسسات هـي بنت الأفكـار والعواطف والأخـلاق والطبائع، وإنه لا يمكننا إعـادة هذه الأشياء عن طريق إعادة القوانين. فـالشعب ـ أي شعب ـ لا يخـتار مؤسساته مثلما لا يخـتار لون عيونه أو شعره. فالمؤسسات والحـكومات تمثل منتوج العرق. وبـدلاً من أن تكون خـلاّقة العصر فهـي مخلوقته. والشعوب ليست محـكومة طبقاً لنزوات لحـظة ما، وإنما طبقاً لما تمليه طباعها وخـصائصهـا. ويـلزم أحياناً عدة قـرون من أجـل تشكيل نظـام سياسي معين، وعـدة قـرون أخـرى من أجـل تغييره. فالمؤسسات ليس لها أيـة ميزة أزلية أو أبـدية، وليست جيـدة أو رديئة بحـد ذاتها. فهـي قد تكون جيدة في لحظة ما لشعب ما، وقد تصبح كريهة بالنسبة لشعب آخـر.

وإذن فـإن الشعب لا يمتلك أبداً أية قـدرة حقيقية على تغيير

مؤسساته. لا ريب في أنه يستطيع تعديل اسمها عن طريق إشعال الثورات العنيفة، ولكن المضمون لا يتغير. وبما أن الأسماء هي عبارة عن إشارات لا أهمية لها فإن المؤرخ المشغول بالقيم الفعلية للأشياء لا يعيرها أي انتباه. هكذا نجد مثلاً أن إنكلترا، أكثر البلدان في العالم ديمقراطية، خاضعة لنظام ملكي(٤). هذا في حين أن الجمهوريات الإسبانية ـ الأمريكية المحكومة من قبل الدساتير الجمهورية تتعرض لأبشع أنواع الاستبداد. فطباع الشعب وليس الحكومات هي التي تحسم مصيرها. وقد حاولت البرهنة على هذه الحقيقة في كتاب سابق عن طريق الاتكاء على أمثلة قاطعة.

وإذن فإنها مهمة تافهة وتمريناً بلاغياً لا جدوى منه أن نضيع وقتنا في صناعة الدساتير أو تأليفها. فالضرورة والزمن كفيلان ببلورتها عندما نترك هذين العاملين يفعلان فعلهما. وقد بيّن لنا المؤرخ الكبير ماكولاي في مقطع ينبغي أن يحفظه السياسيون عن ظهر قلب في كل البلدان اللاتينية أن البريطانيين قد تصرفوا بهذه الطريقة. فبعد أن فسر فوائد القوانين التي تبدو من وجهة نظر العقل عبارة عن فوضى مليئة بالعبث والتناقض، فإنه قارن بين الدساتير الإثني عشر التي ماتت أثناء الإنتفاضات التي شهدتها الشعوب اللاتينية لأوروبا وأمريكا مع دستور إنكلترا. وبيّن لنا أن هذا الأخير لم يعدَّل أو يغيَّر إلا ببطء شديد وبشكل جزئي، وذلك تحت تأثير الحاجيات المباشرة وليس أبداً طبقاً للمحاكمات العقلية النظرية. قال بالحرف الواحد: «ينبغي عدم الإهتمام أبداً بالتماثل أو بالتناسق أثناء صنع الدساتير، وإنما فقط بالفائدة والمنفعة. ولا تحذفوا أي شذوذ فقط لأنه شذوذ. ولا تحاولوا أبداً أن تجددوا أو تبتكروا إلا إذا أحسستم بوجود انحراف أو انزعاج. وعندئذٍ ابتكروا فقط بالقدر الكافي لإزالة هذا الإنحراف المزعج. لا تحاولوا أبداً تقديم قانون أو مقترح أكبر من الحالة الخاصة التي ابتكر لعلاجها. هذه هي القواعد التي قادت مداولات برلماناتنا المائتين والخمسين منذ عصر يوحنا وحتى عصر فيكتوريا».

ينبغي أن ندرس قوانين ومؤسسات كل شعب الواحد بعد الآخر

لكي نبيِّن إلى أي مدى تمثل التعبير عن حاجيات عرقها، وبالتالي فلا يمكن تغييرها عن طريق العنف. يمكننا مثلاً أن نتناقش فلسفياً، وكما نشتهي ونريد، حول فوائد المركزية ومساوئها. ولكن عندما نجد شعباً ما مؤلفاً من أعراق مختلفة يكرس ألف عام من الجهود لكي يتوصل تدريجياً إلى هذه المركزية، وعندما نلاحظ أن ثورة كبرى قد هدفت إلى كسر كل مؤسسات الماضي ولكنها اضطرت ليس فقط إلى احترام هذه المركزية وإنما إلى زيادتها أيضاً، فإننا نستنتج من ذلك أن المركزية هي وليدة ضرورة قاهرة، بل وحتى شرطاً للوجود. ونتأسف عندئذٍ للضعف العقلي لأولئك السياسيين الذين يتحدثون عن تدميرها (المقصود الوحدة المركزية لفرنسا بالطبع، ثم الثورة الفرنسية). وإذا ما حصلت الصدفة وانتصرت فكرتهم فإن هذا النجاح سوف يكون مؤشراً على فوضى(٥) عميقة تؤدي في النهاية إلى مركزية جديدة أكثر صرامة من القديمة.

لنستنتج من كل ما سبق أن البحث عن وسيلة للتأثير على روح الجماهير لا ينبغي أن يكون في المؤسسات. فبعض البلدان، كالولايات المتحدة مثلاً، تزدهر بشكل رائع من خلال المؤسسات الديمقراطية. وبعضها الآخر، كالجمهوريات الإسبانية الأمريكية، تعيش بشكل خامل على الرغم من وجود مؤسسات مشابهة. ولا علاقة لهذه المؤسسات بعظمة الولايات المتحدة، كما أنه لا علاقة لها بانحطاط الجمهوريات المذكورة. فهي ليست السبب. فالشعوب تبقى محكومة بخصائصها وطباعها. وكل المؤسسات التي لم تتلبس كلياً هذه الطباع لا تمثل إلا رداء مستعاراً، وقناعاً مؤقتاً. لا ريب في أنه قد حصلت حروب دموية، وثورات عنيفة، وسوف تحصل في المستقبل أيضاً من أجل فرض مؤسسات تعزى إليها مقدرة خارقة للطبيعة على خلق السعادة. وبالتالي فيمكننا القول بمعنى من المعاني أن المؤسسات تؤثر على روح الجماهير لأنها تولد انتفاضات كهذه. ولكننا نعرف في الواقع أنها سواء أكانت منتصرة أم مغلوبة، فإنها لا تمتلك بحد ذاتها أي فضيلة. وبالتالي فإن متابعة اقتناصها والحصول عليها تشبه ملاحقة الأوهام.

٥ ـ التعليم والتربية

من بين أوائل الأفكار المهيمنة في عصرنا توجد الفكرة التالية: إن النتيجة المؤكدة للتعليم تكمن في تحسين أوضاع البشر وأصلاحهم، بل وجعلهم متساوين. وبسبب من تكرار هذه الفكرة دون كلل أو ملل فإنها قد أصبحت إحدى العقائد الأكثر رسوخاً للديمقراطية. وقد أصبح جداً من الصعب المسّ بها الآن أو مناقضتها كما كان من الصعب سابقاً أن يمسّ المرء إحدى عقائد الكنيسة.

ولكننا نجد أن الأفكار الديمقراطية تقع في تناقض عميق مع معطيات علم النفس والتجربة فيما يخص هذه النقطة ونقاط أخرى عديدة. فالفلاسفة العديدون، وخصوصاً هيربيرت سبنسر كانوا يستطيعون البرهنة بسهولة على أن التعليم لا يجعل الإنسان لا أكثر أخلاقية ولا أكثر سعادة، وإنه لا يغير غرائزه وأهواءه الوراثية. وإذا ما طبق بشكل سيِّء فإنه يصبح ضاراً أكثر مما هو نافع. وقد أكد علماء الإحصاء على هذه الآراء عندما قالوا لنا بأن الجريمة تتزايد مع تعميم ظاهرة التعليم، أو على الأقل تعميم نوع معين من أنواع التعليم. كما وبرهنوا لنا على أن أكبر أعداء المجتمع، أي الفوضويين، يجنّدون غالباً في صفوف الفائزين الأوائل في المدارس. وقد لاحظ أحد القضاة المرموقين السيد أدولف غيلو إننا نعد الآن ثلاثة آلاف مجرم متعلم مقابل ألف مجرم أمي. وقال بأن الجريمة قد زادت خلال خمسين عاماً من مائتين وسبعة عشرين مقابل كل مائة ألف شخص إلى خمسمائة واثنين وخمسين مقابل نفس العدد، أي أن الزيادة كانت بنسبة ١٣٣٪. كما واكتشف أيضاً مع زملائه أن الجريمة تتزايد أساساً لدى الشبيبة التي حلت لديها المدرسة المجانية محل سلطة رب العمل.

بالطبع لا أحد يقول بأن التعليم الجيد لا يؤدي إلى نتائج مفيدة جداً. وإذا كان لا يرفع مستوى الأخلاقية لدى الشخص، فإنه على الأقل يتيح له تطوير قدراته المهنية. للأسف، فإن الشعوب اللاتينية قد أسست نظامها التعليمي، خصوصاً منذ ثلاثين سنة، على مبادىء ناقصة

جداً. وعلى الرغم من الملاحظات الإنتقادية التي وجهها إليه مفكرون كبار إلا أنهم يصرون على خطئهم الفادح. وكنت أنا شخصياً قد بينت في كتب عديدة[٦] أن تعليمنا الحالي يحول عدداً كبيراً من أولئك الذين يتلقونه إلى أعداء للمجتمع. كما أنه يقدم الكثير من المجندين والأنصار للإنخراط في أبشع أنواع الإشتراكية.

والخطر الأول لهذه التربية المدعوة حقاً باللاتينية هو ارتكازها على خطأ نفسي أساسي مفاده أن استذكار الكتب المدرسية يطور الذكاء أو يجعله يتفتح. وبناء على ذلك فيجهد الطلاب في تعلم أكبر قدر من المواد والمعلومات واختزانها. وهكذا نجد أن الطالب الشاب ما ينفك منذ السنة الابتدائية وحتى الدكتوراه أو شهادة التبريز يبتلع مضمون الكتب بدون أن يشغل عقله أو رأيه الشخصي. فالتعليم بالنسبة له يتمثل في الحفظ والطاعة. يقول السيد جول سيمون الوزير السابق للتعليم بهذا الصدد ما يلي: «إن تعلم الدروس وحفظ القواعد أو المختصرات عن ظهر قلب، ثم ترددها وتقليدها جيداً يشكل ثقافة مسلية. وفيها نجد أن كل جهد هو عبارة عن إيمان واعتقاد بمعصومية الأستاذ. وهي لا تؤدي في النهاية إلا إلى خفض مستوانا وجعلنا عاجزين».

ولو كان هذا التعليم عديم الجدوى فقط لاكتفينا بالحزن والرثاء على الأطفال الذين يعلّمون بدلاً من الأشياء الكثيرة الضرورية شجرة النسب لأبناء كلوتير وصراعات نوستري وأوستراسي أو التصنيفات الحيوانية، ولكنه يمثل خطراً أكبر بكثير لأنه يوحي للطفل الذي تلقاه تقززاً عنيفاً من البيئة التي ولد فيها والرغبة الشديدة في الخروج منها. فالعامل لم يعد يرغب في أن يبقى عاملاً، والفلاح لم يعد يرغب في أن يبقى فلاحاً، وآخر البورجوازيين لم يعد يرى لأولاده من مهنة ممكنة إلا أن يصبحوا موظفين ذوي رواتب لدى الدولة. وبدلاً من تحضير رجال المستقبل لمواجهة الحياة، فإن المدرسة لا تحضرهم إلا للوظائف العامة حيث لا يتطلب النجاح أي جهد شخصي أو مبادرة ذاتية من طرف الطالب. فهو يخلق في أسفل السلم الاجتماعي جيوشاً من

البروليتاريين الناقمين على وضعهم والمستعدين دائماً للتمرد. ويخلق في أعلى السلم الاجتماعي بورجوازيتنا الطائشة، المتشككة والساذجة في آن معاً. هذه البورجوازية التي تثق ثقة خرافية بالدولة وكأنها قادرة على صنع المعجزات. وعلى الرغم من ذلك فهي تلومها باستمرار وتتهم الحكومات باقتراف أخطائها الخاصة بالذات. وهي عاجزة عن القيام بأي مبادرة أو مشروع بدون تدخل السلطة.

والدولة التي تخرِّج بواسطة هذه الكتب المدرسية البائسة كل هؤلاء الطلاب لا تستطيع أن توظف منهم إلا عدداً صغيراً، وتترك الآخرين بدون عمل. وبالتالي فعليها أن تقنع بإطعام الأولين، وجعل الآخرين أعداء لها. ومن أعلى الهرم الإجتماعي إلى أسفله نجد أن الكمية الضخمة من الخريجين تحاصر كل المهن والوظائف اليوم. فالتاجر لا يجد إلا بصعوبة شديدة وكيلاً يقبل بالذهاب إلى المستعمرات لتمثيله فيها. ولكن أكثر الوظائف تواضعاً تتلقى آلاف الطلبات من قبل المرشحين للتوظيف. فمحافظة السين تحتوي وحدها على عشرين ألف معلم ومعلمة بدون عمل. وبما أنهم يحتقرون العمل في الحقول أو في المصانع فإنهم يتوجهون بطلباتهم إلى الدولة لكي يعيشوا. وبما أن عدد المقبولين محدود، فإن عدد الناقمين كبير بالضرورة. وهؤلاء الأخيرون مستعدون لخوض كل الثورات أياً تكن أهدافها أو قادتها. فاكتساب المعارف التي لا يمكن استخدامها هو الوسيلة المؤكدة لتحويل الإنسان إلى متمرد(٧).

بالطبع فقد فات الأوان لتدارك مثل هذا الأمر وعكس التيار. فوحدها التجربة، المربية الأولى والأخيرة للشعوب، قادرة على الكشف عن خطئنا. ووحدها قادرة على إقناعنا بضرورة تغيير كتبنا المدرسية الغبية، ومسابقاتنا المحزنة واستبدال التعليم المهني والتخصصي بها. فهو وحده القادر على إعادة الشبيبة إلى الحقول والمصانع والشركات الاستعمارية المهجورة اليوم.

وهذا التعليم المهني الذي يطالب به جميع المستنيرين اليوم هو

الـذي كان قد تلقاه آباؤنا بالأمس. وهو الـذي عرفت الشعوب التي تهيمن اليوم على العالم بإرادتها ونشاطها وحس المبـادرة لديها أن تحـافظ عليه. وقد بيَّن «تين» في صفحـات ناصعة سوف أقـدم فيما بعد أهـم مقاطعهـا كيـف أن نظامنا التعليمي في الماضي كان يماثل تقريباً نظـام التعليم الإنكليزي أو الأمريكي السائد اليوم. ثم يقيم مقارنة رائعة بين النظام اللاتيني والنظام الأنغلوساكسوني، ويبيِّن النتائج والإنعكاسات المترتبة على كـل منهما (أي على منهجيتهما).

ربما كـان ممكناً أن نقبل كـل أضرار نظامنا التعليمي الكلاسيكي، هـذا على الرغم من أنه لا ينتج إلا الساقطين والناقمين لو أن الإكتساب السطحي لكل هذه المعلومات والترداد الببغائي لكـل تلك الكتب المدرسية يرفعـان من مستوى الذكاء والفهم. ولكن هـل يؤدي بالفعل إلى هـذه النتيجة؟ لا، للأسف الشديد! فالحـكم الصائب والتجربة وحس المبادرة والطبع القوي تشكل شروطاً للنجاح في الحياة، ولا يمكننا أن نجدها في الكتب. ذلك أن الكتب هي عبـارة عن قواميس مفيدة للاستشارة، ولكـن ليس ضرورياً أبـداً أن نخـزن في الرأس مقاطع مطولة منها.

كـيف يمكن للتعليم المهني أن يطور الذكاء إلى حـد يستعصي تماماً على التعليم الكلاسيكي؟ لقد بيَّن لنا ذلك العلّامة تين في السطور التـالية:

«إن الأفكـار لا تتشكل إلا في وسطها الطبيعي والعادي. والشيء الـذي ينبت براعمها هو الإنطباعات الحسية العديدة جـداً والتي يتلقاها الصبي كـل يوم في المشغل أو في المنجـم أو في المحكمة أو في المدرسة أو في الـورشة أو في المستشفى أو في مجموعة الآلات.

لنقل: أجهـزة وعمليات تحت تصرف الزبائن، والعمال، عمل، وبضاعة مشغولة بشكل جيد أو رديء، غالية الثمن أو مربحة. هذه هي الأشياء الحسية التي تبصرها العين والأذن والأيدي وحـتى حاسة الشمّ. وهي التي يتلقاها التلميذ الصغير بشكل لا إرادي من الطبيعة بعد أن

تنضج بشكل صامت، ثم تنتظم فيه لكي توجه عاجلاً أو آجلاً نحو هذه التركيبة الجديدة أو غيرها، ونحو هذا التبسيط، أو ذلك الاقتصاد، أو تلك التمامية والاختراع. ونلاحظ أن الطفل الفرنسي محروم من كل هذه الإتصالات الثمينة، ومن كل هذه العناصر الضرورية والقابلة للتمثل والهضم. وبشكل أخص فهو محروم منها في أخصب مراحل عمره. وبدلاً من ذلك فهو مسجون لمدة سبع أو ثماني سنوات في المدرسة بعيداً عن التجربة المباشرة والشخصية التي كانت ستقدم له الفهم الدقيق والمنعش للأشياء، وللبشر، ومختلف الأساليب للتعامل معها ومعهم.

... وعلى الأقل فتسعة على عشرة من هؤلاء التلاميذ أضاعوا وقتهم وتعبهم وسنوات عديدة من حياتهم. وإنها لسنوات فعالة ومهمة، بل وحاسمة. احسبوا أولاً نصف أولئك الذين سيتقدمون للإمتحان أو حتى ثلثيهم، فهم من الساقطين. ثم فيما بعد نجد من بين الناجحين أصحاب الدرجات والمسجلين وأصحاب الشهادات، أي كل أولئك المرهقين. فقد كلفهم المدرسون فوق طاقتهم عندما طلبوا منهم أن يرددوا في مجموعة العلوم وهم جالسون على الكرسي أو واقفون أمام اللوح طيلة ساعتين كاملتين الفهرس الجامع لكل المعارف البشرية! في الواقع إنهم فعلوا ذلك أو كله تقريباً في اليوم المذكور ولمدة ساعتين. ولكن بعد شهر من ذلك التاريخ، لا يعودون يعرفون شيئاً يذكر لأنهم لن يتعرضوا مرة أخرى للإمتحان. وبما أن مكتسباتهم المعرفية عديدة أكثر مما يجب وثقيلة أكثر مما يجب فإنها تتبخر من عقولهم ولا يعوضون عنها بمعارف جديدة. فقوتهم العقلية تدهورت، والنسغ الخصب جف ونضب. فالإنسان المصنوع بشكلٍ جاهز يظهر للعيان، وفي الغالب يظهر كإنسان منته. فهذا الإنسان المدجّن والمتزوج والمستسلم للدوران في حلقة مفرغة إلى ما لا نهاية ينغلق داخل وظيفته الضيقة. وهو يقوم بواجبه كما ينبغي، ولكن لا شيء آخر. وهذا هو المردود الوسطي، وبالتأكيد فإن الحصيلة الناتجة لا تساوي الثمن المدفوع. وأما في إنكلترا وأمريكا كما في فرنسا قبل (١٧٨٩) فإنهم يستخدمون المنهجية المعاكسة، وكان المردود الحاصل مساوٍ للجهد المبذول أو أكبر منه».

إن المؤرخ الشهير يبين لنا فيما بعد الفرق بين نظامنا التعليمي ونظام الأنغلوساكسون. فالتعليم لديهم لا يجيء من الكتب وإنما من الأشياء ذاتها. فالمهندس مثلاً يتدرب في المشغل ونادراً في المدرسة، وكل طالب يتوصل بالضبط إلى الدرجة التي يمتلكها عقله. فهو يتوصل إلى درجة العامل أو رئيس العمال إذا كان ذكاؤه لا يسمح له بالذهاب أبعد من ذلك. وهو يتوصل إلى مرتبة مهندس إذا كانت ملكاته تسمح بذلك. وهذه هي الطريقة الديمقراطية والمفيدة للمجتمع. فهي أفضل من تلك التي تجعل كل مستقبل الفرد ومهنته تعتمد على مسابقة تدوم بضع ساعات فقط، وتتم في سن الثامنة عشرة أو العشرين.

ثم يتابع تين قائلاً:

«إن التلميذ الذي دخل صغيراً جداً للتدرب في المستشفى أو في المنجم أو في المصنع أو لدى المهندس المعماري أو لدى المحامي يحصل على تدريبه الأولي ودورته التعليمية تماماً كما يفعل رجل الدين الذي يكرس نفسه للدراسة أو التلميذ الرسام في محترفه. فهو قد حصل مسبقاً، أي قبل الدخول، على بعض الدروس العامة والمختزلة من أجل أن يمتلك إطاراً جاهزاً لكي يموضع فيه الملاحظات التي سوف يسجلها لاحقاً. ولكنه يجد في متناول يده غالباً بعض الدروس التقنية التي يمكنه حضورها في ساعات فراغه، وذلك من أجل تنسيق التجارب اليومية التي يقوم بها شيئاً فشيئاً. وفي ظل نظام كهذا تقوى المقدرة العملية للتلميذ وتتزايد من تلقاء ذاتها، وذلك بحسب درجة ذكائه ومواهبه، وطبقاً للاتجاه الذي تتطلبه مهمته المقبلة عن طريق الاختصاص الذي انخرط فيه منذ تلك اللحظة وأراد التأقلم معه. وبهذه الطريقة يتوصل التلميذ في إنكلترا والولايات المتحدة إلى تقديم أفضل ما يمكن أن يعطيه أو تقدر أن تعطيه مواهبه. ومنذ سن الخامسة والعشرين وحتى قبل ذلك بكثير يستطيع إذا كانت الملكات لا تنقصه أن يكون ليس فقط منفذاً نافعاً لمهنة ما، وإنما أيضاً مقاولاً حقيقياً ليس فقط بالدولاب وإنما بالمحرك زيادة على ذلك. وأما في فرنسا فقد سيطرت

المنهجية المعاكسة وأصبحت أكثر بلادة في كل جيل، وبالتالي فإن مجمل القوى الضائعة يبدو ضخماً».

ثم يتوصل الفيلسوف الكبير إلى النتيجة التالية الخاصة بالتفاوت المتزايد بين تعليمنا اللاتيني والحياة العملية ويقول:

«هناك طبقات ثلاث للتعليم تخص مرحلة الطفولة والمراهقة والشباب. والتحضير النظري والمدرسي على مقاعد الدرس بواسطة الكتب تطاول وأثقِل بالدرجات والشهادات والإجازات من أجل الإمتحان فقط. واستخدموا لذلك أسوأ الوسائل عن طريق تطبيق نظام ضد الطبيعة وضد المجتمع لأنه يؤجل باستمرار مرحلة التدريب العملي وذلك بواسطة نظام التعليم الداخلي والتدريب الاصطناعي والتعبئة الميكانيكية، ثم بواسطة الإرهاق الذي لا يبالي بالزمن التالي، أي عندما يبلغ الإنسان سن النضج ويمارس مسؤولياته ومهنته بغض النظر عن العالم الحقيقي الذي سيسقط منه لاحقاً الشاب الصغير، وعن المجتمع المحيط الذي ينبغي أن يتأقلم معه أو يستسلم له سلفاً، وعن الصراع البشري الذي ينبغي عليه لكي يدافع عن نفسه ويقف على قدميه أن يجهز نفسه بشكل جيد مسبقاً ويسلح نفسه ويتدرب على الصعوبات ويصبح قوياً خشناً. وهذا التجهيز الضروري، وهذا الإكتساب الأكثر أهمية من كل ما عداه، وهذا الثبات للحس الصائب وللإرادة وقوة الأعصاب، كل ذلك لا توفره مدارسنا للتلميذ. على العكس. فبدلاً من أن تجعله مؤهلاً كفؤاً فإنها تنزع عنه كل أهلية وكفاءة فيما يخص مستقبله ووظيفته اللاحقة والنهائية. وبناء على ذلك فإن دخوله إلى مسرح العالم وخطواته الأولى في حقل الممارسة العملية ليست في غالب الأحيان إلا سلسلة متتابعة من السقوط المؤلم. ويظل يئن تحت وطأتها، ومدعوكاً لزمن طويل بسببها، وأحياناً عاجزاً أو مقعداً في البيت. وإنها لمحنة شاقة وخطرة. فالتوازن الأخلاقي والعقلي يفسد فيها ويصبح مهدداً بعدم العودة إلى سابق عهده من جديد. ثم تجيء فترة انقشاع الأوهام بشكل مفاجىء ومطبق، فالخيبات كانت أكبر مما يجب، والمرارات أقوى مما يمكن احتماله»(٨).

هـل ابتعدنا في كـل هذه الإستشهادات والصفحـات عن نفسية الجماهير؟ لا، بالتأكيد. ولكي نفهـم الأفكـار والعقائـد التي تزرع اليوم وتتفتح غداً، فـإنه ينبغي علينا أن نفهم كـيف تمت عملية تحـضير الأرضِ وتمهيدها. فالتعليم الـذي يقدم لشبيبة بـلد ما يتيح لنا أن نستشرف قليلاً مصير هـذا البلد ومستقبله. وتربية الجيل الحـالي تبرر كـل التوقعات والمخـاوف السوداء. فمع التعليم والتربية تتحسن روح الجماهير أو تفسد، فهما مسؤولان عن ذلك جزئياً. وبالتـالي فقد كان من الضروري تبيان كـيف أن النظام الحـالي قد شكل وعيها وعقليتها، وكـيف أن أغلبية اللامبالين والحيـاديين قد أصبحـت تدريجياً جيشاً هائـلاً من الناقمين المستعدين لاتبـاعِ كـل تحريضات الطوباويين وخطباء البلاغة والكلام. إن المدرسة تخرِّج اليوم الناقمين والفوضويين وتهيِّيء للشعوب اللاتينية زمن الانحـطاط.

الفصل الثاني

العوامل المباشرة التي تساهم في تشكيل آراء الجماهير

كنا قد تحدثنا عن العوامل البعيدة والتمهيدية التي تزود روح الشعوب بقابلية استقبال خصوصية، وتجعل ممكناً لدى الجماهير تفتح بعض العواطف وازدهار بعض الأفكار. وبقي علينا الآن أن نتفحص العوامل القابلة لممارسة عمل فوري ومباشر. وسوف نرى في فصل مقبل كيف ينبغي تسيير هذه العوامل من أجل أن تولّد كل الآثار والنتائج المطلوبة.

إن الجزء الأول من كتابنا هذا قد عالج عواطف الجماعات البشرية وأفكارها ومحاجاتها أو حججها. وهذه المعرفة قادرة بالطبع وبشكل عام على تقديم الوسائل الكفيلة بالتأثير على روح الجماهير وجذبها. ونحن نعرف الآن ما الذي يدهش مخيلة الجماهير ويصدمها. كما ونعرف قوة التحريضات وحجم عدواها وانتشارها وخصوصاً إذا ما قدمت على هيئة صور. ولكن بما أن التحريضات الممكنة هي من أصول شديدة الاختلاف، فإن العوامل لقادرة على التأثير على روح الجماهير يمكنها أن تكون مختلفة بما فيه الكفاية. وبالتالي فمن الضروري أن ندرسها بشكل منفصل. فالجماهير تشبه إلى حد ما طائر العنقاء في الخرافة القديمة. بمعنى أنه ينبغي أن نعرف كيف نحل المشاكل التي تطرحها نفسيتها علينا، أو أن نستسلمَ لها فتبتلعنا.

١ ـ الصور، والكلمات، والعبارات (أو الشعارات)

عندما درسنا مخيلة الجماهير رأينا أنها تتأثر بالصور بشكل خاص.

فهي تبهرها فعلاً. وإذا لم نكن نمتلك الصور فإنه من الممكن أن نثيرها في مخيلة الجماهير عن طريق الإستخدام الذكي والصائب للكلمات والعبارات المناسبة. فإذا ما استخدمناها بشكل فني لبق فإنها تستطيع عندئذٍ أن تمتلك القوة السرية التي كان اتباع السحر يعزونها إليها في الماضي. فهي تثير في روح الجماهير العديدة أقوى أنواع الإعصار، ولكنها تعرف أيضاً كيف تهدئها. ويمكننا أن نبني هرماً أكثر علواً من هرم كيوبس العتيق بواسطة عظام الضحايا فقط، أقصد ضحايا الجماهير التي هيجتها الكلمات والعبارات.

إن قوة الكلمات مرتبطة بالصور التي تثيرها، وهي مستقلة تماماً عن معانيها الحقيقية. والكلمات التي يصعب تحديد معانيها بشكل دقيق هي التي تمتلك أحياناً أكبر قدرة على التأثير والفعل. نضرب على ذلك مثلاً الكلمات التالية: ديمقراطية، اشتراكية، مساواة، حرية، إلخ.. فمعانيها من الغموض بحيث إننا نحتاج إلى مجلدات ضخمة لشرحها. ومع ذلك فإن حروفها تمتلك قوة سحرية بالفعل، كما لو أنها تحتوي على حل لكل المشاكل. فهي تجمع المطامحة اللاواعية المتنوعة وتركبها، وتحتوي على الأمل بتحقيقها.

فالعقل والمحاجات العقلانية لا يمكنها أن تقاوم بعض الكلمات والصياغات التعبيرية. فما إن تُلفَظ بنوع من الخشوع أمام الجماهير حتى تعلو آيات الاحترام على الوجوه وتنحني الجباه لها. والكثيرون يعتبرونها بمثابة قوة من قوى الطبيعة، أو قوى خارقة للطبيعة. فهي تثير في النفوس صوراً مجيدة وغامضة، ولكن الغموض الذي يظللها يزيد من قوتها السرية. ويمكننا أن نقارنها بتلك الآلهة المرعبة المختبئة وراء خيمة لا يقترب منها الرجل الورع إلا وهو يرتجف مرتعشاً.

وبما أن الصور المثارة من قبل الكلمات مستقلة عن معانيها، فإنها تختلف من عصر إلى عصر، ومن شعب إلى شعب، على الرغم من تماثل الصياغات التعبيرية ذاتها. وترتبط مؤقتاً ببعض الكلمات بعض الصور. فالكلمة ليست إلا الزرّ الذي نكبسه لكي تخرج الصور فوراً.

ولا تملك كـل الكلمات أو العبارات القدرة على الإيحـاء بالصور أو إثـارتها. ومنها ما يـرثّ ويبتذل بعد أن كان قادراً على إثـارتها، ولا يعود يوقظ أي شيء في الـروح وهي عندئذٍ تصبح أصواتاً فارغة هدفها إعفـاء من يستخـدمها من ضـرورة التفكير. ومع المخـزون الصغير من الصياغات التعبيرية والأشياء المبتـذلة المتعلّمة في الطفولة، فـإننا نمتلك كـل ما يلزمنا من أجـل عبـور الحياة بـدون الحاجة المتبعة والمضنية لأن نفكر.

فـإذا ما أخـذنا لغة معينة للـدراسة، وجـدنا أن الكلمات التي تتركب منها تتغير ببـطء كـبير عبر الـقرون والعصور. ولكن الصـور التي تثيرها أو توحي بها تتغير دون توقف، وكـذلك المعنى الـذي نربطه بها. ولهـذا السبب توصلت في كتـاب آخـر إلى نتيجـة مفادها أن الترجمة الدقيقة للغة ما، وخـصوصاً عندما يتعلق الأمر بالشعوب الميتة، هـي شيء مستحيل كلياً. فماذا نفعل نحـن في الواقع عندما نحـل كلمة فرنسية محـل كلمة لاتينية أو إغريقية أو سنسكريتية أو حـتى عندما نبحـث عن فهـم كتـاب مكتوب في لغتنا الخاصة منذ بضعـة قـرون؟ إننا نحـل بكل بساطة الصـور والأفكـار التي أثارتها الحيـاة الحـديثة في عقلنا محـل المفاهيم والصور المختلفة بشكل قـاطع والتي كانت الحياة القديمة قد جعلتهـا تولد في روح الأعـراق الخاضعة لشروط وجـود لا علاقة لها بشروط وجودنا. فأناس الثورة الـذين توهموا أنهم يقلـدون الإغريـق والرومان لم يفعلوا إلا أن أعطـوا للكلمات القديمة معنى لم تعرفه أبـداً. فما هـي أوجه التشابه التي يمكن أن توجـد بين مؤسسات الإغريق والمؤسسات الـتي نعرفها حـالياً وتحـمل نفس الأسماء؟ فماذا كـانت تعني الجمهورية آنـذاك، اللهم إلا مؤسسة أرستقراطية مشكلة من اتحـاد مستبدّين صغار يهيمنون على جمهور من العبيد الخـاضعين للإستعبـاد المطلق؟ وهـذه الارستقراطيات القروية المرتكزة على نظـام العبودية ما كان بـإمكانها أن توجـد لحظة واحدة لولاه. وإذن فما العلاقة بين جمهوريتهم وجمهوريتنا؟

ثم لنأخـذ كلمة الحرية أيـضاً. فماذا يمكن أن تعني آنـذاك من

شيء يشبه ما نفهمه منها اليوم؟ ماذا كانت تعني في فترة لم تكن تخطر فيها على بال أحد حرية التفكير؟ وحيث لم تكن فيها جريمة أكبر ولا أكثر ندرة من مناقشة آلهة المجتمع وقوانينه وأعرافه. وكلمة وطن كانت تعني عبادة أثينا أو سبارطة وليس أبداً عبادة اليونان التي كانت مشكلة من مدن متنافسة وفي حالة حرب دائمة. ولكن نفس الكلمة، ماذا كان يعني معناها لدى الغاليين القدماء المنقسمين إلى قبائل متنافسة، وأعراق ولغات وأديان مختلفة، والذين انتصر عليهم القيصر بكل سهولة لأنه كان له بينهم حلفاء بشكل دائم؟

فروما وحدها زودت بلاد الغال بوطن عندما حققت لها وحدتها السياسية والدينية. وبدون أن نعود كثيراً في الزمن إلى مثل هذا الحد، وإنما فقط قرنين، هل نعتقد أن معنى كلمة وطن كانت هي ذاتها لدى الأمراء الفرنسيين ككوندي الكبير مثلاً، هؤلاء الأمراء الذين تحالفوا مع الأجنبي ضد ملكهم؟ ثم ألم تكن الكلمة ذاتها تعني شيئاً آخر مختلفاً عن معناها الحديث بالنسبة للمغتربين؟ فهؤلاء كان يتخيلون أنهم يطبقون قانون الشرف عن طريق محاربتهم لفرنسا، وهم في الواقع ينصاعون لوجهة نظرهم الخاصة لأن القانون الإقطاعي يربط الفلاح بالإقطاعي وليس بالأرض، وأنه حيث يهيمن الملك يوجد الوطن الحقيقي.

هكذا نجد أن الكلمات التي غيرت معناها عبر العصور كانت عديدة. ولا نستطيع أن نفهم المعنى الذي كان لها في الماضي إلا بعد بذل جهود كبيرة. وينبغي أن نقوم بقراءات عديدة، كما قالوا بحق، لكي نتوصل فقط إلى تصور معنى كلمة الملك مثلاً أو العائلة الملكية بالنسبة لأجداد أجدادنا. فماذا يمكن القول إذن بالنسبة لكلمات أكثر تعقيداً؟

نستنتج من ذلك إذن أن الكلمات ليس لها إلا معان متحركة ومؤقتة ومتغيرة من عصر إلى عصر، ومن شعب إلى شعب. وعندما نريد أن نؤثر على الجمهور بواسطتها، فإنه ينبغي علينا أولاً أن نعرف ما هو

معناها بالنسبة له في لحظة معينة، وليس معناها في الماضي أو معناها بالنسبة لأفراد ذوي تكوين عقلي مختلف. فالكلمات تعيش كالأفكار.

وعندما تشعر الجماهير بنفور عميق من الصور التي تثيرها بعض الكلمات وذلك على أثر الإنقلابات السياسية والمتغيرات التي أصابت العقائد، فإن الواجب الأول لرجل الدولة الحقيقي هو تغيير هذه الكلمات دون أن يمس الأشياء ذاتها بالطبع. فهذه الأخيرة مرتبطة جداً بالتكوين الوراثي ولا يمكن تغييرها أو تحويلها. فالأريب الحكيم توكفيل قال بأن إنجاز نظامي حكومة القناصل والأمبراطورية يتلخص أساساً في تلبيس معظم مؤسسات الماضي بكلمات جديدة. بمعنى أنها تستبدل بالكلمات التي تثير في المخيلة صوراً مزعجة كلمات أخرى تمنع بجدتها إثارة مثل هذه الصور. فكلمة (taille) التي كانت تعني ضريبة تفرض قديماً في فرنسا أثناء الحروب أصبحت (Contribution foncière) أي المساهمة العقارية. وكلمة (gabelle)، أي ضريبة الملح أصبحت (L'impôt du sel) التي تعني نفس الشيء، وكلمة (les aides) التي كانت تعني المساعدات والتي أصبحت تعني مساهمات غير مباشرة وحقوق في آن معاً (Contribution indiredctes et droits réunis) ثم كلمة (La taxe des maîtrise et jurandes) أي ضريبة السيطرة والتكليف المحلّف التي أصبحت تعني (Patente) أي ضريبة المهنة، إلخ . . .

وإذن فإن إحدى المهام الأساسية لرجالات الدول هو أن يعمّدوا بكلمات شعبية أو على الأقل حيادية الأشياء المحتقرة من قبل الجماهير تحت أسمائها القديمة. فقوة الكلمات وتأثيرها من الضخامة بحيث أنه يكفي على القادة أن يعرفوا اختيار الكلمات لكي يجعلوا الجماهير تقبل أبشع أنواع الأشياء. ويلاحظ الفيلسوف تين بهذا الصدد أن اليعاقبة استطاعوا عن طريق رفع شعار الحرية والأخاء، أي الكلمتين الأكثر شعبية آنذاك، أن يفرضوا «نظاماً استبدادياً لا يقل بشاعة عن نظام داهومي، وأن ينصبوا محكمة مماثلة لمحاكم التفتيش، وأن يرتكبوا مذابح بشرية مشابهة لمذابح المكسيك القديمة».

والواقع أن براعة الحكام تتمثل، كبراعة المحامين، في معرفة كيفية التلاعب بالكلمات. وإنه لفن صعب. وذلك لأن نفس الكلمات تمتلك في نفس المجتمع معاني مختلفة بالنسبة للطبقات الإجتماعية المختلفة. فهذه الطبقات تستخدم ظاهرياً نفس الكلمات ولكنها لا تتكلم نفس اللغة.

في كل الأمثلة التي سبقت كنا قد أدخلنا عامل الزمن بصفته العامل الأساسي المؤدي إلى تغيير معاني الكلمات. وإذا ما أدخلنا أيضاً عامل العرق فإننا نجد في نفس الفترة ولدى شعوب متحضرة أيضاً ولكن من أعراق مختلفة إن الكلمات المتماثلة تدل غالباً على أفكار مختلفة تماماً. ولا يمكننا أن نفهم هذه الإختلافات إلا بعد القيام برحلات عديدة، وبالتالي فلا أستطيع الإلحاح عليها هنا. وإنما سأكتفي بالقول أن الكلمات الأكثر استخداماً هي بالذات الكلمات التي تمتلك المعاني الأكثر اختلافاً إذا ما انتقلنا من شعب إلى شعب. نضرب عليها مثلاً كلمتي ديمقراطية واشتراكية اللتين يشيع استخدامهما حالياً.

فالواقع إنهما تدلان على أفكار وصور متضادة تماماً لدى الروح اللاتينية من جهة، والروح الأنغلوساكسونية من جهة أخرى. فكلمة ديمقراطية تعني لدى اللاتين بشكل خاص إمحاء الإرادة وحس المبادرة لدى الفرد لكي تصبحا تابعتين للدولة.

فهذه الأخيرة تصبح مسؤولة أكثر فأكثر عن القيادة وتطبيق المركزية واحتكار تسيير الأمور والتصنيع. وإليها تلجأ كل الأحزاب بدون استثناء من راديكالية واشتراكية وملكية، وذلك بشكل مستمر. وأما لدى الأنغلوساكسون وخصوصاً في أمريكا فإن كلمة ديمقراطية ذاتها تعني على العكس التنمية المكثفة للإرادة وللفرد، كما وتعني إمحاء الدولة وضعف دورها في تسيير الأمور. ففيما عدا قطاعات البوليس والجيش والعلاقات الديبلوماسية لا تقود الدولة أي شيء بما في ذلك قطاع التعليم. وبالتالي فإن نفس الكلمة تعني لدى هذين الشعبين معنى مختلفاً كلياً[1].

٢ ـ الأوهام

لقد تعرضت الشعوب دائماً لتأثير الأوهام، وذلك منذ فجر البشرية. فهي قد أقامت أكثر المعابد والتماثيل والهياكل لخلاقي الأوهام ومبدعيها. وكانت في الماضي القديم أوهاماً دينية، ثم أصبحت فلسفية واجتماعية في وقتنا الحاضر. ونحن نجد هؤلاء «الملوك ـ الأوهام» يتربعون على عرش كل الحضارات التي ازدهرت وتعاقبت على سطح كوكبنا الأرضي. فباسم هذه الأوهام أقيمت معابد الكلدانيين ومعابد مصر، وكل النصب التذكارية الدينية في القرون الوسطى. وباسمها تم قلب أوروبا كلها قبل قرن من الزمان (المقصود أوهام الثورة الفرنسية). وليس لدينا أي تصور فني أو سياسي أو اجتماعي إلا وهو مطبوع بطابعها القوي. صحيح أن الإنسان قد يقلبها أحياناً بعد أن يدفع الثمن على هيئة اختلاجات وتشنجات مرعبة، ولكن يبدو أنه مجبر على إعادتها دائماً من جديد. فلولاها لما كان قادراً على الخروج من الهمجية البدائية، ولولاها لسقط في هذه الهمجية من جديد. لا ريب في أنها تمثل ظلالاً عبثية، ولكن بنات أحلامنا هذه قد حثت الشعوب على خلق كل ما يصنع بهاء الفنون وعظمة الحضارات. كتب أحد المؤلفين ملخصاً عقيدتنا بهذا الخصوص قائلاً:

«فلو أننا دمرنا كل الأعمال الفنية والنصب التذكارية المستلهمة من قبل الدين والموجودة في المتاحف والمكتبات وجعلناها تتساقط على بلاط الرصيف، فما الذي سيتبقى بعدئذٍ من الأحلام البشرية الكبرى؟ إن سبب وجود الآلهة والأبطال والشعراء أو مبرر هذا الوجود هو خلع بعض الأمل والوهم على حياة البشر الذين لا يمكنهم أن يعيشوا بدونهما. وقد بدا لبعض الوقت أن العلم يضطلع بهذه المهمة. ولكن الشيء الذي حطّ من مكانته في نظر القلوب الجائعة للمثال الأعلى، هو أنه لم يعد يجرؤ على توزيع الوعود هنا وهناك، كما أنه لا يعرف أن يكذب بما فيه الكفاية».

لقد كرس فلاسفة القرن الماضي جهودهم بكل حماسة لتدمير الأوهام الدينية والسياسية والاجتماعية التي عاش عليها آباؤنا طيلة قرون

عديدة. وهم بتدميرهم لها جعلوا منابع الأمل والخضوع تجف وتنضب. ووراء الأوهام المضحّى بها كالقرابين وجدوا قوى الطبيعة العمياء التي لا ترحم بالنسبة للضعفاء ولا تعرف الشفقة.

وعلى الرغم من كل هذا التقدم الذي تحقق فإن الفلسفة لم تستطع أن تقدم للشعوب أي مثال أعلى قادر على أن يجذبها ويسحرها. وبما أن الأوهام تشكل ضرورة حتمية بالنسبة لها فإنها تتوجه بالغريزة نحو الخطباء البلاغيين الذين يقدمونها لها كما تتوجه الحشرة نحو الضوء غرائزياً أيضاً. والعامل الكبير لتطور الشعوب ما كان الحقيقة أبداً، وإنما الخطأ. وإذا كانت الإشتراكية تشهد اليوم ازدياد قوتها وانتشارها لدى الجماهير، فذلك لأنها تشكل الوهم الوحيد الذي لا يزال حياً حتى الآن. فالبرهنة الرياضية والعلمية على خطئها لا تعرقل أبداً مسارها الصاعد والمتدرج. وتعود قوتها الأساسية إلى أن المدافعين عنها أو حاملي لوائها هم من الجهلة بواقع الأمور، وبالتالي فهم قادرون على توزيع الوعود بتحقيق السعادة للإنسان. إن الوهم الإجتماعي يسيطر اليوم على كل أنقاض الماضي المتراكمة، والمستقبل له بدون شك. فالجماهير لم تكن في حياتها أبداً ظمأى للحقيقة. وأمام الحقائق التي تزعجهم فإنهم يحولون أنظارهم باتجاه آخر، ويفضلون تأليه الخطأ، إذا ما جذبهم الخطأ. فمن يعرف إيهامهم يصبح سيداً لهم، ومن يحاول قشع الأوهام عن أعينهم يصبح ضحية لهم.

٣ - التجربة

تشكل التجربة تقريباً المنهجية الوحيدة الفعالة من أجل زرع حقيقة ما في روح الجماهير بشكل راسخ، وتدمير الأوهام التي أصبحت خطرة أكثر مما ينبغي. ولكن ينبغي تعميمها على أوسع مستوى وبشكل مكرر ومعاد من أجل التوصل إلى أفضل نتيجة. وعموماً فإن التجارب التي عاشها جيل ما غير ذات جدوى بالنسبة للجيل اللاحق. ولهذا السبب فإن الأحداث التاريخية التي تضرب عادة كمثل على العظة والبرهنة لا تفيد شيئاً. ففائدتها الوحيدة تكمن فقط في البرهنة على مدى

ضرورة تكرار التجارب من عصر إلى عصر من أجل أن تمارس بعض التأثير وتنجح في زعزعة خطأ راسخ بقوة.

فقرننا وذلك الذي سبقه سوف يستشهد بهما مؤرخو المستقبل بدون شك بصفتهماعصران للتجارب الغربية. فلم يشهد أي عصر آخر في التاريخ من التجارب مثلما شهدا.

وأضخم تجربة شهدناها كانت الثورة الفرنسية. فلكي نكتشف أنه لا يمكن إعادة بناء المجتمع من جديد على أساس تعليمات العقل الخالص، لزمنا أن نقتل ملايين عديدة من البشر وأن نقلب أوروبا كلها طيلة عشرين سنة. ولكي نبرهن تجريبياً على أن القياصرة يكلفون غالياً الشعوب التي تصفق لهم، فإنه لزمنا خوض تجربتين منهكتين خلال خمسين عاماً وعلى الرغم من وضوحهما فإنه لا يبدو أنهما قد أقنعتا البشر. هذا على الرغم من أن الأولى قد كلفت ثلاثة ملايين رجل وغزو كامل، في حين أن الثانية أدت إلى التقسيم وضرورة الاستنفار المستمر للجيوش. ثم حاولوا تجربة ثالثة أو بالأحرى مغامرة ثالثة منذ بضع سنوات، وسوف يحاولونها في المستقبل أيضاً. ولكي نجعل الجماهير تفهم أن الجيش الألماني الضخم لم يكن عبارة عن حرس وطني مسالم كما علمونا قبل عام (١٨٧٠) فإنه قد لزمنا أن ندفع الثمن غالياً ونخوض حرباً مرعبة(٢). وسوف يلزمنا خوض تجارب مدمرة لكي نعترف بأن نظام الحماية يؤدي بالشعوب التي تعتمده إلى الإفلاس.

٤ ـ العقل

يمكن أن نعفي أنفسنا من ذكر العقل إذا ما عدّدنا العوامل القادرة على التأثير على روح الجماهير. ولكننا سنتحدث عنه كعامل سلبي لا كعامل إيجابي في التأثير.

كنا قد برهنا على أن الجماهير لا تتأثر بالمحاجات العقلانية، ولا تفهم إلا الروابط الشاذة أو الفظة بين الأفكار. ولهذا السبب فإن محركي الجماهير من الخطباء لا يتوجهون أبداً إلى عقلها وإنما إلى

عاطفتها. فقوانين المنطق العقلاني ليس لها أي تأثير عليها[٣]. فلكي نقنع الجماهير ينبغي أولاً أن نفهم العواطف الجياشة في صدورها، وأن نتظاهر بأننا نشاطرها إياها ثم نحاول بعدئذٍ أن نغيرها عن طريق إثارة بعض الصور المحرضة بواسطة الربط غير المنطقي أو البدائي بين الأشياء. وينبغي أن نعرف في كل لحظة كيف نتراجع، ثم ينبغي بشكل خاص أن نخمن في كل لحظة العواطف التي نولدها. إن هذه الحاجة لتنويع الخطاب الموجّه للجماهير طبقاً للأثر المتولد في اللحظة التي نتحدث فيها يمنع مسبقاً كل خطاب مدروس أو محضّر بشكل جاهز. فالخطيب الذي يتبع فكره الخاص وليس فكر المستمعين يفقد بسبب ذلك وحده كل تأثير.

إن الناس المنطقيين المعتادين على سلسلة المحاجات العقلانية الصارمة نسبياً لا يستطيعون الإمتناع عن استخدام هذا النمط من الإقناع عندما يتوجهون إلى الجماهير. وهم يصابون بالدهشة والاستغراب دائماً لأن كلامهم لا يلقى أي صدى لدى الجماهير. يقول أحد المناطقة: «إن الإنعكاسات الرياضية المعتادة المرتكزة على القياس، أي على روابط التماثل والتشابه، هي ضرورية... فالضرورة تجبر حتى الجماهير غير المنظمة على القبول إذا كانت هذه الجماهير قادرة على فهم القياس أو الروابط بين أشياء متشابهة ومتماثلة». لا ريب في ذلك. ولكن الجماهير ليست قادرة على فهمها، مثلها في ذلك مثل الكتلة غير المنظمة، وليست قادرة على سماعها. ولكي تتيقنوا من صحة ذلك حاولوا أن تقنعوا الناس البدائيين أو المتوحشين أو الأطفال مثلاً بواسطة المحاجة العقلانية، وعندئذٍ سوف تتأكدون بأنفسكم من القيمة الضعيفة التي يمتلكها هذا النمط من المحاجة.

ولسنا بحاجة حتى إلى النزول إلى هذا المستوى من الناس البدائيين لكي نلمس بيدنا عجز المحاجات العقلانية الكامل عندما تقع في صدام مع العواطف والمشاعر. لنذكّر هنا فقط بمدى عناد واستمرارية الخرافات الدينية طيلة قرون وقرون على الرغم من تناقضها مع أبسط حدود المنطق. فخلال ألفي سنة تقريباً اضطرت أعظم

العبقريات للإنحناء أمام قوانينها، وقد لزمنا انتظار العصور الحديثة لكي يطعن في صحتها. لا ريب في أن العصور الوسطى وعصر النهضة قد شهدت مفكرين مستنيرين، ولكن أياً منهم لم ينبهه عقله إلى الجانب الطفولي لهذه الخرافات، أو شك لحظة واحدة بوجود الشيطان أو بالضرورة لحرق السحرة والمشعوذين.

والآن يطرح سؤالٌ نفسه: هل ينبغي أن نأسف لأن العقل لا يقود الجماهير؟ نحن لا نجرؤ على قول ذلك. لا ريب في أن العقل البشري قد فشل في زج البشرية على طرق الحضارة بكل تلك القوة والجرأة التي أثارته فيها أوهامه. وبما أن هذه الأوهام هي بنت اللاوعي الذي يقودنا ويحركنا، فربما كانت ضرورية. وكل عرق بشري يحمل في تكوينه العقلي أو الذهني قوانين مصيره، وربما كان يخضع لهذه القوانين بغريزة محتومة حتى في نزواته الأكثر عقلانية ظاهرياً. ويبدو أحياناً أن الشعوب خاضعة لقوى سرية مشابهة لتلك التي تجبر البلوطة للتحول إلى سنديانة، والمذنّب إلى اتباع مداره.

والقليل الذي يمكن أن نفهمه عن هذه القوى ينبغي أن نبحث عنه في المسار العام لتطور شعب ما، وليس في الوقائع المعزولة التي يبدو أحياناً أن هذا التطور ينبثق عنها. وإذا لم نأخذ بعين الاعتبار إلا هذه الوقائع المعزولة، فإن التاريخ يبدو عندئذٍ بمثابة الصدف العبثية. فقد كان من المستحيل تخيله أن يصبح نجار جاهل من جبل الجليل في فلسطين إلهاً جباراً طيلة ألفي عام. وقد بنيت باسمه أكبر الحضارات. وكان من المستحيل تخيله أيضاً أن تستطيع بعض الزمر العربية الخارجة لتوها من الصحراء أن تحتل الجزء الأكبر من العالم اليوناني ـ الروماني القديم وتؤسس امبراطورية أكبر من امبراطورية الإسكندر. وكان من المستحيل تخيله في أوروبا العتيقة جداً ذات النظام المراتبي والهرمي الصارم أن ينجح ضابط مدفعية بسيط في السيطرة على عدد كبير من الشعوب والملوك. (أي نابليون).

لنترك إذن العقل للفلاسفة، ولكن ينبغي ألا نطلب منه ما لا يستطيع: أي أن يتدخل كثيراً في قيادة البشر وحكمهم. وليس بالعقل، بل غالباً ضده، أبدعت عواطف كعاطفة الشرف والتفاني والإيمان الديني وحب المجد والوطن. ومن المعروف أنها كانت حتى الآن تمثل أكبر البواعث التي تقف خلف تشييد الحضارات.

الفصل الثالث

محركو الجماهير، ووسائل الإقناع التي يمتلكونها

لقد أصبح التكوين العقلي للجماهير معروفاً لدينا الآن، وكذلك الأمر فيما يخص الدوافع التي تحركها وتؤثر عليها. بقي علينا أن نعرف الآن كيف ينبغي استخدام هذه الدوافع والمحركات ومن هو الذي يستطيع استخدامها بشكل ناجع وفعال.

١ - محركو الجماهير

ما إن يتجمع عدد ما من الكائنات الحية، سواء أكان الأمر يتعلق بقطيع من الحيوانات أو بجمهور من البشر، حتى يضعوا أنفسهم بشكل غريزي تحت سلطة زعيم ما، أي محرِّك للجماهير أو قائد.

ونلاحظ أن القائد يلعب دوراً ضخماً بالنسبة للجماهير البشرية. فإرادته تمثل النواة التي تتحلق حولها الآراء وتنصهر فيها. والجمهور عبارة عن قطيع لا يستطيع الإستغناء عن سيِّد.

والقائد كان غالباً في البداية شخصاً مقوداً منبهراً بالفكرة التي أصبح فيما بعد رسولها ومبشراً بها. فقد غزته وهيمنت عليه إلى حد اختفاء كل شيء آخر ما عداها، وكل رأي معاكس لها يبدو له خطأ وخزعبلات. نضرب على ذلك مثلاً روبسبيير المبهور بأفكاره الوهمية، والذي استخدم أساليب محاكم التفتيش من أجل نشرها.

إن القادة ليسوا في الغالب رجال فكر، ولا يمكنهم أن يكونوا، وإنما رجال ممارسة وانخراط. وهم قليلو الفطنة وغير بعيدي النظر.

فبعد النظر يقود عموماً إلى الشك وعدم الانخراط في الممارسة والعمل. ونحن نعثر عليهم عادة في صفوف المصابين بالعصاب، وفي صفوف المهتاجين وأنصاف المعتوهين الذين يقفون على حافة الجنون. وأياً تكن عبثية الفكرة التي يدافعون عنها أو عبثية الهدف الذي يطاردونه، فإن كل محاجة عقلانية تذوب وتتلاشى أمام قناعتهم الإيمانية والعاطفية. والاحتقار الذي يلقونه من الآخرين أو الإضطهاد لا يفعلان إلا أن يزيدا من إثارتهم وتهييجهم أكثر فأكثر. فهم مستعدون للتضحية بمصالحهم الشخصية وبعائلاتهم وبكل شيء إذا لزم الأمر. وحتى غريزة حب البقاء تمّحي لديهم إلى درجة أن المكافأة الوحيدة التي يرجونها غالباً هي الإستشهاد. وكثافة الإيمان تعطي لكلامهم قوة تحريضية كبيرة. فالكثرة تصغي دائماً للإنسان المزوَّد بإرادة قوية. وبما أن الأفراد المتجمعين في الجمهور يفقدون كل إرادة فإنهم يتجهون غرائزياً نحو ذلك الشخص الذي يمتلكها.

والشعوب لم ينقصها أبداً قادة في التاريخ. ولكنهم لا يمتلكون جميعاً تلك القناعات القوية التي تصنع الرُسُل. فهؤلاء القادة هم غالباً عبارة عن خطباء ماهرين لا يفكرون إلا بمصالحهم الشخصية، وهم يحاولون إقناع الجماهير عن طريق دغدغة الغرائز الوضيعة. وبالتالي فإن النفوذ الذي يمارسونه على الناس يظل دائماً مؤقتاً وعابراً. أما المقتنعون الكبار بمبادئهم والذين استطاعوا التوصل إلى تحريك روح الجماهير وحماستها من أمثال بطرس الناسك ولوثر وسافونارول وقادة الثورة الفرنسية فهم لم يسحروا الجماهير ويبهروها إلا بعد أن كانوا هم بالذات قد سحروا بعقيدة ما أو بإيمان ما. وعندئذٍ استطاعوا أن يثيروا في النفوس تلك القوة الهائلة التي تدعى الإيمان، وهي القوة التي تجعل الإنسان عبداً مطلقاً لحلمه.

إن دور القادة الكبار يكمن في بثّ الإيمان سواء أكان هذا الإيمان دينياً أم سياسياً أم اجتماعياً. إنهم يخلقون الإيمان بعمل ما، أو بشخص ما، أو بفكرة ما. ومن بين كل القوى التي تمتلكها البشرية نجد أن الإيمان كان إحدى أهمها وأقواها. والانجيل على حق عندما يعزو

للإيمان قوة قادرة على زحزحة الجبال. فإذا ما تزود الإنسان بالإيمان تضاعفت قوته عشرات المرات. فغالباً ما أنجزت أحداث التاريخ الكبرى من قبل مؤمنين مجهولين لا يمتلكون إلا إيمانهم الخاص. والأديان التي حكمت العالم والأمبراطوريات الشاسعة الممتدة من طرف العالم إلى طرفه لم تؤسس من قبل الأدباء والفلاسفة، ولا المتشككين بالطبع.

ولكن مثل هذه الأمثلة لا تنطبق إلا على القادة الكبار، وهؤلاء نادرون جداً إلى حد أنه يمكن تعدادهم على مدار التاريخ. فهم يشكلون القمة في سلسلة متواصلة ونازلة مبتدئة بالمتلاعب الكبير بعقول البشر ومنتهية بالعامل البسيط. أقصد بالعامل الموجود في نزل مليئ بالدخنة، والذي يبهر ببطء زملاءه عن طريق تكرار بعض العبارات التي لا يفهمها على الإطلاق، ولكن التي يعتقد أن تطبيقها سوف يؤدي إلى تحقيق كل الأحلام والآمال.

وفي كل الدوائر الإجتماعية من أعلاها إلى أسفلها نجد أن الإنسان يقع تحت سيطرة قائد ما إذا لم يكن معزولاً. ونجد أن معظم الأفراد، خصوصاً في الجماهير الشعبية، لا يمتلكون، خارج دائرة اختصاصهم، أية فكرة واضحة ومعقلنة، وبالتالي فهم عاجزون عن قيادة أنفسهم بأنفسهم. وهنا يجيئ القائد لكي يقودهم. ويمكن أن تحل محله (ولكن بشكل ناقص جداً) تلك المطبوعات الدورية التي تصنع الآراء لقرائها وتؤمن لهم جملاً وعبارات جاهزة تعفيهم من عناء التفكير.

إن سلطة القادة استبدادية جداً، ولا تتمكن من فرض نفسها إلا بواسطة هذه الإستبدادية. وكنا قد لاحظنا مدى السهولة التي يفرضون طاعتهم بها على الجماهير على الرغم من أنهم لا يمتلكون أي وسيلة لدعم سلطتهم في الطبقات العمالية الأكثر شغباً. فهم الذين يحددون ساعات العمل، ويقررون موعد الإضرابات، ويفرضون بدايتها ونهايتها كما يشاؤون.

ويميل قادة الجماهير اليوم إلى أن يحلوا تدريجياً محل السلطات العامة كلما تركت هذه الأخيرة نفسها عرضة للمجادلة والإضعاف والنقض. ويستطيع هؤلاء الأسياد الجدد عن طريق طغيانهم أن يحصلوا من الجماهير على طاعة وانقياد أكبر بكثير مما تحصل عليه أي حكومة. وإذا ما حصل أن مات القائد بحادث ما ولم يستبدل به فوراً فإن الجمهور يتحول إلى تجمع بشري فقد تماسكه ومقاومته. ونضرب على ذلك مثلاً إضراب سائقي الباصات في باريس، فقد كان كافياً أن تقبض السلطات العامة على محركي الاضراب لكي يتوقف فوراً. والشيء الذي يهيمن على روح الجماهير ليس الحاجة إلى الحرية وإنما إلى العبودية. ذلك أن ظمأها للطاعة يجعلها تخضع غرائزياً لمن يعلن بأنه زعيمها.

ويمكننا تصنيف محركي الجماهير وقادتها إلى فئات متمايزة بما فيه الكفاية. فبعضهم رجال نشطون ذوو إرادة قوية ولكن آنية ومؤقتة. وبعضهم الآخر أكثر ندرة بكثير، وهم يمتلكون إرادة قوية ودائمة في آن معاً. والأولون يبدون عنيفين، شجعاناً، جريئين. وهم يصلحون بشكل خاص لتوجيه ضربة خاطفة، وجر الجماهير إلى ما يريدونه على الرغم من وجود الخطر، ثم تحويل منهكي الأمس إلى أبطال. نضرب على ذلك مثلاً ني وموراً[1] في ظل الامبراطورية الأولى. ونضرب على ذلك مثلاً في أيامنا هذه غاريبالدي، المغامر بلا موهبة. ولكنه كان نشطاً وقد نجح بمساعدة حفنة من الرجال في اقتحام مملكة نابلي القديمة على الرغم من دفاع جيش قوي ومنظم عنها.

ولكن إذا كانت طاقة قادة كهؤلاء ضخمة وجبارة فإنها تبقى آنية ومؤقتة ولا يمكن أن تعيش طويلاً بعد المحرِّض الذي ولَّدها أو أثارها. فبعد أن يعودوا إلى الحياة العادية نجد الأبطال الذين كانوا مشحونين بهذه الطاقة يبدون ضعفاً مدهشاً كأولئك الذين استشهدت بهم آنفاً. فهم يبدون عاجزين عن التفكير والتصرف الناجح في الظروف الأكثر بساطة بعد أن كانوا قد عرفوا كيف يقودون الآخرين بكل ذكاء. وهؤلاء القادة لا يستطيعون ممارسة وظيفتهم إلا بشرط أن يكونوا مقودين أنفسهم

ومستشارين بدون توقف، وبشرط أن يشعروا بوجود رجل فوق رأسهم باستمرار أو وجود فكرة، وبشرط أن يتبعوا خطاً في السلوك محدداً تماماً.

أما الفئة الثانية من القادة والمتمثلة بالرجال ذوي الإرادة الدائمة فإنهم يمارسون تأثيراً أكبر بكثير على الرغم من استخدامهم لأساليب أقل بهاء وإشراقاً. وفي صفوفهم نجد المؤسسين الحقيقيين للأديان أو للمنجزات الكبرى: كالقديس بولس، ومحمد، وكريستوف كولومبس، وفردينان دي ليسپس. وسواء أكانوا أذكياء أم بليدين، فذلك لا يهم، لأن العالم سيكون دائماً لهم. فالإرادة الدائمة التي يمتلكونها تمثل ملكة نادرة جداً جداً، وجبارة إلى أبعد حد، وقادرة على أن تخضع كل شيء. ومهما فعلنا فلن نعرف بما فيه الكفاية مدى طاقة وإمكانيات الإرادة القوية والمستمرة. فلا شيء يستطيع مقاومتها أو الوقوف في وجهها: لا الطبيعة، ولا الآلهة، ولا البشر.

وآخر مثال على هؤلاء الرجال العظام جسّده لنا ذلك المهندس الذي فصل بين عالمين وحقق المهمة التي حاول الملوك العظام تحقيقها طيلة ثلاثة آلاف عام، ولكن دون جدوى. وقد فشل فيما بعد في مهمة مماثلة، ولكنه كان قد شاخ، وكل شيء ينطفىء مع الشيخوخة بما فيها الإرادة. (المقصود فردينان دي ليسپس وشق قناة السويس).

ولكي نبرهن على مدى إمكانيات الإرادة وقدرتها، فإنه يكفي أن نستعرض بالتفاصيل قصة الصعوبات التي تم التغلّب عليها أثناء شق قناة السويس. فشاهد العيان، الدكتور كازاليس، لخص لنا ببضعة أسطر مؤثرة قصة هذا الإنجاز الكبير محكية من قبل منجزه الخالد. قال: «وقصّ علينا حلقات هذه الملحمة يوما بيوم. قص علينا حكاية الصعوبات التي تغلّب عليها، وكل المستحيل الذي جعله ممكناً، وكل العراقيل والتحالفات التي عقدت ضده، وكل الخيبات والتراجعات والهزائم التي لم تستطع تثبيط همته أو إحباطه. وقد تحدث لنا عن إنكلترا ومحاربتها له وهجومها عليه باستمرار. ثم تحدث عن مصر وفرنسا المترددة، وقال بأن قنصل فرنسا قد عارض أكثر من أي شخص

آخر أعمال الحفر الأولى، ولما قاومناه ضغط على العمال العطشانين ومنع عنهم الماء العذب. ثم تحدث لنا عن وزير البحرية والمهندسين وكل الرجال المجربين والجادين المعادين بالطبع للمشروع. فقد كانوا كلهم مقتنعين بفشله علمياً فشلاً ساحقاً. وقد حسبوا مجيء هذا الفشل باليوم والساعة».

إن الكتاب الذي يتحدث عن هذه الفئة من القادة العظام سوف يحتوي على عدد قليل من الأسماء. ولكن هذه الأسماء كانت على رأس الأحداث الأكثر أهمية للحضارة والتاريخ.

٢ ـ وسائل العمل التي يستخدمها المحركون أو القادة: التأكيد، التكرار، العدوى

عندما يتعلق الأمر بقيادة جمهور ما للحظة معينة وحثه على ارتكاب عمل ما كأن ينهب قصراً، أو يدافع عن متراس ويتعرض للمجزرة بسببه، فإنه ينبغي أن نؤثر عليه بواسطة محرضات سريعة. وأكثرها قدرة على الفعل والتأثير هو النموذج والقدوة أيضاً. ذلك أنه ينبغي تهيئة الجمهور عن طريق بعض الظروف الخاصة. كما وينبغي على الشخص الذي يريد قيادتها أن يمتلك تلك الميزة التي سأدرسها بعد قليل تحت اسم: الهيبة الشخصية.

وعندما نريد أن ندخل الأفكار والعقائد ببطء إلى روح الجماهير (كأن ندخل النظريات الاجتماعية الحديثة مثلاً) فإننا نجد أن أساليب القادة تختلف. فهم يلجأون بشكل أساسي إلى الأساليب الثلاثة التالية: أسلوب التأكيد، وأسلوب التكرار، وأسلوب العدوى. لا ريب في أن تأثيرها بطيء، ولكنه دائم.

إن التأكيد المجرد والعاري من كل محاجة عقلانية أو برهانية يشكل الوسيلة الموثوقة لإدخال فكرة ما في روح الجماهير. وكلما كان التأكيد قاطعاً وخالياً من كل برهان كلما فرض نفسه بهيبة أكبر. فالكتب الدينية وقوانين كل العصور قد استخدمت دائماً أسلوب التوكيد المجرد

عن كل شيء. ورجال الدولة المدعوون للدفاع عن قضية سياسية معينة يعرفون قيمة التوكيد، وكذلك الأمر فيما يخص رجال الصناعة الذين ينشرون سلعهم عن طريق الإعلان.

ولكن الإعلان لا يكتسب تأثيراً فعلياً إلا بشرط تكراره باستمرار، وبنفس الكلمات والصياغات ما أمكن ذلك. كان نابليون يقول بأنه لا يوجد إلا شكلٌ واحدٌ جادٌ من أشكال البلاغة هو: التكرار. فالشيء المؤكد يتوصل عن طريق التكرار إلى الرسوخ في النفوس إلى درجة أنه يُقبَل كحقيقة برهانية.

ويمكن أن نفهم جيداً تأثير التكرار على الجماهير عندما ننظر إلى الهيبة التي يمارسها على الشخصيات الأكثر إستنارة. فعندما نكرر الشيء مراراً وتكراراً ينتهي به الأمر إلى الإنغراس في تلك الزوايا العميقة للاوعي حيث تصنع دوافع كل أعمالنا. فبعد أن تمر فترة من الزمن ننسى من هو مؤلف القول المكرر وينتهي بنا الأمر إلى حد الإيمان به. وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نفهم القوة الهائلة للإعلان. فعندما نقرأ مائة مرة أن أفضل أنواع الشوكولاته هو نوع (س) مثلاً، فإننا نتخيل أننا قد سمعنا بذلك كثيراً وينتهي بنا الأمر إلى الاقتناع به كحقيقة يقينية. وبعد أن نسمع ألف مزعم عن فضائل الطحين (ع) مثلاً وأنه قد شفى أكبر الشخصيات من أعتى أنواع الأمراض، فإننا نصبح ميالين إلى استخدامه عندما نصاب بمرض مماثل. ومن كثرة ما يكررون في نفس الصحيفة أن (أ) هو وغدٌ حقير وأن (ب) هو رجل نبيل وشريف فإن الأمر ينتهي بنا إلى تصديق ذلك ما دمنا لم نقرأ صحيفة أخرى ذات رأي مضاد تماماً للأول. إن التأكيد والتكرار هما من القوة بحيث يقدران على محاربة بعضهما البعض.

وعندما يتاح لتوكيد ما أن يكرَّر بما فيه الكفاية، وأن يكرر بالإجماع، كما يحصل ذلك لبعض الشركات المصرفية التي تشتري كل المباريات أو المسابقات فإنه يتشكل عندئذٍ ما ندعوه بتيار الرأي العام. وعندئذٍ تتدخل الآلية الجبارة للعدوى وتفعل فعلها. وفي

الجماهير نجد أن الأفكار والعواطف والانفعالات والعقائد الإيمانية تمتلك سلطة عدوى بنفس قوة وكثافة سلطة الجراثيم. ويمكننا أن نلاحظ هذه الظاهرة لدى الحيوانات نفسها، وذلك عندما تتجمع على هيئة جمهور. فصهال حصان في اسطبل ما سرعان ما يعقبه صهال الأحصنة الأخرى في نفس الاسطبل. وأي خوف أو حركة مضطربة ما تصيب بعض الخِراف سرعان ما تنتقل إلى بقية القطيع. وعدوى الإنفعالات هي التي تفسر لنا سر تلك المباغتة والمفاجأة لظاهرة الهلع والخوف. والإضطرابات العصبية، كالجنون مثلاً، تنتشر أيضاً بواسطة العدوى. ونحن نعرف مدى انتشار الجنون لدى الأطباء النفسانيين. بل ويذكرون أن بعض أنواع الجنون (كالخوف المرضي من الأرض الخلاء) تنتقل من الإنسان إلى الحيوان بواسطة العدوى.

والعدوى لا تتطلب الحضور المتزامن للأفراد في نقطة واحدة. بل يمكن أن تنتشر على البعد بتأثير من بعض الأحداث التي توجه النفوس في نفس الاتجاه وتخلع على الجماهير ميزاتها الخاصة، وبخاصة إذا كانت مهيأة لذلك عن طريق العوامل البعيدة التي درستها سابقاً. نضرب على ذلك مثلاً الإنفجار الثوري الذي حصل في فرنسا عام (١٨٤٨). فقد انطلق من باريس وامتد فجأة لكي يشمل جزءاً كبيراً من أوروبا ويزعزع العديد من الأنظمة الملكية[٢].

والتقليد الذي تعزى إليه تأثيرات كثيرة في الظواهر الاجتماعية ليس في الواقع إلا مجرد أثر من آثار العدوى. ولما كنت قد شرحت دوره في مكان آخر فإني سأكتفي هنا بنقل ما كنت قد قلته منذ زمن طويل والذي كان قد وسع وزيد من قبل كتاب آخرين فيما بعد. قلت ما يلي:

«إن الإنسان يشبه الحيوانات فيما يخص ظاهرة التقليد. فالتقليد يشكل حاجة بالنسبة له بشرط أن يكون هذا التقليد سهلاً بالطبع. ومن هذه الحاجة بالذات يتولد تأثير الموضة (أو الأزياء الدارجة). وسواء أكان الأمر يتعلق بالآراء أم بالأفكار أم بالتظاهرات الأدبية أم بالأزياء بكل بساطة فكم هو عدد الذين يستطيعون التخلص من تأثيره؟ فنحن

نستطيع قيادة الجماهير بواسطة النماذج والموديلات وليس بواسطة المحاجات العقلانية. وفي كل فترة نلاحظ أن عدداً قليلاً من الشخصيات هي التي تطبعها بطابعها وتؤثر عليها، ثم تقلدهم الجماهير اللاواعية. ولكن لا ينبغي على هذه الشخصيات أن تنحرف كثيراً عن الأفكار الشائعة أو السائدة في عصرها. ذلك أن تقليدها عندئذٍ يصبح صعباً جداً، وتأثيرها معدوماً. ولهذا السبب بالذات فإن الأشخاص المتفوقين جداً في عصرهم ليس لهم أي تأثير عليه. ذلك أن المسافة بينهم وبين معاصريهم ضخمة أكثر مما يجب. ولهذا السبب بالذات فإن الأوروبيين لا يستطيعون ممارسة أي تأثير على شعوب الشرق على الرغم من كل الميزات والإمتيازات التي تتمتع بها حضارتهم.

قلت في كتاب سابق:

«إن التأثير المزدوج للماضي والتقليد المتبادل يؤديان في نهاية المطاف إلى جعل كل البشر التابعين لنفس البلد ونفس الفترة متشابهين إلى درجة أنه حتى أولئك الذين يتوقع منهم أن يفلتوا من هذا التشابه كالفلاسفة والعلماء والأدباء يبدون متشابهين في أسلوبهم ومطبوعين بطابع الفترة التي ينتمون إليها. ويكفي أن نتناقش مع فرد ما مرة واحدة لكي نعرف عمقياً نوعية القراءات التي تؤثر عليه، وكذلك همومه المعتادة والبيئة التي يعيش فيها»[٣].

إن العدوى من القوة بحيث إنها تفرض على البشر ليس فقط بعض الآراء وإنما أيضاً بعض الطرق في الإحساس والشعور. فهي التي تجعل الناس يحتقرون في فترة ما عملاً أدبياً ما (كالتانهوسير مثلاً)، وهي التي تجعلهم بعد بضع سنوات يعجبون بنفس العمل، هم الذين كانوا قد تنكروا له واحتقروه.

وهكذا تنتشر الآراء والعقائد بواسطة آلية العدوى وليس بواسطة المحاجة العقلانية إلا في القليل النادر. والأفكار الحالية للعمال وتصوراتهم تتبلور في الحانات التي يلتقون فيها. وعقائد الجماهير في كل العصور تتبلور دائماً بهذه الطريقة. إن رينان يقارن بحق المؤسسين

الأوائل للمسيحية «بأولئك العمال الإشتراكيين الذين ينشرون أفكارهم من حانة إلى حانة». وكان فولتير قد لاحظ فيما يخص الدين المسيحي أن «أنذل الأوغاد هم وحدهم الذين اعتنقوه طيلة أكثر من مائة عام».

وفي الأمثلة المشابهة لتلك التي ضربتها نجد أن العدوى بعد أن تكون قد انتشرت في الطبقات الشعبية تنتقل إلى الطبقات العليا من المجتمع. هكذا نجد مثلاً في أيامنا هذه أن الأفكار الإشتراكية قد أخذت تصل إلى من سيكونون ضحاياها الأول. ذلك أنه أمام آليّة العدوى فإن المصلحة الشخصية نفسها تضمحل وتتلاشى.

ولهذا السبب فإن كل فكرة أتيح لها أن تصبح شعبية تفرض نفسها على الطبقات الاجتماعية العليا حتى ولو كانت عبثية هذه الفكرة المنتصرة واضحة للعيان. وهذا التأثير الذي تمارسه الطبقات الاجتماعية الدنيا على الطبقات العليا غريب فعلاً. نقول ذلك وخصوصاً أن عقائد الجمهور متفرعة قليلاً أو كثيراً وبشكل دائم عن فكرة عليا معينة ظلت غالباً دون أي تأثير على الوسط الذي ولدت فيه لأول مرة. وهذه الفكرة العليا يستولي عليها القادة المسحورون بها ثم ينشرونها بشكل مشوّه أكثر فأكثر في أوساط الجماهير. وبعد أن تصبح فكرة شعبية فإنها تعود بشكل من الأشكال إلى منبعها الأول ثم تؤثر من جديد على الطبقات العليا في أمة من الأمم. وفي نهاية المطاف يمكن القول بأن الذكاء هو الذي يقود العالم، ولكنه يقوده من بعيد فعلاً، أي بعد وقت طويل. فالفلاسفة الخلاقون للأفكار لا تنتصر أفكارهم إلا بعد موتهم وتحوُّل أجسادهم إلى غبار منذ زمن طويل. إنها تنتصر عن طريق الآليات التي كنت قد شرحتها آنفاً.

٣ ـ الهيبة الشخصية

إذا كانت الآراء المنتشرة عن طريق التأكيد والتكرار والعدوى تمتلك قوة كبيرة، فذلك لأنها تمتلك تلك القوة السرية المدعوة بالهيبة أو الإحترام.

وكل ما هيمن في العالم، من أفكار أو بشر، فرض نفسه أساساً عن طريق القوة التي تعبر عنها كلمة هيبة. ونحن نعرف جميعاً معنى هذه الكلمة، ولكنهم يطبقونها بأشكال مختلفة جداً. وبالتالي فليس من السهل تحديدها بدقة. والهيبة يمكنها أن تشتمل على بعض العواطف كالإعجاب والخوف. وهما يشكلان أحياناً أساسها وقاعدتها. ولكن يمكنها أن تتوجد بدونهما. والدليل على ذلك أن بعض الأشخاص الموتى كالإسكندر المقدوني والقيصر ومحمد وبوذا لا يزالون يحظون حتى الآن بهيبة كبيرة على الرغم من أننا لم نعد نخشاهم.

في الواقع إن الهيبة هي عبارة عن نوع من الجاذبية التي يمارسها فردٌ ما على روحنا، أو يمارسها عمل أدبي ما أو عقيدة ما. وهذه الجاذبية الساحرة تشلّ كل ملكاتنا النقدية وتملأ روحنا بالدهشة والاحترام. والعواطف المثارة على هذا النحو لا يمكن تفسيرها ككل العواطف. ولكن ربما كانت من نفس نوع التحريض الذي يصيب شخصاً ممغنطاً (أي مصاباً بالمغناطيس). إن الهيبة هي أساس كل هيمنة. فالآلهة والملوك والنساء ما كان ممكناً أن تسيطر لولاها.

ويمكننا أن نعيد الأنواع المختلفة من الهيبة إلى نوعين أساسيين هما: الهيبة المكتسبة والهيبة الذاتية أو الشخصية. فالهيبة المكتسبة هي تلك التي تجيء عن طريق الإسم (اسم العائلة) والثروة والشهرة. ويمكنها أن تكون مستقلة عن الهيبة الشخصية. فالهيبة الشخصية تشكل، على العكس، شيئاً فردياً متعايشاً أحياناً مع الشهرة والمجد والثروة أو مدعوماً من قبلها، ولكنه قادر تماماً على التواجد بشكل مستقل.

إن الهيبة المكتسبة أو الاصطناعية أكثر انتشاراً بكثير. فيكفي أن يحتل فردٌ ما منصباً معيناً أو يمتلك ثروة ما أو يتزيّا ببعض الألقاب حتى يصبح مكلَّلاً بهالة الهيبة أياً تكن قيمته الشخصية منعدمة أو منحطة. فالضابط الذي يلبس بزته العسكرية والقاضي المتلفع بردائه الأحمر لهما دائماً هيبة. كان باسكال قد لاحظ بحق مدى حاجة القضاة للرداء والشعر المستعار. فبدونهما يفقدون جزءاً كبيراً من هيبتهم. فحتى

الاشتراكي الأكثر حماسة للاشتراكية يشعر بالتأثر والإنفعال لرؤية أمير ما أو مركيز. وألقاب كهذه كافية لأن تبتز من تاجر ما كل ما تريد[٤].

إن الهيبة التي أثرتها آنفاً ممارسة من قبل الأشخاص، أي الأفراد. ويمكننا أن نتحدث أيضاً عن الهيبة التي تمارسها الأفكار الكبرى أو الأعمال الأدبية والفنية، إلخ. وهي في الغالب ليست إلا تكراراً متراكماً. إن التاريخ، والتاريخ الأدبي والفني بشكل خاص، هو فقط عبارة عن تكرار لنفس الأحكام التي لا يبحث أي شخص عن مجرد التحقق منها. فكل واحد ينتهي به الأمر إلى تكرار ما سمعه في المدرسة. وتوجد بعض الأسماء وبعض الأشخاص التي لا يجرؤ أحد على المسّ بها أو بهم. اضرب على ذلك مثلاً أعمال هوميروس. فهي مضجرة جداً بالنسبة للقارىء الحديث ولكن من يجرؤ على قول ذلك؟ وقصر البارتينون مثلاً ليس في حالته الراهنة إلا أنقاضاً خالية من أية أهمية، ولكنه يمتلك هيبة عالية إلى درجة أننا لم نعد نراه إلا من خلال موكب الذكريات التاريخية التي ترافقه. والخاصية الأساسية للهيبة هي أننا لا نعود نرى الأشياء كما هي عليه في الواقع، فتنشلّ بذلك قدرتنا على المحاكمة والتقييم. فالجماهير بحاجة دائماً إلى الأفكار الجاهزة، وكذلك الأفراد بحاجة إليها في الغالب. ونجاح هذه الأفكار مستقل عن جزء الحقيقة أو الخطأ الذي تحتوي عليه. إنه يكمن فقط في هيبتها وحظوتها.

والآن، بعد كل ما قلته سابقاً، أصل إلى الهيبة الشخصية. فهي من طبيعة مختلفة جداً عن الهيبة الإصطناعية أو المكتسبة، وتشكل ملكة مستقلة عن كل لقب أو كل سلطة. والعدد القليل من الأشخاص الذين يمتلكونها يمارسون سحراً مغناطيسياً حقيقياً على أولئك الذين يحيطون بهم بمن فيهم أندادهم. فهم يطيعونهم طاعة عمياء كما تطيع الدابة المتوحشة مروّضها على الرغم من أنها تستطيع أن تفترسه بكل سهولة.

إن قادة البشر الكبار من أمثال بوذا والمسيح ومحمد وجان دارك

ونابليون يمتلكون هذا النوع من الهيبة الشخصية في أعلى درجاتها. وعن طريقها بالذات استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم. فالآلهة والأبطال والعقائد تفرض نفسها فرضاً ولا تناقش. بل إنها تتلاشى مباشرة ما أن نناقشها.

والأشخاص الذين ذكرتهم قبل قليل كانوا يمتلكون قدرتهم الجبارة على الجذب قبل أن يصبحوا مشهورين بزمن طويل، وما كان بالإمكان أن يصبحوا مشهورين بدونها. فمثلاً كان نابليون في ذروة مجده يمتلك بواسطة قوته وحدها هيبة شخصية هائلة. ولكنه كان يمتلك جزئياً هذه الهيبة منذ بداية مهنته. فعندما كان جنرالاً مهملاً أو متجاهَلاً وأرسل، من أجل حمايته لقيادة الجيش، في حملة إيطاليا فإنه سقط في أحضان جنرالات فظّين وأقوياء مستعدين لسحق هذا الدخيل الشاب الذي كانت القيادة قد أرسلته إليهم. ولكن منذ اللحظة الأولى أو منذ اللقاء الأول وبدون أن ينطق كلمة واحدة أو يقوم بأي حركة أو تهديد، باختصار منذ النظرة الأولى لرجل المستقبل العظيم سقطوا تحت سحر هيبته وروّضهم. وقد قدم لنا الفيلسوف «تين» رواية مشوقة عن هذا اللقاء الأول بحسب شهادات المعاصرين له. قال:

«من بين جنرالات الفرقة العسكرية كان يوجد جنرال اسمه أوغيرو، وهو رجل مرتزق بشكل بطولي ومبتذل. وكان فخوراً بقامته العالية وشجاعته. وقد وصل الجنرالات إلى المقر العام للقيادة بنفسية غير راضية عن هذا الإنتهازي الصغير الذي أرسل لهم من باريس (أي نابليون). وبحسب الوصف الذي كان قد وصلهم عنه فإن أوغيرو كان شتّاماً ومحباً للعصيان بشكل مسبق. كانوا يقولون بأنه الأثير لدى باراس، وأنه أحد الجنرالات الذين خاضوا معارك منطقة الفندي غرب فرنسا، وأنه جنرال شوارع، وينظر إليه كالدب لأنه يفكر دائماً في وحدته، وأنه ذو هيأة صغيرة، وأنه مشهور بعقل رياضي وحالم في آن. ثم أدخلوهم عليه وتركهم نابليون ينتظرون فترة طويلة قبل أن يستقبلهم. ثم ظهر أخيراً وهو مزنّر بسيفه، ثم لبس رداءه، وشرح مواقفه، وأعطاهم الأوامر وصرفهم. وقد دهش أغيرو إلى حد أنه بقي صامتاً لا ينبس ببنت شفة. ولم يصحُ من صدمته إلا بعد أن خرج حيث

عاد إلى طبيعته العادية. واتفق مع ماسينا على القول بأن هذا البونابرت الصغير قد أخافه، ولم يفهم سر الرهبة التي سيطرت عليه من أول نظرة».

وبعد أن أصبح نابليون رجلاً عظيماً فإن هيبته قد زادت بسبب قوة مجده ووصل إلى حد الألوهة بالنسبة للمتشيِّعين والأنصار. وكان الجنرال فاندام، المرتزق الثوري، أكثر فظاظة وقوة من الجنرال أوغيرو. وقد قال عن نابليون للجنرال دورنانو في يوم من أيام (١٨١٥) وكانا يصعدان سوية درج قصر التويلري:

«يا عزيزي، إن هذا الشيطان الصغير يمارس عليّ سحراً وجاذبية لا أستطيع أن أفهم سرهما. فأنا الذي لا يخشى الإله ولا الشيطان يصل بي الأمر إلى حد أني أرتجف كطفل عندما أقترب منه. ويستطيع أن يسلكني في ثقب الإبرة ويرميني في النار دون أن أحرك ساكناً».

وكان نابليون يمارس نفس التأثير والجاذبية على كل من يقتربون منه(٥).

كان دافو يقول متحدثاً عن إخلاص ماريه وإخلاصه هو للامبراطور: «لو أن الإمبراطور قال لنا كلينا: من المهم لمصلحة سياستي أن أدمر باريس بأهلها دون أن يخرج منها أحد لكنت واثقاً من أن ماريه سيحفظ السر، ولكنه لن يستطيع منع نفسه من إفشائه عن طريق إخراج عائلته. أما أنا فإني مستعد لترك زوجتي وأطفالي فيها خوفاً من أن يذاع السر!».

وهذه القدرة الجبارة للجاذبية الشخصية تفسر لنا سر تلك العودة الرائعة لنابليون من جزيرة إيلب. كما وتفسر لنا سر فتح فرنسا المباشر من قبل رجل معزول يناضل ضد كل القوى النظامية والمنظمة لبلد كبير كناقد اعتقدنا أنه قد ملّ من طغيان نابليون. ويكفي أن ننظر إلى الجنرالات الذين أرسلوا للقبض عليه. فعندما وصلوا إلى هناك تراجعوا وخضعوا له دون مناقشة.

كتب الجنرال الإنكليزي ولسلي يقول: لقد نزل نابليون على شواطىء فرنسا وحيداً تقريباً. وكان قادماً كالهارب من جزيرة إيلب الصغيرة التي كانت تشكل مملكته. ونجح في بضعة أسابيع في قلب كل جهاز السلطة في فرنسا الواقع تحت حكم ملكها الشرعي وذلك دون أن يسفك قطرة دم واحدة. فهل يمكن لصعود رجل في سلم المجد أن يبدو أكثر إدهاشاً من ذلك؟ ولكن من أول حملته الأخيرة هذه إلى آخرها فإنه يمكننا أن نتساءل: كم هو عجيب ورائع ذلك النفوذ الساحر الذي كان يمارسه أيضاً على الحلفاء مجبراً إياهم على اتباع مبادرته وكيف أنه كاد أن يسحقهم؟

وقد عاشت هيبته بعده واستمرت في الكبر والازدياد. فهو الذي أدى إلى سيامة ابن أخيه المجهول سابقاً كإمبراطور لفرنسا. ونحن إذ نشهد اليوم انبعاث اسطورته من جديد فإننا نلاحظ مدى الضخامة التي لا يزال يتمتع بها ذلك الظل الكبير. ذلك أنه يمكنك أن تذل الناس وأن توقع فيهم المجازر بالملايين وأن تقود غزواً وراء غزو، كل شيء مباح لك بشرط أن تملك الهيبة الشخصية والموهبة القادرة على الحفاظ عليها.

لقد تحدثت عن مثال للهيبة الشخصية أكثر من استثنائي: نابليون. ولكن ذلك كان ضرورياً ومفيداً من أجل أن نفهم منشأ الأديان الكبرى والعقائد الكبرى والإمبراطوريات الكبرى. ولولا قوة الجاذبية الممارسة على الجماهير من قبل الهيبة الشخصية لما كان هذا المنشأ مفهوماً أو قابلاً للفهم.

ولكن الهيبة لا ترتكز فقط على النفوذ الشخصي والمجد العسكري والإرهاب الديني. فيمكنها أن تعتمد على أصول أكثر تواضعاً، وتكون ضخمة أيضاً. وهذا القرن الذي نعيش فيه يقدم لنا أمثلة عديدة على ذلك. وأحدها سوف تذكره البشرية القادمة جيلاً بعد جيل، وهو قصة ذلك الرجل الذي تحدثنا عنه قبل قليل والذي غيَّر وجه الكرة الأرضية والعلاقات التجارية للشعوب عن طريق الفصل بين قارتين.

(فرديناند دي ليسبس). وقد نجح في مشروعه هذا بواسطة إرادته الضخمة بالتأكيد، ولكن بواسطة شيء آخر أيضاً هو قوة السحر والجاذبية التي يمارسها على كل محيطه وحاشيته. ولكي يتغلب على المعارضة الاجماعية ضده كان يكفيه أن يظهر على الملأ وأن يتحدث للحظة واحدة، وعندئذٍ يصبح المعارضون أصدقاء تحت تأثير سحره وجاذبيته. وكان الإنكليز بشكل خاص يحاربون مشروعه بضراوة. ولكن ذهابه إلى إنكلترا كان كافياً لإقناع الجميع بصحة مشروعه. وعندما مر بعدئذٍ بمدينة ساوثمبتون راحت الأجراس تقرع على طريق مروره ترحيباً به. وبعد أن تغلب على كل شيء، من بشر وأشياء، لم يعد يعتقد بوجود أي عقبة قادرة على إيقافه. فبعد شق قناة السويس راح يفكر بشق قناة باناما بنفس الوسائل. ولكن الإيمان الذي يزحزح الجبال لا يزحزحها إلا بشرط ألا تكون عالية أكثر مما ينبغي. فقد قاومت الجبال، وجاءت الكارثة التي دمرت هالة المجد المحيطة بالبطل. وحياته تقدم لنا مثلاً ساطعاً على كيفية نمو الهيبة الشخصية وتضخمها ثم انهيارها. فبعد أن ساوى في العظمة أكبر الشخصيات التاريخية فإنه قد خفض من قبل قضاة بلاده إلى مستوى أخس المجرمين. ومر نعشه وحيداً في وسط الجماهير اللامبالية. وحدهم الملوك الأجانب احتفلوا به وحيُّوا ذكراه[٦].

ولكن الأمثلة المختلفة التي ذكرناها آنفاً تمثل أمثلة متطرفة. فلكي ندرس تفصيلاً وبشكل نفساني ظاهرة الهيبة، فإنه ينبغي علينا أن نتفحص سلسلتها الطويلة منذ مؤسسي الأديان والامبراطوريات وانتهاء بظاهرة الفرد العادي الذي يريد أن يبهر جيرانه بلباسه الجديد أو بالأوسمة التي يعلقها على صدره.

وما بين هذين الحدين المتطرفين للسلسلة تتموضع كل أشكال الهيبة المتواجدة ضمن العناصر المختلفة لحضارة ما: نقصد العلوم، والفنون، والأدب، إلخ... وإذا ما درسناها جميعاً وجدنا أن الهيبة تشكل العنصر الأساسي للإقناع. فالشخص أو الفكرة أو الشيء الذي يمتلك الهيبة يقلَّد عن طريق العدوى ويفرض على جيل بأكمله بعض

أشكال الإحساس وترجمة الفكر. والواقع أن التقليد هو في الأغلب الأعم لا واعٍ، وهذا هو بالضبط الشيء الذي يجعله كاملاً. فالرسامون المحدثون الذين يقلدون الألوان الباهتة لبعض البدائيين ومواقفهم المتصلبة لا يشكّون مطلقاً بمصدر إلهامهم. فهم مؤمنون بأنهم صادقون في تجربتهم. ولولا أن أحد العلماء الكبار لم يكشف عن هذا النوع من الفن لاستمرينا في النظر إليه من خلال جوانبه الساذجة والمتدنية. وأما أولئك الذين يقلدون المشاهير من المجددين ويغرقون لوحاتهم بالظلال البنفسجية فإنهم لا يرون في الطبيعة ألواناً بنفسجية أكثر مما كان موجوداً قبل خمسين سنة، ولكنهم محرَّضون على ذلك من قبل الانطباع الشخصي والخصوصي لفنان عرف كيف يكتسب هيبة وشهرة كبيرة.

وفي كل عنصر من عناصر الحضارة يمكننا أن نجد أمثلة مشابهة لذلك.

نرى فيما سبق أن هناك عوامل عديدة يمكنها أن تلعب دوراً في تشكيل الهيبة الشخصية. والنجاح كان دائماً أحد أهم هذه العوامل. فالإنسان الذي ينجح والفكرة التي تفرض نفسها لا يعود أحد قادراً على معارضتهما بسبب هذا النجاح بالذات.

فالهيبة الشخصية تختفي دائماً مع الفشل. فالبطل الذي صفقت له الجماهير بالأمس قد تحتقره علناً في الغد إذا ما أدار الحظ له ظهره. بل إن رد فعلها ضده يكون عنيفاً بقدر ما كان احترامها له كبيراً. وعندئذٍ تنظر الكثرة للبطل الذي سقط كنظير لها وتنتقم منه لأنها كانت قد انحنت أمامه وأمام تفوقه المزعوم الذي لم تعد تعترف به. فروبسبيير الذي أمر بقطع رؤوس زملائه وعدد كبير من معاصريه كان يمتلك هيبة شخصية ضخمة. وعندما نقصته بعض الأصوات فقط فقد رأسه هو الآخر وتبعته الجماهير إلى المقصلة بنفس اللعنات التي لاحقت بها ضحاياه بالأمس. فالمؤمنون يحطمون دائماً بنوع من الهيجان تماثيل آلهتهم السابقة.

والهيبة الشخصية التي تنتزع بالفشل تفقد بسرعة. ويمكن أن تتلف أيضاً بالمناقشة والمجادلة، ولكن بطريقة أكثر بطئاً. ولكن هذه العملية تولِّد تأثيراً مؤكداً. فالهيبة التي تصبح عرضة للنقاش لا تعود هيبة. فالآلهة والأشخاص الذين عرفوا المحافظة على هيبتهم لم يسمحوا أبداً بالمناقشة. فلكي تعجب بهم الجماهير وتعبدهم ينبغي دائماً إقامة مسافة بينها وبينهم.

الفصل الرابع

محدودية تغير كل من عقائد الجماهير وآرائها

١ ـ العقائد الثابتة

هناك تشابه وثيق بين الخصائص التشريحية للكائنات وخصائصها النفسية. وفي الخصائص التشريحية نجد بعض العناصر الثابتة أو القليلة التغير جداً إلى حد أنه تلزمنا مدة العصور الجيولوجية لكي نغيرها. وبالإضافة إلى هذه الخصائص الثابتة التي لا تختزل توجد خصائص أخرى متحركة جداً تعدلها أحياناً البيئة ومهارة مربي الحيوانات أو النباتات إلى درجة انهما تخفيان خصائصها الأساسية حتى بالنسبة لعين المراقب اليقظ.

ونلاحظ نفس الظاهرة بالنسبة للخصائص الأخلاقية. فبالإضافة إلى العناصر النفسية الراسخة لعرق بشري ما توجد عناصر متحركة ومتغيرة. ولهذا السبب فإننا عندما ندرس عقائد شعب ما وآراءه فإننا نلاحظ دائماً وجود أرضية ثابتة جداً. وعليها تنضاف آراء متحركة تحرك الرمل الذي يغطي الصخور.

هكذا نجد أن عقائد الجماهير وآراءها تشكل طبقتين متمايزتين تماماً. فمن جهة نجد العقائد الإيمانية الكبرى والدائمة التي تدوم قروناً عديدة والتي ترتكز عليها حضارة بأكملها. نضرب على ذلك مثلاً في الماضي التصور الخاص بالنظام الإقطاعي، ثم الأفكار المسيحية، ثم أفكار الإصلاح المسيحي (لوثر). وأما في عصرنا الحاضر فنضرب عليها مثلاً مبدأ العقلانية أو العقلانيات، ثم الأفكار

الديمقراطية والاجتماعية. وهناك من جهة أخرى الآراء العابرة والمتغيرة التي تتفرع غالباً عن مفاهيم عامة يشهد ظهورها وموتها كل عصر. نضرب على ذلك مثلاً النظريات التي توجه الفنون والآداب في لحظة معينة كالنظرية المولِّدة للحركة الرومنطيقية أو النزعة الطبيعية، إلخ... فهي بنفس سطحية الموضة العابرة وتتغير كالموجات الصغيرة التي تظهر وتختفي باستمرار على سطح بحيرة ذات مياه عميقة.

أما العقائد الكبرى العامة فذات عدد محصور جداً. وتشكلها وتلاشيها يمثلان بالنسبة لكل عرق تاريخي نقاط الذروة في تاريخه. إنها تشكل الهيكل العظمي للحضارات.

أما الرأي العابر فينفذ بسهولة إلى روح الجماهير، ولكن من الصعب جداً أن نرسخ فيه عقيدة دائمة. كما أنه من الصعب تدمير هذه العقيدة بعد تشكيلها. لا يمكن تغييرها إلا بعد ثورات عنيفة، وفقط بعد أن تكون العقيدة قد فقدت تقريباً كل هيمنتها على النفوس. إن الثورات تساعد عندئذٍ على التدمير الكلي للعقائد التي أصبحت مهجورة ولكنها لا تزال رازحة بسبب نير الأعراف والتقاليد. والثورات التي تبتدىء تعني بالضرورة عقائد إيمانية تحتضر.

وبدءاً من اللحظة التي يأخذ فيها الناس بمناقشة عقيدة كبرى ونقدها فإن زمن احتضارها يكون قد ابتدأ. وبما أن كل عقيدة عامة ليست إلا وهماً فإنها لا تستطيع أن تستمر إلا إذا نجت من التفحص والنقد.

ولكن حتى عندما تتزعزع أسس عقيدة راسخة ما فإن المؤسسات المتفرعة عنها تبقى محافظة على قوتها ولا تتلاشى إلا ببطء. وعندما تفقد أخيراً كل سلطة فإن كل ما كانت تدعمه ينهار. ولم يحصل سابقاً في التاريخ أن غيَّر شعبٌ ما عقائده دون أن يضطر فوراً إلى تغيير عناصر حضارته.

فهو يحوِّل فيها ويغيرها حتى يكون قد اعتمد عقيدة عامة جديدة. وبانتظار تلك اللحظة فإنه يعيش في حالة الفوضى

بالضرورة. فالعقائد العامة هي الدعامات الضرورية للحضارات. وهي التي توجه الأفكار وتطبعها بطابعها، وهي وحدها التي تلهم الإيمان وتخلق الحس بالواجب.

لقد أحست الشعوب دائماً بفائدة تشكيل العقائد الإيمانية العامة وفهمت عن طريق الغريزة أن تلاشيها يعني بداية انحطاطها. والعبادة المتعصبة لروما كانت هي العقيدة الإيمانية التي جعلت من الرومان أسياداً للعالم. ولكن ما إن ماتت هذه العقيدة حتى انهارت روما. ولم يستطع البرابرة الذين دمروا الحضارة الرومانية أن يتوصلوا إلى بعض التماسك والخروج من حالة الفوضى إلا بعد أن اكتسبوا بعض العقائد المشتركة.

وإذن فليس عبثاً أن الشعوب كانت قد دافعت دائماً عن عقائدها الإيمانية بنوع من التعصب. وهذا التعصب منتقد بشدة من وجهة النظر الفلسفية، ولكنه يمثل فضيلة في حياة الأمم. والعصور الوسطى لم تنصب المحارق إلا من أجل تأسيس العقائد الإيمانية العامة أو المحافظة عليها والإيمان بها. وعشرات المخترعين والمجددين الذين نجوا من الحرق والتعذيب ماتوا في ظل اليأس المطبق. ومن أجل الدفاع عن هذه العقائد العامة والمشتركة انقلب العالم أكثر من مرة وسقط ملايين البشر في ساح الوغى، وسوف يسقطون أيضاً.

ولكن هناك صعوبات كبيرة تقف في وجه تشكل عقيدة إيمانية عامة كما قلنا سابقاً. وإذا ما تشكلت ورسخت نهائياً فإنه يصبح من المستحيل الإطاحة بها لمدة طويلة. وأياً يكن بطلانها الفلسفي فإنها تفرض نفسها على أكبر الشخصيات وأذكاها. ألم تعتبر الشعوب الأوروبية منذ خمسة عشر قرناً أن أساطير مولوك الدينية هي حقائق لا تناقش؟ ولكننا نعرف عندما نتفحصها عن كثب إنها بربرية وهمجية[1]. فالعبثية المرعبة لأسطورة الإله الذي ينتقم من ابنه بواسطة التعذيب المرعب لأنه عصاه لم تلحظ من قِبَلِ أحد طيلة قرون عديدة. وأكبر الشخصيات العبقرية من أمثال غاليليو، نيوتن، لايبنتز لم يخطر على بالهم لحظة

واحـدة أن حقيقة مثل هذه الأساطير يمكن أن توضع على محـك الشك. وهـذا أكبر دليل على التنويم المغناطيسي الـذي تمارسه العقائـد العامة المشتركة. ولكن لا شيء يبرهـن بشكل أفضل على المحدودية المذلّة لروحـنا.

وما إن تنزرع عقيدة جـديدة في روح الجماهير حـتى تصبح ملهمة لمؤسساته وفنونـه وسلوكه. وتـكون هيمنتها على النفوس مطلقة عندئذٍ. ويحـلم رجـال الممارسة والإنخـراط بإنجـازها على أرض الواقع، ويحـلم المشرِّعـون بتطبيقها. ويهـتم الفلاسفة والفنانون والأدباء بترجـمتها بأشكال شتى.

ويمكـن أن تنبثق أفكـار مؤقـتة ثانوية عن العقيدة الأساسية ولكنها تحـمل دائماً طابع الإيمان المنبثقة عنه. نضـرب على ذلك مثلاً الحضارة المصرية وحضـارة القرون الوسطى والحضارة الإسلامية للعرب، فهـي جميعها متفرعة عن عـدد صغير من العقائد الدينية التي طبعت بطابعها كـل عناصر هذه الحضارات والتي تتيح التعرف عليها فـوراً.

وبفضل العقائد الإيمانية العامة فـإن رجـال كل عصر محـاطون بشبكة من التقاليد والآراء والأعراف التي يرزحـون تحت نيرها ولا يستطيعـون الإفلات منها. وهـي التي تجعلهم متشابهين أكثر فأكثر كـل يوم. وأكثر النـاس ذكاء واستقلالية لا يستطيعون التملُّص منها. وليس هنـاك من طغيان حـقيقي أكبر من ذلك الـذي يمارس نفسه على النفوس بشكل لاواع لأنه الوحيد الـذي لا يمكننا أن نحـاربه. فتيبير(٢) وجنكيزخـان ونابليون كانوا طغاة رهيبين بـدون شك، ولكن مـوسى وبـوذا ويسوع ومحـمد ولوثر مارسوا على النفوس من أعماق قـبورهم هيمنة استبدادية أكثر عمقاً بـكثير. فقد تطيح مؤامرة بالطاغية، ولكـن ماذا تستطيع أن تفعل ضد عقيـدة راسخة؟ فثورتنا الكبرى هـزمت أمام الكاثوليكية في صراعها العنيف ضـدها على الرغم من التواطؤ الظاهـري للجماهير معها وعلى الرغم من استخـدامها لأساليب في التدمير لا ترحـم ولا تقـل هولاً عن أساليب محـاكم التفتيش. فالكاثوليكية بقيت على قيـد

الحياة بعد كل ما حصل. إن الطغاة الحقيقيين للبشرية كانوا دائماً أشباح الموتى أو الأوهام التي خلقتها بنفسها.

إن العبثية الفلسفية لبعض العقائد الكبرى العامة لم تحل أبداً ـ ولأكرر ذلك مرة أخرى ـ دون انتصارها. بل إن انتصارها هذا ما كان ممكناً لولا احتوائها على بعض العبثية. فالضعف الواضح لبعض العقائد الإشتراكية الحالية لن يمنعها من التأصل والرسوخ في روح الجماهير. فدونية هذه العقائد المؤكدة بالقياس إلى كل العقائد الدينية عائد فقط إلى نقطة مستقبلية: فبما أن مثال السعادة الذي تعد به الجماهير لا يمكن أن يتحقق إلا في الحياة المقبلة أو الآخرة، فإن أحداً لا يستطيع معارضة هذا التحقيق أو ذاك الهدف. ولكن بما أن مثال السعادة الإشتراكية ينبغي أن يتحقق يوماً ما على الأرض، فإن عبثية الوعود تظهر منذ أول محاولة للإنجاز، وتفقد العقيدة الجديدة فوراً كل هيبة أو حظوة. وبالتالي فإن قوتها لا تكبر إلا في الفترة الواقعة قبل اليوم الموعود للإنجاز والتحقيق. ولهذا السبب فإنه إذا كان الدين الجديد يمارس أولاً ككل الأديان التي سبقته عملاً تدميرياً فإنه لا يستطيع أن يمارس فيما بعد عملاً خلاقاً.

٢ ـ الآراء المتحركة للجماهير

وفوق العقائد الثابتة والراسخة التي كنّا قد بيّنا مدى جبروتها تتموضع طبقة سطحية من الآراء والأفكار والخواطر التي تولد وتموت باستمرار. ومدة دوام بعضها مؤقتة جداً، وأكثرها أهمية لا تتجاوز مدتها حياة جيل واحد. كنّا قد قلنا سابقاً بأن المتغيرات التي تصيب هذه الآراء هي أحياناً سطحية أكثر مما هي حقيقية وتحمل دائماً طابع للعرق وخصائصه. فعندما درسنا مثلاً المؤسسات السياسية لبلدنا لاحظنا أن الأحزاب السياسية الأكثر اختلافاً من حيث الظاهر (كالملكيين، والراديكاليين، والامبراطوريين، والإشتراكيين، إلخ...) لهم نفس المثال الأعلى. وهذا المثال الأعلى يعود إلى البنية الذهنية لعرقنا (العرق الفرنسي اللاتيني). والدليل على ذلك إننا نجد مثالاً أعلى

مضاداً لدى الأمم الأخرى التي تمتلك نفس الأحزاب بنفس الأسماء. فالاسم الذي يخلع على الآراء والأحزاب والتعديلات الظاهرية الخادعة لا تغير شيئاً في حقيقة الأمور. إن بورجوازيي الثورة المتأثرين إلى حد كبير بالأدبيات اللاتينية والذين يقلدون الجمهورية الرومانية راحوا يعتمدون قوانينها وشعاراتها وثيابها ولكنهم لم يصبحوا رومانيين لأنهم بقوا تحت هيمنة تحريض تاريخي ضخم.

إن دور الفيلسوف يكمن في البحث عما بقي من عقائد قديمة تحت سطح المتغيرات الظاهرية، وفي التمييز داخل سيل الآراء المتحركة بين الحركات المفروضة من قبل العقائد العامة وبين روح العرق.

وبدون هذا المعيار كنا سنعتقد أن الجماهير تغير عقائدها السياسية والدينية بشكل مستمر وعلى هواها. والتاريخ كله سياسياً كان أم دينياً أم فنياً أم أدبياً يبدو وكأنه يبرهن على ذلك.

لنضرب على ذلك مثلاً فترة قصيرة فقط (أي بين ١٧٩٠ ـ ١٨٢٠)، أي فترة ثلاثين سنة، عمر جيل واحد. فقد كانت الجماهير الفرنسية في بداية الفترة ملكية ثم أصبحت ثورية ثم أصبحت إمبراطورية ثم أصبحت ملكية مرة أخرى. وفيما يخص الدين تطورت في نفس الفترة فانتقلت من الكاثوليكية إلى الإلحاد ثم إلى التأليهية (أي المذهب الذي يقر بوجود الله وينكر الوحي والآخرة). ثم عادت إلى الأشكال الأكثر تطرفاً من الكاثوليكية. وليست الجماهير هي فقط التي تتغير وإنما أيضاً قادتها. فقد رأينا مثلاً أعضاء الجمعية التأسيسية الفرنسية بعد الثورة يبدون أعداء ألداء للملوك ولا يريدون لا آلهة ولا أسياداً، ثم أصبحوا فيما بعد خدماً أذلاء لدى نابليون. ثم أصبحوا يحملون الشموع في المواكب الدينية في ظل الملك لويس الثامن عشر! . . .

وخلال السبعين سنة التي تلت، كم حصلت من متغيرات في آراء الجماهير؟ «فإنكلترا الخؤونة» في مطلع هذا القرن أصبحت حليفة فرنسا في ظل وريث نابليون. وروسيا التي خاضت حربين ضدنا

وشمتت كثيراً بهزائمنا الأخيرة أصبحت فجأة كصديقة لنا.

وفي مجال الأدب والفن والفلسفة نلاحظ أن تتابع الآراء والأفكار أو تغيرها يتجلّى بوضوح أكثر. فمن الرومنطيقية إلى المذهب الطبيعي إلى الصوفية، إلخ... نلاحظ ولادة وموت كل مذهب بدوره. فالفنان أو الكاتب الذي صفقوا له بالأمس سرعان ما يحتقر غداً.

ولكن إذا ما حلَّلنا هذه المتغيرات التي تبدو ظاهرياً جد عميقة فماذا نرى؟ نرى أن كل المتغيرات المضادة للعقائد العامة ولعواطف العرق لا تعيش طويلاً، في حين أن التيار العام يستعيد مجراه من جديد. فالآراء التي لا ترتبط بأي عقيدة عامة ولا بأي عاطفة عرق وبالتالي فلا تتمتع بالاستقرارية تبقى تحت رحمة الصدفة، أو تحت رحمة أقل متغير يصيب البيئة إذا شئنا. فبما أنها تتشكل بواسطة التحريض والعدوى فإنها تظل دائماً مؤقتة فتولد وتموت أحياناً بنفس سرعة تشكل كثبان الرمال وتلاشيها على شاطىء البحر.

وفي أيامنا هذه نلاحظ أن مجمل الآراء المتحركة للجماهير أكبر منه في أي وقت مضى. وذلك لأسباب ثلاثة مختلفة.

السبب الأول هو أن العقائد القديمة تفقد بالتدريج هيمنتها على النفوس وبالتالي فلا تعود تؤثر على الآراء المؤقتة لكي توجهها في اتجاه معين كما في السابق. إن تلاشي العقائد العامة يترك المكان حراً لمجموعة من الأفكار الخصوصية المحرومة من كل ماضٍ أو مستقبل.

وأما السبب الثالث فيعود إلى ظهور الصحافة مؤخراً ونشرها لأكثر الآراء اختلافاً وتناقضاً. فالإيحاءات التي يولدها كل رأي تُدمَّر فوراً من قبل إيحاءات الرأي المضاد. وبالتالي فلا يستطيع أي رأي أن يعم وينتشر، وكلها مدانة بالوجود المؤقت والعابر. فهي تموت قبل أن تنتشر بما فيه الكفاية لكي تصبح عامة.

وينتج عن هذه الأسباب المختلفة ظاهرة جديدة جداً في تاريخ

العالم، وهي تميز عصرنا الحالي: أقصد بذلك عجز الحكومات عن قيادة الرأي العام.

ففي الماضي غير البعيد كان عمل الحكومة وتأثير بعض الكتّاب بالإضافة إلى عدد صغير من الصحف كل ذلك يشكل الموجِّهات الحقيقية للرأي العام. وأما اليوم فإننا نلاحظ أن الكتّاب قد فقدوا كل تأثير ولم تعد الصحف تفعل شيئاً إلا أن تعكس وجهات نظر الرأي العام. وأما فيما يخص رجال السياسة فإنهم بدلاً من أن يقودوه لم يعودوا يفعلون إلا اتّباعه. وخوفهم من الرأي العام يصل أحياناً إلى حد الرعب وأصبح ينزع عن ممارساتهم كل تماسك أو ثبات.

إن رأي الجماهير يميل إذن إلى أن يصبح أكثر فأكثر الموجِّه الأعلى للسياسة. فقد وصل به الأمر اليوم إلى حد فرض التحالفات كما رأينا ذلك بالنسبة للتحالف الروسي - الفرنسي الذي خرج كله تقريباً من رحم الحركة الشعبية.

ومن علائم عصرنا المدهشة أن نرى البابوات والملوك والأباطرة يخضعون لآليات المقابلة الصحفية وأساليبها من أجل عرض فكرهم حول موضوع معين. وهم يخضعون بذلك لرأي الجماهير. قالوا في الماضي بأن السياسة لا علاقة لها بالعاطفة ومشاكلها. فهل يمكن لها أن تصبح عاطفية اليوم حيث نراها تتخذ كقائد لها دوافع الجماهير المتغيرة التي تجهل العقل وتقاد فقط عن طريق العاطفة؟

وأما فيما يخص الصحافة التي كانت توجه الرأي العام سابقاً فإنها قد اضطرت كالحكومات إلى الإمحاء أمام سلطة الجماهير. صحيح أن قوتها ضخمة ولكن فقط لأنها تمثل كلياً انعكاس الآراء الشعبية وتنويعاتها المستمرة. ولما أصبحت الصحافة عبارة عن وكالة للمعلومات فإنها لم تعد تفرض أي فكرة، ولا أي عقيدة. وأصبحت تتبع كل متغيرات الفكر العام، ونلاحظ أن ضرورات المنافسة تجبرها على ذلك وإلا فقدت قراءها. وأما الصحف القديمة والمهيبة ذات التأثير والتي كان الجيل السابق يصغي إلى كلامها كالوحي فقد اختفت أو أنها أصبحت أوراقاً

للمعلومات مؤطرة بوقائع مسلية وبنمائم المجتمع والإعلانـات المالية. وأما اليوم فـأين هي الصحيفة الغنية بما فيه الكفاية والتي تسمح لمحرريها بـأن يعبروا عن آراء شخصية؟ وما هي المصداقية التي تتمتع بها هذه الآراء لـدى القراء الـذين يبحـثون فقط عن الإستعلام أو التسلية، والـذين يـرون خـلف كـل توصية وجـه المضاربين التجـاريين؟ وحـتى النقد الأدبي لم يعد قـادراً على الدعاية لكتاب ما أو لقطعة مسرحية. ذلك أن باستطاعته الإساءة وليس الخدمة. فالصحف من شدة وعيها لعـدم جـدوى أي رأي شخصي راحـت تحـذف صفحـات النقد الأدبي. وأصبحـت تكتفي بتسجيل اسم الكتاب مرفقاً بسطر أو سطرين من الإعلان. وربما حـصل نفس الشيء للنقد المسرحي خـلال العشرين سنة القادمة.

لقد أصبحت مراقبة الرأي العام اليوم هي الشغل الشاغل للصحافة والحكومات. أصبحـت مشغولة بمعرفة الأثر الـذي يحـدثه حـدث ما أو برنامج تشريعي ما أو خـطاب ما على الرأي العام. وهـذا ليس بالأمر السهل، ذلك أنه ليس هناك من شيء أسرع تحركاً وتغيراً من فكر الجماهير. فنحن نراها تستقبل باللعنات ما كانت قد صفقت له بالأمس.

وهـذا الغياب الكامل لتوجيه الرأي العام ثم انحـلال العقائد العامة في نفس الوقت أديا في نهاية المطاف إلى التفتيت الكامل لكل القناعات واليقينيات ثم إلى شيوع اللامبـالاة المتزايـدة لـدى الجماهير والأفـراد في آن معاً، وذلك في كل ما يخـص مصالحهـا المباشرة. إن مسائل العقائد. كمسألة الاشتراكية مثلاً، لم تعد تجـد مدافعين مقتنعين فعلاً إلا في الطبقات الأمية من الشعب. نضرب على ذلك مثلاً عمال مناجم الفحم. وأما البورجوازي الصغير والعامل المتأثر قليلاً بالثقافة والتعليم فقد أصبحا متشككين جـداً.

وهـذا التطور الـذي حصل خـلال ثلاثين عاماً فقط مدهش إلى أبعد حـد. ففي الفترة السابقة والقريبة العهد كانت الآراء (آراء النـاس) لا تـزال تحـظى بتوجيه عام. فقد كانت مشتقة عن تبني بعض العقائد الإيمانية الأساسية. فبمجـرد أن كان الإنسان ملكياً كان يحصره على

مستوى التاريخ والعلوم ببعض الأفكار المسبقة، وإذا كان جمهورياً فإن ذلك يعني تقيده بأفكار مضادة تماماً. فالملكي كان يؤمن بكل يقين أن الإنسان ليس سليل القرد، وأما الجمهوري فكان يؤمن بالعكس. والملكي كان يتحدث عن الثورة بنوع من التقزز والرعب، وأما الجمهوري فكان يتحدث عنها بنوع من التقديس والعبادة. فبعض الأسماء كإسم روبسبيير ومارا ينبغي أن تلفظ بكل خشوع، وأخرى كإسم القيصر وأوغيست ونابليون لا يمكن أن تلفظ إلا وهي مرفقة بالشتائم واللعنات. وقد شاعت هذه الطريقة الساذجة في قراءة التاريخ حتى في السوربون.

وأما اليوم فإن كل رأي من هذه الآراء العامة أخذ يفقد هيبته أمام المناقشة والتحليل. فجوانبه تبلى بسرعة. والأفكار التي تلهب حماستنا نادرة. فالإنسان الحديث مصاب باللامبالاة أكثر فأكثر.

ولكن ينبغي ألا نأسف كثيراً بسبب هذا التفتت العام للآراء. فأن يكون ذلك علامة على الإنحطاط في حياة شعب ما، فهذا ما لا ينفيه أحد. فالعرافون والرسل والقادة المحركون وبكلمة أخرى كل المؤمنين المقتنعين يمتلكون قوة أخرى غير قوة النفي والسلب والنقد واللامبالاة. ولكن ينبغي ألا ننسى أنه مع القوة الهائلة للجماهير الآن فإنه إذا ما استطاع رأي واحد أن يمتلك الهيبة الكافية لكي يفرض نفسه فإنه سوف يحظى فوراً بقوة طغيانية هائلة إلى درجة أن كل شيء سوف يستسلم أمامها. وعندئذٍ سوف ينغلق عصر المناقشة الحرة لفترة طويلة. إن الجماهير تمثل أحياناً أسياداً مسالمين كما كان عليه في عصرهما كل من هيليوغابال وتيبير. ولكن للجماهير نزواتها العتيقة أيضاً. فالحضارة الجاهزة للسقوط في أيديها تظل تحت رحمة صدف عديدة جداً إلى حد أنه يشك بديمومة هذه الحضارة لفترة طويلة. وإذا كان هناك شيء ما يمكنه أن يؤخر من ساعة الإنهيار فإن ذلك سيكون بالضبط الحركية الهائلة للآراء واللامبالاة المتزايدة للجماهير تجاه كل العقائد العامة.

الكتاب الثالث

تصنيف الفئات المختلفة من الجماهير ودراستها

الفصل الأول

تصنيف الجماهير

كنا قد بيّنا في هذا الكتاب الخصائص العامة المشتركة للجماهير. وقد بقي علينا أن ندرس الخصائص الخصوصية المتراكبة على هذه الخصائص العامة، وذلك تبعاً للفئات المختلفة للجماعات البشرية.

لنقدم أولاً تصنيفاً مختصراً لأنواع الجماهير.

وسوف تكون نقطة انطلاقنا الأولى هي مجرد الكثرة والعدد. وصيغتها الأدنى تتجلى عندما تكون مؤلفة من أعراق أو أجناس مختلفة. ونقطتها المشتركة عندئذٍ تكون إرادة الزعيم المحترمة قليلاً أو كثيراً. فحولها تتجمع وتتحلق. ويمكننا أن نقدم أمثلة على أنماط هذه الكثرة البرابرة المتوحشين من أنواع شتى، هؤلاء البرابرة الذين غزوا الامبراطورية الرومانية طيلة قرون عديدة.

وفوق أنواع هذه الكثرة غير المتجانسة تظهر كثرة أخرى انصهرت في بعضها البعض تحت تأثير عوامل مختلفة واكتسبت صفات مشتركة وانتهى بها الأمر إلى تشكيل عرق واحد. وتتجلى فيها، عندما تحين المناسبة، الخصائص الخاصة بالجماهير، ولكنها دائماً مستوعبة من قبل خصائص العرق.

ويمكن تقسيم فئات الجماهير المختلفة التي نستطيع العثور عليها لدى كل شعب على الطريقة التالية:

أ ـ جماهير غير متجانسة

١ ـ جماهير مُغْفَلة (كجماهير الشارع مثلاً).
٢ ـ جماهير غير مغفلة (كهيئات المحلفين، والمجالس البرلمانية، إلخ...).

ب ـ جماهير متجانسة

١ ـ الطوائف (الطوائف السياسية، الطوائف الدينية، إلخ...).
٢ ـ الزمر (زمرة عسكرية، زمرة كهنوتية، زمرة عمالية، إلخ...).
٣ ـ الطبقات (الطبقة البورجوازية، الطبقة الفلاحية، إلخ...).

لنشرح في كلمات قليلة الخصائص التمييزية لفئات الجماهير المختلفة[1].

١ ـ الجماهير غير المتجانسة

إن هذه التجمعات هي تلك التي درسنا خصائصها سابقاً. وهي مؤلفة من أفراد لا على التعيين، بغض النظر عن مهنتهم أو ذكائهم.

وكنا قد برهنا في هذا الكتاب على أن نفسية الناس المنخرطين في الجمهور تختلف أساساً عن نفسيتهم الفردية، وإن الذكاء الفردي لا يلعب أي دور في هذا المجال. فدوره يتعطل عندما يصبح الإنسان منخرطاً في الجماعة. وحدها العواطف اللاواعية تلعب دوراً آنذاك.

وهناك عامل أساسي هو العرق، وهو يتيح لنا تقسيم مختلف أنواع الجماهير غير المتجانسة والتمييز بينها.

كنا قد تحدثنا أكثر من مرة عن دوره وبيّنا أنه أكبر عامل قادر على تحديد أعمال البشر وحسمها. وتأثيره يتجلى أيضاً في خصائص الجماهير. فالكثرة المؤلفة من أفراد لا على التعيين ولكن ينتسبون إلى عرق واحد كالإنكليز أو الصينيين تختلف جداً عن الكثرة المؤلفة أيضاً من أفراد لا على التعيين ولكن من أعراق مختلفة: كالروس والفرنسيين والاسبان، إلخ...

إن الإختلافات العميقة الناتجة عن التركيبة الذهنية الموروثة للبشر فيما يخص طريقة الإحساس والتفكير تتجلى واضحة للعيان ما إن تتوافر بعض الظروف النادرة جداً. أقصد الظروف التي تجمع في نفس الجمهور وبنسب متساوية تقريباً أفراداً ينتمون إلى جنسيات مختلفة أياً تكن تماثلية المصالح التي تجمعهم ظاهرياً. والمحاولات التي قام بها الإشتراكيون لكي يصهروا ممثلي الحركات العمالية في كل بلد في مؤتمر كبير واحد باءت دائماً بالفشل وانتهت بظهور التناقضات والاختلافات. فالجمهور اللاتيني أياً تكن درجة ثوريته أو محافظته سوف يلجأ إلى تدخل الدولة من أجل تحقيق مطالبه. فهو دائماً من مؤيدي الوحدة المركزية. كما أنه من مؤيدي الاستبدادية القيصرية بدرجة تقل أو تكثر. وأما الجمهور الإنكليزي أو الأمريكي، فعلى العكس، لا يعترف بالدولة وإنما فقط بالمبادرة الخاصة. والجمهورالفرنسي متعلق بفكرة المساواة بشكل خاص وقبل كل شيء، وأما الجمهور الإنكليزي فيتعلق بالحرية. وهذه الإختلافات العرقية تولد عدداً من الجماهير مساوياً لعدد الأمم تقريباً.

نستنتج من ذلك أن روح العرق تهيمن كلياً على روح الجمهور. إنها الجوهر القوي الذي يحد من التذبذب والتغير. وتكون خصائص الجماهير أقل حدة وبروزاً كلما كانت روح العرق أكثر قوة. وهذا قانون أساسي. إن حالة الجمهور وهيمنة الجماهير تشكلان نوعاً من الهمجية أو عودة الهمجية. إن العرق يتخلص أكثر فأكثر من القوة المجنونة للجماهير ويخرج من حالة الهمجية عن طريق اكتساب روح مكونة بشكل راسخ.

وفيما عدا عامل العرق فإن التصنيف الوحيد المهم بالنسبة للجماهير غير المنسجمة هو الفصل بين الجماهير المغفلة كجماهير الشارع، والجماهير غير المغفلة كالمجالس البرلمانية وهيئات المحلفين مثلاً. إن الشعور بالمسؤولية معدوم لدى الجماهير الأولى ومتطور لدى الثانية، وهو يفرض على أعمالهم توجهات مختلفة غالباً.

٢ ـ الجماهير المتجانسة

إن الجماهير المتجانسة تشمل: ١ ـ الطوائف؛ ٢ ـ الزمر؛ ٣ ـ الطبقات.

فالطائفة تشكل المرحلة الأولى من مراحل تشكل الجماهير المتجانسة. فهي تحتوي على أفراد من ثقافات ومهن وأوساط مختلفة جداً أحياناً، وليس بينها من رابطة وحيدة إلا العقيدة والإيمان. نضرب على ذلك مثلاً الطوائف الدينية والسياسية.

وأما الزمرة فتمثل أعلى درجات التنظيم التي يقدر عليها الجمهور. ففي حين أن الطائفة مشكلة من أفراد ذوي مهن وثقافات وأوساط متنافرة جداً في الغالب ولا يترابطون فيما بينهم إلا بواسطة اشتراكهم في العقائد، فإن الزمرة لا تشمل إلا أفراداً من نفس المهنة وبالتالي ذوي تربية وأوساط متماثلة تقريباً. نضرب على ذلك مثلاً الزمرة العسكرية والكهنوتية.

وأما الطبقة فتتشكل من أفراد ذوي أصول مختلفة وموحدين ليس عن طريق اشتراكهم في العقائد كأعضاء الطائفة، وليس عن طريق اشتراكهم في الإهتمامات المهنية كأعضاء الزمرة، وإنما عن طريق بعض المصالح وبعض عادات الحياة والتربية المتشابهة. نضرب على ذلك مثلاً الطبقة البورجوازية، والطبقة الزراعية، إلخ . . .

ولما كنت لم أدرس في هذا الكتاب إلا الجماهير المتجانسة فإني سوف أهتم فقط ببعض فئات تشكيلة الجماهير المختارة كأنماط محددة.

الفصل الثاني

الجماهير المدعوة بالمجرمة

ما إن تسقط الجماهير بعد فترة الهيجان والحماسة في حالة الناس الآليين غير الواعين والمقودين من قبل التحريضات والمحرضات، حتى يصبح صعباً علينا وصفها بالمجرمة في أي حالة من الأحوال. ولكن مع ذلك فقد احتفظت بهذا الوصف الخاطىء لأنه كان قد ترسخ من قبل البحوث النفسية. لا ريب في أن بعض أعمال الجماهير هي مجرمة إذا ما أخذناها بذاتها ولذاتها. ولكنها عندئذٍ ستكون مجرمة مثلما أن التهام النمر لهندي ما يعتبر عملاً إجرامياً بعد أن كان قد ترك صغاره يمزقونه للتسلي به.

إن جرائم الجماهير ناتجة عموماً عن تحريض ضخم، والأفراد الذين ساهموا فيها يقتنعون فيما بعد بأنهم قد أطاعوا واجبهم. وهذه ليست أبداً حالة المجرم العادي فتاريخ الجرائم التي ارتكبتها الجماهير توضح لنا ما سبق.

ويمكننا أن نستشهد على ذلك بمثال نموذجي هو قتل مدير سجن الباستيل السيد دولوني. فبعد أن تم الإستيلاء على هذا السجن راح المدير يتلقى الضربات واللبطات من كل الجهات من قبل الجماهير. وراح البعض يقترحون شنقه والآخرون يقولون بقطع رأسه أو بربطه بذنب حصان وسحله في الشارع. ولما راح يتخبط بين أيديهم لبط برجله أحد الحضور عن غير قصد. وعندئذٍ اقترح أحدهم أن يقوم هذا الرجل الذي أصابته اللبطة بقطع رأس المدير بيده.

يقول أحد الشهود راوياً القصة:

«وكان هذا الرجل طباخاً متجولاً ونصف متسكع. وقد ذهب إلى الباستيل لكي يرى ماذا يحصل هناك، ولما رأى أن الجميع متفقون على قيامه بهذه المهمة وأنه يؤدي عملاً وطنياً إذ ينجزها فإنه وافق على الفور. بل واعتقد بأنه يستحق ميدالية تكريم عن طريق قتله لهذا الوحش. وقد أعاروه سيفاً فضرب عنقه. ولكن السيف لم يكن مشحوذاً جيداً فلم يفلح في ضربته. وعندئذٍ أخرج من جيبه سكيناً صغيرة بمقبض أسود كان يستخدمها في قطع اللحم كطباخ وأكمل قطع رأسه بنجاح لحسن الحظ».

ونرى هنا مثالاً تطبيقياً حياً على الآلية التي شرحناها سابقاً فيما يخص طريقة عمل الجماهير وردود فعلها. فالقاتل يخضع بكل طاعة للتحريض لأنه صادر عن قوة جماعية وجماهيرية، وهو يشعر بأنه قد قام بعمل مجيد وطبق قناعة طبيعية لأنه حظي بالإستحسان الاجماعي من قبل مواطنيه. وعمل مشابه لهذا يمكن أن يوصف بالإجرامي من الناحية القانونية ولكن ليس من الناحية النفسية.

إن الخصائص العامة للجماهير المدعوة بالمجرمة هي بالضبط نفس الخصائص التي لاحظناها لدى جميع أنواع الجماهير. هذه الخصائص هي: قابلية التحريض، السذاجة أو سرعة التصديق، الحركية والخفة، المبالغة في العواطف سواء أكانت طيبة أم سيئة، تبدّي بعض أشكال الأخلاقية، إلخ...

ونحن نعثر على كل هذه الخصائص لدى نوع من أنواع الجماهير التي تركت أبشع الذكريات وأكثرها إجراماً في تاريخنا: أقصد جماعة سبتمبر (أو الأيلوليين الذين شاركوا في مذابح أيلول في فرنسا عام ١٧٩٢). وهذا الجمهور يتشابه في نقاط كثيرة مع الجمهور الذي قام بمذابح سانت برتيليمي. وأنا أستعير تفاصيل هذه الوقائع من الفيلسوف «تين» الذي استمدها من ذكريات ذلك الزمن.

لا نعرف من هو الذي أعطى الأوامر بالضبط أو من هو الذي اقترح

تفريغ السجـون عن طريق قتل المساجين. وسواء أكان هو دانتون كما يبدو محتملاً أم أنه شخص آخـر فـإن ذلك لا يهـم كثيراً. فالشيء الوحـيد المهم بالنسبة لنا هو ذلك الاقتراح التحريضي الجبار الذي تلقاه الجمهور المكلف بعملية المجـزرة والقتل.

كان جـيش القتلة الـذي قام بالمجـزرة يـضم حوالى الثلاثمائة شخص ويمثل النمط النموذجي عـلى الجمهور غير المتجـانس. وما عـدا عـدد صغير من الأوغاد المحترفين فـإن الجمهور كان مكوناً بشكل خـاص من أصحـاب الدكاكين والحرفيين المختلفين من الاسكافيين والحـدادين والحـلاقين والبنائين والموظفين والوسطاء التجـاريين، إلخ. . . فهـم تحـت تأثير الاقتـراح التحريضي يندفعون كالطباخ المذكور آنفاً، وهم مقتنعون بـأنهم ينجـزون واجباً وطنياً. إنهم يقومون بوظيفة مزدوجة: فهـم في آن معاً القضاة والجـلادون ولا يعتبـرون أنفسهم إطلاقاً كمجرمـين.

فبعد أن يمتلئوا حمـاسة وقناعة بـدورهم نجـدهم يبتدئون بتشكيل نـوع من المحكمة. وفـوراً تظهـر الروح التبسيطية للجماهير وعدالتها التي لا تقل تبسيطية. ونظـراً لضخامة عـدد المتهمين فـإنهم يقـررون بـأن النبلاء والكهنة والضباط وخـدم الملك أي كـل الأفـراد الـذين تشكل مهنتهم نفسها بحـد ذاتها جريمة في نظـر الوطني الحقيقي، سوف يقتلون ككتلة واحـدة دون الحاجة لقـرار خـاص. وما إن يتم إرضاء الوعي البـدائي للجماهير بهذه الطريقة فـإنها تستطيع بعدئذٍ أن تقوم بالمجـزرة بـكل طيبة خـاطر وتدشن غرائزها الضارية دون أي وازع أو رادع. وكـنت قد بينت في مكان آخـر منشأ هذه الغرائز التي تستطيع الكثرة المتجمعة أن تنميها وتزيدها إلى أبعد حـد. وهـذا لا يعني أنها تمنع الظهـور الملازم لعواطف أخـرى مضادة كما هي عليه القاعدة بالنسبة للجماهير كالحساسية المتطرفة جـداً من نـوع الضراوة.

يقـول تين: «إن عاطفة الجماهير توسعية وحساسيتها متوثبة كحساسية العامل البـاريسي .ففي الدير عندما عـرف أحـد الفيدراليين أنهم قـد تركوا المعتقلين بـدون ماء لمـدة ست وعشرين ساعة أراد أن

يستأصل الحارس المسؤول الذي أهمل عمله. وكان يمكن أن يفعل ذلك لولا تضرع المعتقلين أنفسهم وتوسلهم له لكيلا يفعل ذلك. وعندما يتم الإفراج عن أحد السجناء بواسطة محكمة ارتجالية فإن الحرس والقتلة وكل العالم يقبِّلونه بفورة فرح ويصفقون له بنوع من الجنون والهذيان». ثم يعودون لقتل الآخرين. وأثناء القيام بالمجزرة يخيم على الجميع نوع من الفرح اللطيف والجميل. فهم يرقصون ويغنون حول الجثث ثم يصفون المقاعد «للسيدات» السعيدات برؤية مقتل الأرستقراطيين. ثم يستمرون في إظهار نوع من العدالة الغريبة جداً. فقد اشتكى أحد القتلة في الدير من أن السيدات الجالسات بعيداً نسبياً لا يرين المشهد بشكل جيد وأن بعض الحاضرين فقط يستمتعون بضرب الأرستقراطيين، وجدناهم يصغون لشكواه ويقررون تمرير الضحايا بشكل بطيء بين صفين من الذباحين الذين لا يستطيعون الضرب إلا بظهر السيف من أجل إطالة مدة التعذيب. ثم عروا جسيع الضحايا بالقوة ومزقوهم طيلة نصف ساعة، ثم بعد أن يكون الجميع قد رأوا المشهد فإنهم يجهزون عليهم عن طريق شق بطونهم.

والواقع أن الجزارين كانوا دقيقين وصارمين جداً، كما ويجسدون تلك الأخلاقية الأمينة التي أشرنا إلى وجودها في أوساط الجماهير. فكانوا مثلاً ينقلون إلى طاولة اللجان كل المال والجواهر التي وجدوها في جيوب الضحايا.

وفي كل أعمال الجماهير نجد دائماً هذه الأشكال البدائية والخشنة من المحاكمة العقلية. فهي التي تميز روح الجماهير. فمثلاً بعد أن ذبحوا الإثني عشر ألفاً أو الخمسة عشر ألفاً من أعداء الأمة لفت أحدهم الإنتباه إلى أن السجون الأخرى تحتوي على شحّاذين معمرين ومتسكعين وسجناء شباب، أي على أفواه جائعة وغير مفيدة، وبالتالي فمن الأفضل التخلص منهم أيضاً. وقد قبل اقتراحه فوراً. ثم أضاف قائلاً بأن يوجد بينهم أعداء للشعب من أمثال السيدة دولارو، أرملة السمّام. «ومن المتوقع أن تكون غاضبة بسبب سجنها. ولو

استطاعت لأحرقت باريس ومن فيها. ومن المؤكد أنها قالت ذلك. وبالتالي فينبغي توجيه ضربة أخرى لها». وقد بدت محاجته عين العقل والصواب، فقتلوا الجميع عن بكرة أبيهم بمن فيهم خمسين طفلاً تتراوح أعمارهم بين اثني عشر عاماً وسبعة عشر عاماً. وقال بما أنهم هم أيضاً كانوا سيصبحون أعداء للأمة لو عاشوا وكبروا فإنه ينبغي قتلهم.

وبعد أسبوع كامل من العمل انتهت كل هذه العمليات وذهب الجزارون للاستراحة. ولما كانوا مقتنعين بأنهم قد استحقوا منّة الوطن، فإنهم توجهوا إلى السلطات طلباً للمكافأة، بل وإن أكثرهم حماسة راحوا يطالبون بميدالية.

وإذا ما قرأنا تاريخ كومونة باريس لعام (١٨٧١) وجدنا فيه وقائع عديدة مشابهة. فالتأثير المتزايد للجماهير والإستسلام المتكرر للسلطات أمامها يقدمان لنا بالتأكيد أمثلة أخرى عديدة.

الفصل الثالث

محلّفو محكمة الجنايات

لما كنا غير قادرين هنا على دراسة كل فئات المحلّفين، فإننا سنكتفي فقط بدراسة الفئة الأكثر أهمية أقصد فئة محكمة الجنايات. فهي تشكل مثالاً ممتازاً على الجمهور غير المتجانس وغير المُغْفَل. وفيه نعثر على الخصائص الأساسية: كالقابلية للتحريض، وهيمنة العواطف اللاواعية، وضعف القدرة على المحاكمة العقلية، وتأثير القادة والمحركين، إلخ... ونحن إذ ندرس هذه الفئة من الجماهير سوف نجد المناسبة اللائقة لملاحظة عينات مهمة من الأخطاء التي قد يرتكبها الأشخاص غير المتدربين على علم نفس التجمعات والجماعات.

إن المحلفين يبرهنون على ضعف أهميتهم فيما يخص المستوى العقلي لمختلف العناصر التي تشكل جمهوراً ما، وذلك من وجهة نظر القرارات المتخذة. كنا قد رأينا فيما يخص المجالس البرلمانية والإستشارية المدعوة لإعطاء رأيها بصدد مسألة ليس لها طابع تقني بحت فقط، أن الذكاء لا يلعب أي دور. ورأينا أيضاً أن مجمع العلماء أو الفنانين لا يصدر حول المواضيع العامة أحكاماً مختلفة جداً عن الأحكام التي تصدرها جمعيات البنّائين أو الأميين. ففي فترات مختلفة تختار الإدارة بكل دقة الأشخاص المدعوين لتأليف الهيئة المحلفة وتجندهم من بين صفوف الطبقات المستنيرة كالأساتذة والموظفين والأدباء، إلخ... واليوم نجد أن الهيئة المحلفة مؤلفة بشكل خاص من التجار الصغار وأرباب العمل الصغار والموظفين. ولشد ما كانت دهشة

الكتـاب المتخـصصين كـبيرة عندما اكتشفوا أن الإحصائيات تبين أن القـرارات المتخـذة متماثلة أياً تـكن تركيبة الهيئة المحلفة ومهـما اختلفت وتنوعت. وقد اضطر القضاة أنفسهم على الرغم من عدائهم الشديد لتشكيل الهيئة المحلفة إلى الاعتـراف بصحة هذا الكلام. وإليـكم الآن ما قاله بهـذا الصدد في مـذكراته رئيس سابق لمحكـمة الجنايات هو السيد بيرار دي غلاجـو:

«في الواقع أن اختيـار الهيئة المحلفة اليوم هو في أيدي أعضاء مجـلس البلدية. وهم ينتقون الشخص أو يحـذفونه بحسب هواهم وطبقاً للمصالح السياسية والانتخـابية الخاصة بوضعهـم... وأغلبية المنتخبين مؤلفة من تجـار أقل أهمية من أولئك الـذين كانوا يختـارون في الماضي، ومن موظفي بعض الإدارات... وكـل الآراء تمتزج بـكل المهن في الـدور الـذي يقوم به القاضي، فالكـثيرون يتمتعون بالحماسة التي يتمتع بها المعتنق الجـديد للدين. والرجال ذوو النية الطيبة يتلاقون في الحـالات الأكثر تواضعاً، ولكن روح لجنة التحـكيم لم تتغير: **فأحكامها الصادرة بقيت هي هي**».

لنحـتفظ من هذا المقطع بالخلاصات التي انتهى إليها والتي تبدو لنا صحيحة جـداً. ولنطـرح جانباً التحـليلات والشروحـات فهي ضعيفة جـداً. وينبغي ألا نـدهش لمثل هذا الضعف، وذلك لأنه يبـدو أن علم نفس الجماهير، وبالتـالي نفسية المحلّفين، كان غالباً مجـهولاً من قبل المحـامين كما من قبل القضاة. وقد وجـدت البرهـان على ذلك في هذه الواقعة التي نقلها نفس المؤلف. تقول القصة بـأن أحـد المحامين المشهورين في محكمة الجنايات السيد لاشو كان يستخـدم كـثيراً حـق الطعن تجـاه كـل الأشخاص الأذكياء الـذين يمارسون دورهم كأعضاء في اللجنة. ولكن التجربة، والتجربة وحـدها، قد توصلت إلى إفهـام الجميع بعـدم جـدوى الطعن على الإطـلاق. وقد تراجعت وزارة الشؤون العامة والمحـامون، على الأقل في بـاريس، عن مثـل هذه العملية كلياً اليوم. وكما لاحـظ السيد دي غلاجو فـإن الأحـكام الصادرة لم تتغير. «فهي ليست أفضل ولا أسوأ من ذي قبل».

وككل أنواع الجماهير فإن المحلفين يتأثرون جداً بالعواطف وقليلاً جداً بالمحاكمات العقلية. كتب أحد المحامين يقول: «إنهم لا يستطيعون مقاومة منظر امرأة وهي ترضع ابنها. كما أنهم لا يستطيعون مقاومة منظر موكب اليتامى يمر أمامهم». ويقول السيد دي غلاجو: «يكفي أن تكون امرأة ما لطيفة وأنيقة لكي تكسب تعاطف هيئة المحلفين».

إن المحلفين لا يبدون أي شفقة أو رحمة تجاه الجرائم التي تنال منهم والتي هي أخطر شيء بالنسبة للمجتمع. ولكنهم يبدون متسامحين تجاه الجرائم المدعوة بالغرامية أو العاطفية. فهم نادراً ما يكونون متشددين تجاه الأمهات اللواتي يقتلن أطفالهن بمجرد ولادتهم، وكذلك بالنسبة للبنت المهجورة التي تشوه وجه الرجل الذي يريد الإعتداء عليها. فهم أكثر تسامحاً معها. فهم يشعرون بواسطة الغريزة أن هذه الجرائم ليست خطرة جداً بالنسبة للمجتمع. وفي المجتمع الذي لا يحمي البنات المهجورات نجد أن انتقام إحداهن مفيد أكثر مما هو ضار لأنه يردع المعتدين الآخرين بشكل مسبق[1].

وهيئات المحلفين مسحورة، ككل الجماهير، بمظاهر الهيبة والحظوة الشخصية. ولهذا السبب يلاحظ الرئيس دي غلاجو بكل حق بأن هذه الهيئات الديمقراطية في تشكيلتها تبدو أرستقراطية في عاطفتها وميولها. يقول: «إن اسم المحامي واسم عائلته يشكلان دعماً كبيراً للدفاع عن قضية المتهم. وكذلك الأمر فيما يخص ولادته وثروته وصيته وشهرته، فكلها عوامل مساعدة لنجاح الدفاع».

وأهم شيء بالنسبة للمحامي الناجح هو أن يعرف كيف يؤثر على عواطف المحلفين. فهم ككل أنواع الجماهير لا يحاكمون الأمور عقلانياً إلا قليلاً جداً، أو قل إنهم لا يستخدمون إلا الأشكال البدائية من التعقل والمحاكمة العقلية. وقد حلل محامي إنكليزي مشهور بمرافعاته الناجحة في محكمة الجنايات هذه المنهجية بشكل جيد. قال:

«كان يراقب بدقة هيئة المحلفين وهو يقوم بمرافعته. وكانت هي

اللحظة المؤاتية. فعن طريق الفطنة والتجربة كان المحامي يقرأ على وجوههم تأثير كل عبارة يقولها وكل كلمة، ويستخلص من ذلك النتائج. وكان يريد قبل كل شيء أن يميز الأعضاء المؤيدين لقضيته عن غيرهم مسبقاً. وبتأشيرة من يده يتوصل إلى طمأنتهم، ثم يتوجه بعدئذٍ إلى أعضاء الهيئة الذين يبدون أقل استعداداً لسماع وجهة نظره. ثم يحاول أن يفهم لماذا هم معادون للمتهم الذي يدافع عنه. وهذه هي المرحلة الأشد صعوبة من مهمته لأنه يمكن أن توجد لا نهاية من الأسباب التي تدفعهم لإدانة المتهم ما عدا أسباب العدالة».

إن هذه السطور القليلة تلخص بكل دقة هدف فن الخطابة الذي يتمتع به المحامون عادة، كما وتبين لنا عدم جدوى الخطابات الجاهزة المحضرة سلفاً لأنه ينبغي تعديل الكلمات المستخدمة في كل لحظة وبحسب ردود فعل السامعين.

والخطيب ليس بحاجة لإقناع كل أعضاء الهيئة المحلفة وإنما فقط القادة المحركين الذين يتحكمون بالرأي العام. وكما في كل أنواع الجماهير فإن عدداً صغيراً من الأفراد هم الذين يقودون الآخرين. يقول المحامي الذي استشهدت به قبل قليل: «لقد عرفت من خلال التجربة أنه يكفي في لحظة إطلاق الحكم أن يوجد رجل واحد أو رجلان نشيطان لكي يقنعا كل أعضاء اللجنة ويجرّاهم إلى تبني رأيهما». وبالتالي فإن المهمة تكمن في إقناع هذين الرجلين أو الثلاثة بواسطة اقتراحات ذكية. فينبغي أولاً وقبل كل شيء نيل إعجابهم. فعندما نحظى بإعجاب الرجل المنخرط في الجمهور فإننا نكون قد ضمنا إقناعه ويصبح مستعداً لقبول الحجج التي نقدمها له ويعتبرها ممتازة. وقد وجدت في كتاب ممتاز عن السيد لاشو الحكاية التالية:

«نحن نعلم أنه طيلة فترة كل المرافعات التي ألقاها في محكمة الجنايات فإن لاشو لم يكن يحوِّل بصره عن اثنين أو ثلاثة محلفين كان يعرف أو يشعر بأنهم نافذون ولكن شرسون. وبشكل عام كان ينجح في إقناع هؤلاء المعاندين. ولكنه على الرغم من ذلك وجد أحدهم في

الأقـاليم وقد راح يمطره بمحاجاته الأكثر عناداً طيلة ثلاثة أرباع الساعة ولكـن دون جـدوى. وكـان الجـالس الأول في الصف الثـاني وسابع المحـلفين. وقد وصـل به الأمر إلى حـد اليـأس! وفي أثنـاء مرافعة حماسية ملتهبة توقف لاشـو فجـأة وتوجـه بكلامه إلى رئيس محـكمة الجنايات وقـال: السيد الرئيس، ألا تستطيع أن تستدل الستارة المواجهـة لنا. فالسيد المحـلف السابع قد أعمته الشمس. وعندئذٍ احمـر وجه هـذا المحـلف وابتسم وأصبح في صـف محـامي الدفاع»!. . .

لـقد حـارب كتّـاب كـبار في الفترة الأخـيرة وبشدة وجـود هيئة المحلفين، هـذا على الرغم من أنها تمثل الحماية الوحيـدة ضد الأخطاء التي كـثيراً ما ترتكبها زمـرة لا رقابة عليها(٢). فبعض هـؤلاء الكتّـاب يريدون هيئة محـلفين مؤلفة فقط من أعـضاء ينتمون إلى الطبقـات المستنيرة. ولكننا كنا قـد برهنا سابقاً على أنه حـتى في هذه الحالة فـإن الأحـكام الصادرة ستكون مماثلة للأحـكام الصادرة حـالياً. وهناك كتّـاب آخـرون يحتجـون بالأخـطاء التي ترتكبها هيئات المحلفيـن ويخـلصون إلى القول بـضرورة إلغائها وإحـلال القضاة محـلها. ولكـن كـيف يمكنهم نسيان أن الأخـطاء التي يتهمـون المحـلفين بها مرتكبة أولاً وبشكل دائم من قبل القضاة أنفسهم؟ وذلك لأن المتهم المحوّل للعدالة (عدالة المحلفين) كان قد اعتبر مذنباً من قبل العديد من القضاة، كقـاضي التحـقيق، ونـائب الجمهورية، ومجـلس الاتهـام. ثم ألا يـرون أنه إذا ما حـوكم نهائياً من قبل القضاة بـدلاً من المحـلفين فـإن المتهـم يفقد حظه الوحيد في الاعتـراف به كـبريء؟ إن اخـطاء المحـلفين كانت دائماً أخـطاء القضاة أولاً. وبالتـالي فينبغي لوم هـؤلاء الأخيرين عندما نـلاحظ وجـود أخـطاء قضائية فـاحشة فعلاً كتـلك الإدانة التي حـصلت للدكتور (س). . . فقد لاحقه قاضي التحقيـق بطريقة عنيدة وغبية فقط لأن فتاة نصف مجنونة اتهـمت الدكتور بـأنه قد أجهضها مقابل ثلاثين فرنكاً. وكان سيرسل إلى السجن لولا انفجـار الغضب العام الـذي ساهم في إصـدار العفو عنه مباشرة من قبل رئيس الدولة. إن شرف المتهـم وبـراءته قد أجـمع عليهما كـل مواطنيه وأثبتا بالتـالي فـداحة الخـطأ

المرتكب بحقه. وقد اعترف بذلك القضاة أنفسهم. ولكن على الرغم من ذلك فإن عصبية الزمرة التي تجمعهم دفعتهم إلى محاولة منع التوقيع على قرار العفو. وفي كل القضايا المشابهة المحاطة بتفاصيل تقنية لا نفهم عنها شيئاً نجد أن هيئة المحلفين تستمع بالطبع لوزارة العموم وتقول بينها وبين نفسها أن القضية لا يمكن أن تكون إلا صحيحة لأنها قد درست من قبل القضاة الخبيرين والعارفين. فأين هم إذن المسؤولون الحقيقيون عن الخطأ؟ هل هم هيئات المحلفين أم القضاة؟ لنحتفظ إذن بهذا الكنز الذي نملكه: هيئة المحلفين. فربما كانت تشكل الفئة الوحيدة من الجماهير التي لا يمكن لأي شخصية فردية أن تحل محلها. فهيئة المحلفين هي وحدها القادرة على التخفيف من قساوة القانون الذي بما أنه ينطبق بالتساوي على الجميع، فإنه لا يعترف بالحالة الخاصة أو الاستثنائية. فالقاضي غير حساس للشفقة ولا يعترف إلا بالنصوص، وهو بقساوته المهنية يطبق نفس العقوبة على السارق القاتل وعلى البنت الفقيرة التي تضطر إلى قتل طفلها بسبب هجران صاحبها لها وبسبب البؤس والفاقة. هذا في حين أن هيئة المحلفين تشعر بالغريزة أن البنت المغرَّر بها أقل ذنباً بكثير من صاحبها الذي خدعها. هذا في حين أنه هو الذي ينجو من حكم القانون! وبالتالي فنحن نعتقد أنها تستحق التسامح والتساهل من قبل القانون.

وبما أني أعرف نفسية الزمر ونفسية الفئات الأخرى من الجماهير فإني لا أعرف أي حالة أكون فيها شخصياً متهماً عن خطأ بارتكاب جريمة ما إلا وأفضل أن أحاكم من قبل المحلفين لا من قبل القضاة. فمع الأولين سيكون حظي أكبر من الاعتراف ببراءتي، وسيكون حظي أقل بكثير مع الأخيرين. لنخشى إذن جبروت الجماهير، ولكن لنخشى أكثر جبروت بعض الزمر وتحكمها فينا. فالبعض قد يمكن إقناعهم وأما الآخرون فلا يحيدون عن موقفهم أبداً.

الفصل الرابع

الجماهير الانتخابية

إن الجماهير الانتخابية، أي الجماعات المدعوة لانتخاب المسؤولين عن بعض المراكز والمناصب، تشكل جماهير غير متجانسة. وبما أنها لا تؤثر إلا على نقطة واحدة محددة، أي اختيار شخص من بين مرشحين عديدين، فإننا لا نستطيع أن نجد لديها إلا بعض خصائص الجماهير التي عددناها آنفاً. والصفات الأساسية التي تتجلى لديها هي بشكل خاص: ضعف القابلية للتفكير العقلاني، انعدام الروح النقدية، النزق وسرعة الغضب، السذاجة وسرعة التصديق، التبسيطية. ونعثر أيضاً في قراراتهم على تأثير القادة المحركين وعلى دور العوامل التي عددناها سابقاً: كالتوكيد، والتكرار، والهيبة الشخصية، والعدوى.

لنبحث أولاً عن كيفية إغراء هذه الجماهير. فمن دراسة هذه المجريات والأساليب التي تنجح في إغرائها أكثر يمكننا أن نستخلص نفسيتها بشكل أفضل.

فأول صفة ينبغي أن يمتلكها المرشح للإنتخابات هي الهيبة الشخصية. فالهيبة الشخصية لا يمكن أن تعوض بأي شيء آخر إلا بواسطة الثروة والغنى. ذلك أنه حتى الموهبة والعبقرية لا يمكنهما أن تكونا عنصر نجاح.

إن حاجة المرشح الماسة لأن يكون متجلبباً برداء الهيبة الشخصية وبالتالي في فرض نفسه على الآخرين دون مناقشة هي شيء أساسي

وحاسم. وإذا كان الناخبون المشكلون أساساً من العمال والفلاحين نادراً ما يختارون شخصاً من بينهم لتمثيلهم في مجلس النواب، فذلك لأن الشخصيات الخارجة من أوساطهم ليس لها أي هيبة شخصية. فهم لا ينتخبون رجلاً مساوياً لهم إلا لأسباب ثانوية، كأن يريدوا مثلاً الوقوف في وجه شخصية شهيرة أو رب عمل قوي جداً يقع الناخب تحت سلطته يومياً والذي يتوهم بالتالي أنه سيده.

ولكن امتلاك صفة الهيبة الشخصية لا يكفي لضمان نجاح المرشح. فالناخب يرغب في أن يتملق المرشح رغباته وأطماعه وعجبه وغروره. وينبغي على المرشح أن يغمره بالتزلف والتملق كما وينبغي عليه ألا يتردد في توزيع أكبر الوعود عليه. فأمام جمهور من العمال مثلاً ينبغي عليه شتم أرباب العمل وفضحهم بقدر الإمكان. وأما فيما يخص المرشح المضاد أو المنافس فإنه يحاول سحقه عن طريق تكريس الإتهامات بواسطة التأكيد والتكرار والعدوى، والقول بأنه أحط الأوغاد وأن الجميع يعرفون أنه قد ارتكب جرائم عديدة. وبالطبع فلا داعي للبحث عن أي برهان على هذه الاتهامات. فإذا كان الخصم لا يعرف جيداً نفسية الجماهير فإنه سيحاول تبرير نفسه بواسطة محاجات عقلانية بدلاً من أن يرد بكل بساطة بتأكيدات مضادة ونمائم مضادة أيضاً. وإذا لم يفعل ذلك فلن يكون له آنذاك أي حظ في الانتصار.

والبرنامج المكتوب للمرشح لا ينبغي أن يكون دقيقاً جداً أو قطعياً جداً لأن خصومه يمكنهم أن يواجهوه به فيما بعد. وكذلك برنامجه الشفهي لا ينبغي أن يكون متطرفاً أو مبالغاً فيه أكثر مما يجب. بالطبع يمكنه أن يعد ناخبيه بالإصلاحات الضخمة، دون أي خوف من ذلك. فهذه الوعود المبالغ فيها تولد آثاراً ضخمة على الناخبين في لحظتها، وهو ليس مضطراً للالتزام بها بعد نجاحه. فالناخب لا يهتم لاحقاً أبداً بمسألة التحقق فيما إذا كان المرشح قد التزم بتطبيق وعوده أم لا، بل إنه ينسى ذلك تماماً على الرغم من أن الإنتخابات تكون قد حسمت على أساس هذه البرامج والوعود.

وهكذا نعثر هنا على كل عوامل الإقناع التي درسناها سابقاً. وسوف نلتقي بها أيضاً عندما ندرس تأثير الكلمات والشعارات التي يستخدمها المرشحون. وكنا قد أشرنا أيضاً إلى مدى هيمنتها على نفوس الجماهير. فالخطيب الذي يعرف كيفية استخدامها والتلاعب بها يقود الجماهير كما يشاء ويشتهي. فشعارات من نوع: الرأسمال الكريه، المستغلون الحقيرون، العامل الرائع، التوزيع الاشتراكي للثروات، إلخ... تولد دائماً نفس الآثار الإيجابية على الرغم من أنها قد استهلكت من كثرة الاستخدام. ولكن المرشح الذي يستطيع أن يكتشف شعارات جديدة خالية من أي معنى دقيق أو محدد وبالتالي فقابلة للإنطباق على الحالات الأكثر اختلافاً وتلبية مختلف الآمال، فإنه يحقق نجاحاً مؤكداً. فالثورة الدموية الإسبانية لعام (١٨٧٣) اندلعت بواسطة إحدى هذه الكلمات السحرية بالمعنى المعقد للكلمة، والتي يمكن لكل شخص أن يفسرها بحسب هواه وآماله. وقد تحدث أحد الكتاب المعاصرين عن منشأ هذه الثورة بكلمات تستحق أن تنقل كما هي:

«كان الراديكاليون قد اكتشفوا أن الجمهورية الوحدوية ليست إلا عبارة عن نظام ملكي مقنّع. ولكي يؤكدوا لهم ذلك كان الكورتيون قد أعلنوا الجمهورية الفيدرالية بصوت واحد دون أن يستطيع أي واحد من الذين صوتوا أن يقول ماذا فعل بالضبط. ولكن هذه الصيغة قد أعجبت كل العالم، وكان الجو مليئاً بالهذيان والحماسة والاندفاع. فقد دشنوا على سطح الأرض عهد الفضيلة والسعادة. فالجمهوري الذي كان عدوه يرفض أن يصفه بالفيدرالي كان يعتبر ذلك بمثابة إهانة وشتيمة لا تغتفر. وكانوا يحيّون بعضهم البعض في الشوارع قائلين: مرحباً أيها الجمهوري الفيدرالي! وبعدئذٍ كانوا يرتلون الأناشيد الداعية للعصيان المقدس ولاستقلالية الجندي. ولكن ماذا كانت تلك «الجمهورية الاتحادية»؟ في الواقع أن البعض كان يقصد بها تحرير المحافظات والأقاليم وإقامة مؤسسات مشابهة لتلك الموجودة في الولايات المتحدة حيث توجد اللامركزية الإدارية. وأما البعض الآخر فكانوا يفهمونها على أساس أنها تعني إلغاء لكل سلطة وتدشيناً وشيكاً للثورة

الاجتماعية الكبرى. وأما الإشتراكيون في برشلونة والأندلس فكانوا يدعون إلى السيادة المطلقة لكل البلديات. وكانوا يريدون أن يقدموا لاسبانيا عشرة آلاف بلدية مستقلة لا تتلقى القوانين إلا من ذاتها وتلغي دفعة واحدة كلاً من الجيش والدرك. ثم شهدنا بعدئذٍ بقليل انتشار التمرد والعصيان في أقاليم الجنوب من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية. وما إن تكون بلدية ما قد قامت بعصيانها حتى تلجأ أولاً وقبل كل شيء إلى قطع وسائل الإتصال بكل جاراتها وبالعاصمة مدريد (قطع التلفون وسكك الحديد). ولم تكن توجد أي بلدة صغيرة إلا وتريد تحقيق استقلاليتها الذاتية. وهكذا أدت النزعة الفيدرالية إلى نوع من الأقليمية الضيقة والفجة، الحارقة والمدمرة. وفي كل مكان راحوا يحتفلون بأعياد الخلاعة».

وأما فيما يخص التأثير الذي قد تحدثه المحاجات العقلانية على نفسية الناخبين فإنه ينبغي على المرء ألا يكون قد قرأ أي محضر جلسة عن الاجتماعات الإنتخابية لكي لا يفهم شيئاً عن الموضوع. ففيها يتبادلون الآراء القاطعة والتأكيدات الجازمة والشتائم وأحياناً اللطمات العنيفة، ولا يتبادلون أبداً المحاجات العقلانية. وإذا ما حصل أن ران الصمت لحظة واحدة فذلك لأن أحد المشاركين قد طرح سؤالاً محرجاً على المرشح، وهذا ما يمتع الحضور دائماً. ولكن سرور المعارضين لا يدوم طويلاً لأن صوت المرشح سرعان ما تغطيه صيحات الخصوم. ويمكننا أن نعتبر كمثال نموذجي على الاجتماعات الإنتخابية العامة محاضر الجلسات التالية التي أخذناها من بين مئات المحاضر الأخرى. وقد اقتطفتها من الصحافة اليومية. تقول هذه المحاضر:

«وعندما طلب أحد المنظمين من الحضور أن يعينوا رئيساً للاجتماع فإن العاصفة اندلعت. وكان الفوضويون يقفزون على المسرح من أجل انتزاع المكتب بالقوة. وراح الاشتراكيون يدافعون عنه بقوة، وحصل التناطح واللطم، وراحوا ينعتون بعضهم البعض

بالجـواسيس والعملاء، إلخ . . . وانسحـب أحـد المواطنين وعينه متورمـة.

وأخـيراً أعـادوا مكتب التصويت إلى مكانـه وسط الجلبة والضوضاء، وبقيت المنصة للسيد (س). . .

وراح الخطيب يصب جـام غضبه وحقده على الاشتراكيين الـذين قاطعوه قائلين: «أيها القميء! أيها اللص! أيها الوغد!»، إلخ. . . ورد الخطيب (س) على هذه النعوت باستعـراض طويل لنظرية تقول بـأن الإشتراكيين هم عبـارة عن «حمقى» أو «مهرجـين».

. . . وأما الحـزب الأليماني فقد نظم مساء أمس في قاعة التجـارة بشارع فوبورغ دو تامبل اجتماعاً كـبيراً وتحـضيرياً لعيد العمال الواقع في الأول من مايو/أيـار. وكان شعاره «الهـدوء والطمأنينة».

وقد نعـت الرفيق (ج. . .) الاشتراكييـن بـأنهم «قميئـون» و«هزليون» وبسبب هذه الشتائم المتبادلة بين الخطباء والحـضور حصلت اشتباكات بالأيدي بينهم، واستخـدمت فيها الكراسي والمقاعد والطاولات، إلخ. . .».

ينبغي ألا نتوهم أن مثل هذا النوع من المنـاقشات هو حـكر على طبقة معينة من النـاخبين دون غيرهم، أو أنها ناتجة عن حـالتهم الاجتماعية المتدنية. فالواقع أنه في كـل التجـمعات المغفلة نـلاحظ أن المناقشات تتخـذ نفس الطابع ونفس الأسلوب وتستخـدم نفس العبارات والكلمات حـتى ولو كان التجـمع مؤلفاً من المثقفين والمتأدبين. كـنت قد برهـنت على أن البشر المنخـرطين في الجمهور يميلون نحـو التساوي من الناحية العقلية والذهنية. وفي كل لحـظة نجـد البرهان على ذلك. إليكم الآن محضراً عن اجتماع مؤلف من الطلاب فقط:

«راح الصخـب يزداد كلما تقدمت السهرة. ولا أعتقـد أن أي خطيب استطاع أن يقول جملتين متتاليتين دون أن يقاطعه أحـد. وفي كل لحـظة كانت الصيحات تنطلق من هذه النقطة أو تلك، أو من كـل

الجهات في آن معاً. وكانوا يصفقون ويصفرون. وراحت المناقشات العنيفة تندلع بين مختلف السامعين، وارتفعت العصيّ في الجو مهددة بالضرب، وراحوا يضربون أرضية القاعة بشكل إيقاعي. وراح المشاغبون يلاحقون المقاطعين صارخين: «أخرجوا!» «اصعدوا على المنصة!».

وراح (م. س) يقذف الرابطة بكل أنواع النعوت السلبية: كالغبية والجبانة والمتوحشة والحقيرة والعميلة والحقودة. ثم صرح بأنه سيدمرها، إلخ...

ونحن نتساءل: كيف يمكن ضمن هذه الشروط أن يتشكل رأي الناخب؟ ولكن طرح مثل هذا السؤال يعني أننا نتوهم كثيراً حول درجة الحرية التي تتمتع بها جماعة ما أو جمهور ما. فالواقع أن للجماهير آراء مفروضة عليها، وليست ناتجة أبداً عن جهد ذهني أو محاكمة عقلية. وهذه الآراء بالإضافة إلى أصوات الناخبين تظل بين يدي اللجان الإنتخابية التي يقودها المحركون الذين هم في الغالب فئة من تجار الخمور. ولهم تأثير كبير على العمال لأنهم يقرضونهم بعض المال. كتب السيد شيرير أحد كبار المدافعين عن الديمقراطية يقول:

«هل تعرفون ما معنى لجنة انتخابية؟ إنها بكل بساطة مفتاح مؤسساتنا والركن الأساسي في آلتنا السياسية. أن فرنسا اليوم محكومة من قبل اللجان الإنتخابية»[1].

وبالتالي فليس من الصعب جداً التأثير عليها بشرط أن يكون المرشح مقبولاً ويمتلك موارد مادية كافية. وبحسب اعترافات الواهبين فإنه قد لزم لإنجاح الجنرال بولانجيه في الإنتخابات ثلاثة ملايين فرنك.

هذه هي نفسية الجماهير الإنتخابية. إنها مماثلة لنفسية الجماهير الأخرى، لا أحسن ولا أسوأ.

وإذن فإني لا أستخلص مما سبق أي خلاصة ضد حق التصويت

العام. وإذا كـان تقرير مصيره بيـدي فـإني سأحـافظ عليه كما هو لغايات عملية ناتجـة بالضبط عن دراستنا لنفسية الجماهير. وسوف أستعرض هذه الغايات بعد أن أكـون قد نبهـت إلى مساوىء التصويت العام.

بالطبع فـإن مساوىء التصويت العام هـي واضحة جـداً إلى درجة أنه لا يـمكن لأحـد أن يجهلها. فلا أحـد يستطيع أن يجحـد أن الحضارات هي من صنع أقليـة صغيرة متفوقة تشكل قمـة الهرم الإجتماعي. وتتسع طبقات هذه الهرم كلما نزلنا نحـو القاعدة ويتوافق ذلك مع تناقص القيمة العقلية لكل طبقة سفلى بالقيـاس إلى الطبقة العليا حـتى نصل إلى القاع. وهذه كلها تشكل الطبقات العميقة لكل أمة. وعظمة حضارة ما لا يـمكن أن تعتمد على تصويت العناصر الدنيـا من الأمة، فهـذه لا تمثـل إلا الكثـرة العددية. لا ريب في أن تصويت الجماهير لا يـزال خطر حـتى الآن. فهـو الـذي جـلب علينا غـزوات عديدة. وإذا ما انتصرت الإشتراكية فـإن نـزوات السيادة الشعبية سوف تكلفنا ثمناً غالياً أيضاً، بـل وأغلى من السابق.

ولكـن هذه الاعتراضات التي لا غبـار عليها من الناحيـة النظرية تفقد عملياً كـل قوتها إذا ما تذكرنا القوة الجبـارة التي لا تقهـر للأفكـار عندما تتحـول إلى عقـائد إيمانية. إن عقيدة السيادة الجماهيرية لا يـمكن الدفاع عنها من الناحية الفلسفية مثلها في ذلك مثل العقائد الدينية في الـقرون الوسطى، ولكنها تسيطر اليوم كلياً. وبالتـالي فمن المستحيل مهاجمتها اليوم كما كـان مستحيلاً مهاجمة الأفكـار الدينية في الماضي البعيد. لنفترض أن مفكراً حـراً حـديثاً قد انتقل للعيش في الـقرون الوسطى بواسطة قـوة سحرية. فهل تعتقدون أنه كان سيجـرؤ على محـاربة هذه الأفكار الدينية المسيطرة بـكل جبروتها على النفوس؟ وإذا ما سقط في يـدي قـاضٍ ما أراد حرقه بتهمة أنه عقـد حلفاً مع الشيطان أو أنـه تـردد على محفله في منتصف الليل، فهـل كان سيجـرؤ على نفي وجـود الشيطان أو محفله؟ ولا يمكننا منـاقشة عقائد الجماهير كما لا يمكننا مناقشة الإعصـار. إن عقيدة حـق التصويت العام تمتلك اليوم نفس القوة الجبروتية التي كانت تمتلكها العقائد المسيحية سابقاً.

فالخطباء والكتّاب يتحدثون عنها بكل احترام وخشوع لم يكن يحظى به الملك لويس الرابع عشر. وبالتالي فينبغي أن نتعامل معها كما كانوا يتعاملون مع كل العقائد الدينية. فالزمن وحده قادر على التأثير عليها.

إن محاولة زعزعة هذه العقيدة سوف يكون عديم الجدوى وخصوصاً أن الأسباب الواضحة والجلية تعمل لصالحها. يقول توكفيل بحق:

«في زمن المساواة لا يعود البشر يثقون ببعضهم البعض بسبب تشابههم، ولكن هذا التشابه يعطيهم ثقة لا حدود لها تقريباً في حكم الجمهور العام ورأيه، وذلك لأنهم يجدون من غير الممكن ألا تكون الحقيقة في جهة العدد الأكبر بما أن الجميع يمتلكون نفس العقل».

والآن هل يمكننا أن نفترض أن التصويت ينبغي أن يحصر بعدد محدود من الناس، أي بالنخبة، وبالتالي فيحسن ذلك صوت الجماهير؟ لا أستطيع قبول هذه الاحتمالية لحظة واحدة وذلك للأسباب المشار إليها آنفاً وخصوصاً للسبب التالي: هو الدونية العقلية لكل التجمعات والجماهير بالقياس إلى الفرد الواحد، أياً تكن نوعية هذه الجماهير وتركيبتها. ففي الجمهور، ولأكرر ذلك مرة أخرى، يتساوى البشر كلهم دائماً. ورأي أربعين عالم من الأكاديمية الفرنسية بخصوص القضايا العامة لا يختلف اطلاقاً عن رأي أربعين سقاءً (أو ناقل مياه). ولا أعتقد أن الانتخابات التي طالما عابوها على التصويت العام واعتبروها سلبية في نتائجها (كإعادة النظام الإمبراطوري إلى فرنسا مثلاً) كانت ستختلف لو أن التصويت انحصر فقط بالعلماء والأدباء. فأن يكون المرء عارفاً باللغة اليونانية أو بالرياضيات، أو أن يكون مهندساً معمارياً أو طبيباً بيطرياً أو طبيباً عاماً أو محامياً لا يعني أنه مزود فيما يخص مسائل العاطفة باستنارة خاصة تميزه عن الإنسان الأمي أو العادي. وكل خبرائنا في الإقتصاد هم أناس مثقفون، كلهم أساتذة وأكاديميون في معظمهم. فهل استطاعوا أن يُجمِعوا على مسألة عامة واحدة كمسألة الحماية الإقتصادية مثلاً؟ فأمام المشاكل الإجتماعية

المليئة بالمجاهيل العديدة والمُسَيطَر عليها من قبل المنطق الصوفي أو المنطق العاطفي كل الجهلة يتساوون.

وبالتالي فإذا كان الناخبون كلهم أناساً مليئين بالعلم فإن نتائج التصويت لن تكون أفضل مما هي عليه الآن. فستقودهم حتماً عواطفهم وروح الحزب الذي ينتمون إليه. ولن تنقص مشاكلنا عندئذٍ أبداً، بل على العكس ستزداد عن طريق الطغيان الثقيل للزمر ومصالحها.

وسواء أكان التصويت العام محصوراً بفئة ضيقة أم عاماً يشمل الجميع، وسواء أطبق في بلد ملكي أم في فرنسا أم في بلجيكا أم في اليونان أم في البرتغال أم في إسبانيا فإن تصويت الجماهير سوف يظل هو هو ويعبر غالباً عن آمال العرق وحاجياته اللاواعية. ومتوسط المنتخبين بالاقتراع العام يمثل بالنسبة لكل أمة الروح المتوسطة لعرقها. فهذا المتوسط نجده تقريباً هو ذاته من جيل إلى جيل.

وهكذا نجد أنفسنا وقد وقعنا مرة أخرى على مفهوم العرق الحاسم هذا. وكنا قد التقينا به في الماضي غالباً. كما ونجد أنفسنا محكومين بحقيقة أخرى مشتقة منه وهي أن المؤسسات والحكومات تلعب دوراً ضعيفاً جداً في حياة الشعوب. فهذه الشعوب مقودة بشكل خاص من قبل روح عرقها، أي من قبل بقايا الأسلاف العتيقة التي تشكل هذه الروح خلاصتها. إن العرق ودوامة الحاجيات اليومية هما السيدان السريان اللذان يتحكمان بمصائرنا.

الفصل الخامس

المجالس النيابية

إن المجالس النيابية تشكل جماهير غير متجانسة وغير مغفلة (أي معروفة أسماء أعضائها، فهم نواب). وعلى الرغم من اختلاف طرائق انتخابها طبقاً للعصور والشعوب فإنها تتشابه كثيراً بصفاتها وخصائصها. إن تأثير العرق يفعل فيها لكي يخفّف من هذه الصفات أو يضخمها ولكن ليس من أجل منع ظهور هذه الخصائص. والمجالس النيابية للأقطار الأكثر اختلافاً كاليونان وإيطاليا والبرتغال واسبانيا وفرنسا وأمريكا تبدي من خلال مناقشاتها وأصواتها تشابهاً كبيراً وتطرح على حكومات هذه البلدان نفس الصعوبات والمشاكل.

إن النظام البرلماني يلخص في الواقع المثال الأعلى لكل الشعوب المتحضرة الحديثة، إنه يجسد تلك الفكرة الخاطئة من الناحية النفسية ولكن المقبولة بشكل عام وشامل. تقول هذه الفكرة بأن تجمع العدد الكبير من الناس يكون أكثر قدرة من العدد الصغير على اتخاذ قرار حكيم ومستقل بخصوص موضوع محدد.

إننا نعثر في المجالس النيابية على الخصائص العامة للجماهير: كالتبسيطية في الأفكار، والنزق وسرعة الغضب، والقابلية للتحريض، والمبالغة في العواطف، والتأثير الكاسح للمحركين والقادة. ولكن بسبب من تركيبتها الخاصة فإن الجماهير البرلمانية تبدي بعض الخصائص المختلفة عن بقية الجماهير. وسوف نتحدث عنها بعد قليل.

إن التبسيطية في الآراء هي إحدى خصائصها الأكثر وضوحاً

وجلاء. فنحن نجد لدى كل الأحزاب، ولدى كل الشعوب اللاتينية أساساً، ميلاً دائماً لحل المشاكل الاجتماعية الأكثر تعقيداً بواسطة المبادىء التجريدية الأكثر بساطة وبواسطة القوانين العامة المطبقة على كل الأوضاع والحالات. بالطبع فإن المبادىء تختلف من حزب إلى آخر، ولكن بمجرد أن ينخرط الأفراد في جمهور ما فإنهم يميلون دائماً إلى تضخيم قيمة هذه المبادىء وإلى الدفع بها حتى نهاياتها. وهكذا يمكن القول بأن المجالس النيابية تمثل آراءً متطرفة.

والنموذج الأكثر جلاء على تبسيطية المجالس النيابية تحقق على يد اليعاقبة أثناء ثورتنا الكبرى. فقد كانوا كلهم دوغمائيين ومنطقيين، وكان دماغهم مليئاً بالعموميات الغامضة. وكانوا حريصين على المبادىء الثابتة دون أي اهتمام بالأحداث والوقائع الحية. ويمكننا أن نقول بهذا الصدد أنهم قد اجتازوا الثورة دون أن يروها.

فبواسطة بعض العقائد الدوغمائية القليلة كانوا يتوهمون بأنهم يعيدون صنع المجتمع من جديد، وإنهم يعيدون الحضارة المهذبة والرقيقة إلى مرحلة سابقة جداً من التطور الاجتماعي. والوسائل التي استخدموها لتحقيق هذا الحلم كانت أيضاً مطبوعة تبسيطية مطلقة. فلم يتورعوا في الواقع عن تدمير كل العقبات التي تعترض طريقهم بعنف. وكانوا جميعاً من جيرونديين وجبليين وتيرميدوريين، إلخ... مشبعين بنفس الروح.

إن الجماهير البرلمانية شديدة القابلية للتحريض والعدوى. وكما هي العادة دائماً فإن التحريض يصدر عن محرّكين أو قادة محاطين بهالة الهيبة الشخصية. ولكن قابلية التحريض والعدوى تظل محدودة في المجالس النيابية، وذلك للأسباب التالية.

فيما يخص كل المسائل ذات الأهمية المحلية نجد أن كل نائب يمتلك آراء ثابتة وراسخة لا يمكن لأي مناقشة عقلانية أن تزعزعها. فكل موهبة ديموستين لا يمكن أن تتوصل إلى تغيير صوت نائب ما بخصوص مسائل من نوع الحماية الاقتصادية أو امتيازات صانعي

المشروبات الكحولية الـذين يمثلون مطالب الناخبين النافذين. والاقتراح التحريضي السابق لهؤلاء الناخبين غالب ومهيمن إلى الحـد الذي يلغي فيه كـل الاقتراحـات الأخرى ويحـافظ على ثبوتية مطلقة للآراء[1].

وفيما يخص المسائل العامة كقلب وزارة أو فرض ضريبة ما، إلخ... نجـد أن ثبوتية الرأي تختفي، ويمكن عندئذٍ للاقتراحـات التحريضية للمحركين والقادة أن تفعل فعلها، ولكن ليس تماماً كما يحـصل في جمهور عادي. ولكل حـزب محركـوه وقادته الـذين يمارسون أحياناً نفوذاً متساوياً. وبالتالي فـإن النائب يجـد نفسه مُتَنازعاً بين عـدة اقتراحـات تحريضية متناقضة ويصبح بالضرورة شديد التـردد. هـكذا نجـده غالباً يغير رأيه في التصويت قبل ربع ساعة فقط، ويصوت بطريقة مغايـرة لما كان قد أعلنه سابقاً، أو يضيف إلى قـانون ما مادة تلغيه: كأن يحـرم الصناعيين مثلاً من حـق اختيار عمالهم أو طردهـم ثم يقدم بعدئذٍ تعديلاً على القانون يـؤدي إلى إلغاء مفعوله تقريباً.

ولهـذا السبب نجـد في كـل دورة نيابية أن البرلمان يبدي آراء ثبوتية جـداً وأخـرى ملتبسة جـداً. وفي نهاية المطاف لما كانت المسائل العامة هي الأكثر عـدداً فـإن الالتبـاس هو الـذي يتغلّب. وهـذا الالتبـاس يغذيه الخوف المستمر من الناخب، والاقتـراح التحريضي المضمر لهـذا الخوف يتوصل دائماً إلى موازنة تأثيـر القادة المحركين.

وهـؤلاء الأخيرون هم في نهاية المطاف الأسياد الحقيقيون للمناقشات التي لا يـكون للنواب آراء مسبقة أو ثابتة تجاهها.

إن الحاجة للقادة المحركين شيء لا جـدال فيه لأننا نجـدهم في كـل البلدان تحـت اسم رؤساء المجـموعات النيابية. إنهم الملوك الحقيقيون للمجـالس النيابية. والنـاس المنخـرطون في الجمهـور لا يمكنهم الاستغنـاء عن زعيم أو سيد، ولهـذا السبب فـإن التصويت الجـاري في مجـلس نيابي ما لا يعبر عموماً إلا عن رأي أقلية صغيرة.

إن القادة المحركين، ولنكرر ذلك مرة أخرى، يتحركون قليلاً جداً بواسطة العقل والمحاكمة العقلية، وكثيراً جـداً بواسطة هيبتهم

الشخصية. وإذا ما عرّتهم منها حالة ظرفية ما فإنهم يفقدون كل تأثير ونفوذ.

وهذه الهيبة التي يتمتع بها القادة المحركون فردية ولا علاقة لها لا بالإسم ولا بالشهرة. كان السيد جول سيمون قد عرف البرلمان كنائب وتحدث عن رجاله العظام عام (١٨٤٨)، وقدم لنا أمثلة مدهشة وغريبة فعلاً. يقول:

«لم يكن لويس نابليون شيئاً يذكر قبل شهرين فقط من تحوله إلى شخص جبار».

ثم صعد فيكتور هيغو إلى المنصة، ولم ينجح في مهمته. وقد استمعوا إليه كما يستمعون لفيلكس بيات، ولكنهم لم يصفقوا له بنفس القدر. قال لي فولابيل وهو يتحدث عن فيلكس بيات: «لا أحب أفكاره، ولكنه أحد كبار كتّاب فرنسا وخطبائها». أما إدغار كينيه، ذلك الرجل النادر والعظيم فلم يكن له أي شأن. فقد عرف شعبية كبيرة للحظة ما قبل افتتاح المجلس النيابي، ولكنه لم يكن يحظى داخل المجلس بأي شعبية.

إن المجالس النيابية السياسية هي آخر محل في الأرض يمكن للعبقرية أن تشع فيه. فلا أهمية فيه إلا للفصاحة الخطابية المتناسبة مع الزمان والمكان، وللخدمات المقدمة للأحزاب السياسية لا للوطن. أما الجمهور العادي فيتلقى هيبة القائد المحرك ولا يدخل في سلوكه أي مصلحة شخصية ولا ينتظر جزاء ولا شكوراً.

إن محرك الجماهير المزود بهيبة كافية يمتلك سلطة مطلقة تقريباً. ونحن نعرف حجم النفوذ الهائل الذي يتمتع به نائب مشهور طيلة سنوات عديدة بفضل هيبته الشخصية التي تضيع فيما بعد مؤقتاً بسبب بعض الأحداث والمشاكل المالية. فقد كان قادراً بمجرد إشارة من قِبَله أن يقلب وزراء عديدين. وقد سجل أحد الكتّاب في السطور التالية بشكل واضح أهمية عمله:

«نحن مدينون للسيد (م. س)... بأننا اشترينا جزيرة التونكان بسعر أغلى بثلاث مـرات مما كان ينبغي أن يكلفنا، وبـأننا لم نرسِّخ أقدامنا في مدغشقر، وبـأننا حرمنا أنفسنا من إمبراطورية كاملة على حوض النيجـر، وبـأننا خسرنا وضعنا المهيمن الـذي كنا نحتله في مصر. هـكذا نجـد أن نظريات (م. س)... قد كلفتنا من خسارة الأراضي أكثر مما كلفتنا مغامـرات نابليون الأول وكوارثه».

ولا ينبغي أن نـلوم كثيراً هـذا المحرك القائد المعنيّ بالكلام السابق. بالطبع فقد كلفنا غالياً جـداً، ولكن قسماً كـبيراً من تـأثيره عائد إلى أنه كان يتبع رغبات الرأي العام الـذي كانت آراؤه بخـصوص المسائل الاستعمارية مختلفة عما أصبحت عليه اليوم. إن المحـرك نادراً ما يسبق الرأي العام، بـل هو يجهـد في الغالب الأعم في تبني أخطائه.

والوسائل الإقناعية التي يستخـدمها المحركون بعد الهيبة الشخصية هي العوامل التي كنا قد عددناها مـرات عديدة. ولكي يتصرف بها بـذكاء ينبغي على المحرك أن يفهم أعماق نفسية الجماهير على الأقل بطريقة لا واعية. وينبغي أن يعرف كـيف يتحـدث إليها، وكـيف يعرف بشكل خـاص أن يستخـدم التأثير السحري للكلمات والشعارات والصور الإيحائية. وينبغي عليه أن يمتلك فصاحة خاصة تستخـدم طريقة التأكيـدات القاطعة والواثقة من نفسها، كما وتستخـدم الصور الإنطباعية المؤثرة والمحاطة بمحاكمات عقلية مبتسرة ومخـتزلة. ويمكننا أن نجـد هـذا النوع من الفصاحة البلاغية في كـل المجـالس النيابية بما فيها البرلمان الإنكليزي على الرغم من أنه أكثرها اتزاناً ورزانة. يقول الفيلسوف الإنكليزي «مين»:

«يمكننا أن نقـرأ دائماً منـاقشات مجـلس العموم حـيث نجـدها تقتصر على تبـادل العموميات الضعيفة التي تقوم بها شخصيات عنيفة بما فيه الكفاية. وهـذا النوع من العبـارات العمومية يمارس تأثيراً هـائلاً على مخيلة الناس في الديمقراطيات الحقيقية. فمن السهل دائماً أن نجعل جمهوراً ما يقبل المزاعم الأكثـر عمومية والمعروضة بـلغة مؤثـرة، هـذا

على الرغم من أنها غير محقَّقة وربما كان من المستحيل التحقُّق من صحتها».

إن أهمية «اللغة المؤثرة» المذكورة في هـذا المقطع ليست بحاجة إلى برهـان، ومهـما ألححنا عليها فلن نبالغ في ذلك. كنا قد ألححنا أكثر من مـرة على مـدى القوة والتأثير الخاص للكلمات والشعارات أو العبارات المختارة بطريقة تثير صوراً إيحائية وحية جـداً. إن العبـارة التالية التي استعرناها من خـطاب أحـد المحركين في المجـالس النيابية تقدم لنا عيِّنة ممتازة على ما نقول:

«في اليوم الذي تحـمل فيه نفس السفينة نحـو الأرض المضطربة للنفي والتغريب ذلك السياسي الفاسد والفوضوي القاتل في آن معاً، أقول في ذلك اليوم يمكنهما أن يتناقشا مع بعضهما البعض ويبـدوان لبعضهـما البعض كوجهـين متكاملين لنفس النظام الاجتماعي».

فالصورة المشـارة هنا واضحة، جـلية، مؤثرة. وكل خـصوم هذا النائب الخـطيب يشعرون بـأنهم مهـددون من قبلها، فهـم يـرون دفعة واحـدة البلدان المضطربة الهائجة، والسفينة التي قد تحملهم. أفلا يمكن القول إذن بـأنهم يشكلون جـزءاً من تـلك الفِئة المحـدودة جـداً من السياسيين المهدَّدين؟ ويشعـرون عندئذٍ بـذلك الخوف الصامت الـذي أحـس به أتبـاع الجمعية الوطنية المهـددين بشفرة المقصلة من قبل الخطابات الغامضة لروبسبيير. وكـان هذا الخـوف يجـرهم دائماً إلى الخـضوع.

ومن مصلحة المحركين أن يبـالغوا في الأمور ويضخموها إلى أبعـد حـد. فالخطيب الذي استشهدت بعبارة له قبل قليل استطاع أن يـؤكد بـدون أن يثير كـبير احتجاج بـأن أصحـاب المصارف والكهنة يستأجـرون قاذفي القنابل للعمل لصالحهـم!، وبـأن مديري الشركات المالية الكبرى يستحـقون نفس العقوبات كما الفوضويين. إن مثـل هذه الأساليب تؤثر دائماً على الجماهير. فمهما يـكن التأكيد مبالغاً فيه لا يـكون غاضباً بما فيه الكفاية، ولا الخطابة مهدِّدة بما فيه الكفاية. ينبغي دائماً تقديمَ المزيد

منهما. ولم يعد هناك أي شيء يخيف السامعين. فهم إذا ما احتجوا خافوا من اتهامهم بالخيانة أو التواطؤ.

وهذه الفصاحة الخطابية الخاصة هيمنت كما قلت قبل قليل على كل المجالس النيابية. وفي الفترات الحرجة تزداد حدتها. إن قراءة الخطب التي ألقاها الخطباء الكبار للثورة الفرنسية ممتعة جداً وعظيمة الدلالة من وجهة النظر هذه. فقد كانوا يعتقدون أنهم مضطرون لقطع خطابهم في كل لحظة من أجل فضح الجريمة وتمجيد الفضيلة، ثم ينفجرون باللعنات ضد الطغاة، ويقسمون بأنهم سيعيشون أحراراً أو يموتون. وكان الحضور ينهضون ويصفقون لهم بكل هيجان ثم يعودون للجلوس بعد أن يهدأوا.

ويمكن للقائد المحرك أن يكون أحياناً ذكياً ومثقفاً. ولكن ذلك يضره عموماً أكثر مما ينفعه. إن الذكاء إذ يبين تعقد الأشياء ويتيح تفسيرها وشرحها يجعل المرء أكثر تسامحاً ويُضعِف بالتالي إلى حد بعيد من حدة القناعات وعنفها. وهذه القناعات ضرورية للرسل والمبشرين كما هو معروف. إن القادة المحركين في كل العصور، وخصوصاً أولئك الذين برزوا أثناء الثورة الفرنسية، كانوا محدودي العقل جداً، ومع ذلك فقد مارسوا تأثيراً كبيراً.

إن خطابات أشهر واحد فيهم، أي روبسبيير، مذهلة في الغالب من حيث تناقضاتها وعدم تماسكها. وعندما نقرؤها لا نجد فيها أي تفسير معقول للدور الضخم الذي لعبه الديكتاتور الكبير. قيل عنها:

«إنها أشياء مبتذلة ومليئة بالتكرار الخاص بالفصاحة التربوية والثقافة اللاتينية الموضوعة في خدمة روح تبدو صبيانية أكثر مما هي مسطَّحة. وهي تحصر نفسها في الهجوم كما في الدفاع بتلك العبارة الخاصة بتلاميذ المدرسة: «هلموا إذن!». ليس فيها أي فكرة جديدة ولا لفتة ولا ميزة خصوصية. إنها تمثل الضجر في الإعصار. وعندما نخرج من هذه القراءة الكئيبة نشعر بالحاجة لأن نصرخ: أوف! كما كان يفعل الرجل اللطيف كامي ديمولان».

إنه لمن المرعب أن نفكر ولو للحظة واحدة بتلك السلطة التي يخلعها الاقتناع القوي على رجل محاط بهالة الهيبة الشخصية إذا ما اقترن هذا الإقتناع بضيق العقل والنظر. إنها لسلطة هائلة. ولكن هذين الشرطين (أي الإقتناع القوي وضيق النظر أو عدم التفكير بالعواقب) ضروريان لمن يريد أن يقتحم ويجهل العقبات. والجماهير تعرف هؤلاء القادة بالغريزة وترى فيهم السيد المطاع والرجل ذا التصميم العنيد الذي يلزمها.

ونلاحظ فيما يخص المجالس النيابية ان نجاح خطاب ما يعتمد تقريباً بشكل كلي على الهيبة الشخصية للخطيب، وليس أبداً على الحجج أو المقترحات التي يحتويها.

فالخطيب المجهول يصل إلى البرلمان بخطاب مليء بالحجج العقلانية والمقترحات الجيدة ولكن ليس له أي حظ في أن يُستَمع إليه إذا ما اكتفى بذلك.

وقد كتب نائب سابق هو السيد ديكوب السطور التالية وقدم لنا صورة عن الخطيب الذي لا يتمتع بهيبة شخصية. قال:

«عندما جلس على المنصة أخرج من حقيبته إضبارة ونشرها بتؤدة أمامه وابتدأ الكلام بكل ثقة.

وشعر بالزهو لأنه نقل إلى نفوس السامعين تلك القناعة التي تعمر صدره. ثم درس حججه وأعاد دراسته مراراً وتكراراً، وكانت مليئة بالأرقام الدقيقة والبراهين. وكان واثقاً من أنه على حق. وكل اعتراض على البراهين التي يقدمها راح يبدو عبثياً لا معنى له. وابتدأ كلامه وكله ثقة بأحقية موقفه وبمقاصد زملائه أيضاً، هؤلاء الزملاء الذين ينتظرون شيئاً واحداً هو: الانحناء أمام الحقيقة.

وراح يتكلم ويتكلم، ولكنه دهش فجأة لصدور حركة عن القاعة وشعر بالإنزعاج لهذه الضوضاء الصادرة.

راح يتساءل: لماذا لا يستتب الصمت؟ لم هذه اللامبالاة

العامة تجاه خطابي؟ بم يفكّر إذن أولئك النواب الذين يتحدثون فيما بينهم؟ ما الباعث الملح إلى مثل هذا الحد والذي يجعل النائب الفلاني يترك مكانه؟

وهكذا خيم القلق على جبينه، وقطّب حاجبيه وسكت. ثم شجعه الرئيس فانطلق من جديد ورفع صوته. ولكن إصغاءهم له انخفض أكثر. فشدّد لهجته وراح يهيج ويثور، ولم ينفع ذلك في شيء فقد ازدادت الضجة حوله. ولم يعد يسمع حتى نفسه فتوقف من جديد. ولكنه خشي من أن يؤدي صمته إلى إثارة الصرخة المشهورة: أقفلت الجلسة! فانطلق بقوة من جديد، ولكن الضوضاء أصبحت لا تحتمل».

إن المجالس النيابية إذا ما وصلت إلى درجة معينة من الهيجان تصبح مشابهة للجماهير العادية غير المتجانسة، وبالتالي فإن عواطفها تتميز دائماً بالتطرف. فنحن نجدها أحياناً تنجز أفعالاً بطولية، وأحياناً أخرى ترتكب أبشع الأعمال. فالفرد يبطل عندئذٍ أن يكون ذاته ويصوت على القرارات الأكثر تعارضاً مع مصالحه الشخصية.

إن تاريخ الثورة الفرنسية يبين لنا إلى أي مدى يمكن للمجالس النيابية أن تفقد وعيها وتتبنى المقترحات المعارضة لمصالحها. فتخلّي طبقة النبلاء الفرنسيين عن امتيازاتها كان يشكل تضحية هائلة، وعلى الرغم من ذلك فقد قامت بهذه الخطوة دون أي تردد في تلك الليلة الشهيرة للجمعية التأسيسية الفرنسية. وكان تراجع أعضاء الجمعية التأسيسية عن حصانتهم البرلمانية يشكل خطراً دائماً بالموت بالنسبة لهم، ومع ذلك فقد قاموا بذلك ولم يتورعوا عن تصفية بعضهم البعض وهم يعرفون جيداً أن منصة الإعدام التي يرسلون زملاءهم إليها اليوم سوف تكون من حظهم غداً. ولكن بعد أن وصلوا إلى تلك المرحلة من فقدان الإرادة الكاملة التي وصفتها، فإنهم لم يعودوا يستطيعون منع أنفسهم من الإنصياع للمقترحات التي تنوّمهم مغناطيسياً. إن المقطع التالي من مذكرات أحدهم «بيلو فارين» يشكل نموذجاً صارخاً فيما يخص هذه النقطة. يقول: «إن القرارات التي طالما لامونا عليها لم

نـكن نريدها غالباً قبل يومين أو حـتى يوم واحـد من التصويت. فقد كانت الأزمة وحـدها هي التي تثيرها». وليس هناك أكثر صحـة من هذا الكلام.

ونفس ظواهر فقدان الوعي تجـلت طيلة كـل الجلسات العاصفة للجمعية التأسيسية. يقول «تين» بهـذا الصدد ما يـلي:

«كانوا يوافقون على الـقرارات ويصدرون القرارات الخـاصة بكـل ما يزعجهـم ويخيفهم. لم يكونوا يوافقون فقط على الحماقات والجـنون وأنما على الجرائم أيـضاً وعلى قتل البريئين وقتـل أصدقائهـم. فقد تحـالف اليسار مع اليمين وأرسل بالإجـماع وتحـت التصفيق دانتون إلى خشبة المقصلة، هـذا على الرغم من أنه الزعيم الطبيعي للثورة وقائدهـا الكبير. وبإجماع اليمين واليسار وتحـت التصفيق راحـوا يصوتون على أسوأ قـرارات الحكومة الثورية. وبالإجـماع وبصرخـات الإعجاب والحماسة المرفقة بشهادات التعاطف القوي تجـاه «كولو ديربوا» وتجـاه «كوتون» و«روبسبيير» راحـت الجمعية التأسيسية تحـافظ على حـكومة القتل والإجـرام عن طريق إعادة الإنتخـاب العفوي والمتكـرر لها. هـذا على الرغم من احتقـار لابليـن لها لأنهـا قاتلة ومجـرمة، وعلى الرغم من احتقـار جماعة لامونتانييه لها لأنهـا تريد استئصالهم. وقد اتفق لابليـن ومونتانييه، أي الأكثرية والأقلية، في نهاية المطاف على مساعـدة هذه الحكومة على انتحـارهم الجماعي. وبتاريخ (٢٢) أيّار وافقت الجمعية التأسيسية كلهـا على مدّ عنقها للمقصلة. ثم في (٨) تمـوز وأثنـاء ربع الساعة الـذي تلا خـطاب روبسبيير مـدت عنقها مـرة أخـرى».

قد تبدو هذه اللوحة التي يقدمها تين سوداء. ولكنها صحيحة على الرغم من ذلك. فالمجـالس النيابية المستثارة بما فيه الكفاية والمنوّمة مغناطيسياً تبـرز نفس الخصائص كبقية الجماهير. فهـي تصبح عبـارة عن قطيع غنم متحـرك يخـضع لكل الدوافع الغرائزية. والوصف التـالي للمجـلس النيابي السائد عام (١٨٤٨) يقدم مثالاً نمطياً ونموذجياً على ذلك. وقد قـدمه لنا نائب لا يشك بإيمانه بالديمقراطية هو السيد سبولير، وسوف أثبته هنا نقلاً عن المجـلة الأدبية. ففيه نجـد كـل العواطف

المتضخمة والمبالغ فيها والتي استخلصتها سابقاً من دراسة الجماهير. وهذه الحركية الزائدة تتيح لنا المرور من لحظة إلى أخرى بكل سلم العواطف الأكثر تناقضاً. يقول النائب المذكور:

«إن انقسامات الحزب الجمهوري وشيوع الغيرة والارتياب في صفوفه بالإضافة إلى تناوب الثقة العمياء والآمال اللامحدودة على صفوفه قد أودت به في نهاية المطاف. ولم يكن يساوي سذاجته وبراءته إلا عدم ثقته العامة والكونية. لم يكن لديه أي حس بالشرعية القانونية، ولا أي فهم للنظام الداخلي. فاخترقته أنواع الإرهاب والأوهام التي لا حد لها. وكان الفلاح والطفل يلتقيان في هذه النقطة. وكان هدوؤهم يعادل نفاد صبرهم. وكانت وحشيتهم معادلة لوداعتهم. وهذه صفات الطبع غير الناضج والتربية المعدومة. فلا شيء يدهشهم، وكل شيء يزعجهم. فقد كانوا خائفين، مرتجفين، وكانوا شجعاناً، وأبطالاً في ذات الوقت. كانوا مستعدين لإلقاء أنفسهم في لهب النيران، وللتراجع خوفاً أمام شبح ما.

ولم يكونوا يعرفون الآثار الناتجة عن فعل ما أو العلاقات الكائنة بين الأشياء. وكانوا مستعدين بنفس الدرجة للإحباط كاستعدادهم للحماسة والإستثارة. وكانوا عرضة لكل أنواع الذعر، ودائماً أما في الأعلى جداً، وأما في الأسفل جداً. ولم يكونوا أبداً متوازنين أو حيث ينبغي أن يكونوا. كانوا أكثر سيلاناً من الماء، ويعكسون كل الألوان ويتخذون كل الأشكال. فأي قاعدة حكومة يمكن أن ترتكز عليهم؟».

لحسن الحظ فإن كل الخصائص التي انتهينا من ذكرها فيما يخص المجالس البرلمانية لم تكن تظهر باستمرار فيها. فالواقع يفرض علينا القول بأن المجالس النيابية ليست جماهيراً بالمعنى الإصطلاحي للكلمة إلا في بعض الأوقات. والأفراد الذين يشكلونها يتوصلون إلى المحافظة على فردانيتهم في حالات عديدة جداً، ولهذا السبب يمكن للمجالس النيابية أن تصوغ قوانين تقنية ممتازة. صحيح أن هذه القوانين يتم تحضيرها مسبقاً من قبل الاختصاصي في الصمت المطبق

للمكاتب الوزارية أو البرلمانية. والواقع أن القانون المصوَّت عليه هو من صنع فرد واحد، لا مجلس نيابي بأكمله. وهذه القوانين هي الأفضل بالطبع. ولا تصبح مدمِّرة أو سيئة إلا إذا لحقتها سلسلة من التعديلات التعيسة التي تجعلها جماعية. فعمل الجمهور أقل مستوى من عمل الفرد الواحد في كل مكان ودائماً. ووحدهم كبار الاختصاصيين في القانون هم الذين ينقذون المجالس النيابية من اتخاذ التدابير المضطربة والإرتجالية، وهم عندئذٍ يصبحون قادة ومحركين مؤقتين. فالمجلس النيابي لا يؤثر عليهم وإنما هم الذين يؤثرون عليه.

وعلى الرغم من كل صعوبات تسييرها، فإن المجالس النيابية تمثل أفضل طريقة وجدتها الشعوب حتى الآن من أجل حكم ذاتها، ثم بشكل أخص من أجل التخلص إلى أبعد حد ممكن من نير الإستبداد والطغيان الشخصي. ولا ريب في أنها تشكل المثال الأعلى للحكومة والحكم على الأقل بالنسبة للفلاسفة والمفكرين والكتاب والفنانين والعلماء، أي باختصار بالنسبة لكل أولئك الذين يشكلون ذروة حضارة ما.

ولا يهددها إلا خطران جديان هما: التبذير الاجباري للميزانية، والتقييد التدريجي على الحريات الفردية.

وأول هذين الخطرين هو نتيجة إجبارية لمطالب الجماهير الإنتخابية وعمى بصيرتها. فعندما يقترح نائب ما مشروع قرار يرضي المشاعر والأفكار الديمقراطية كأن يقترح مثلاً تقديم التقاعد لكل العمال، أو زيادة رواتب عمال الطرقات أو المعلمين، إلخ... فإن النواب الآخرين لا يستطيعون إلا الموافقة على الاقتراح خوفاً من أن يُتَّهموا بعدم المبالاة بمصالح ناخبيهم. ولكنهم يعلمون أن اعتماد القرار سوف يسيء كثيراً إلى ميزانية الدولة ويتطلب فرض ضرائب جديدة. ومع ذلك فمن المستحيل عليهم أن يترددوا في التصويت عليه. وذلك لأن النتائج المترتبة على زيادة المصروفات بعيدة بالنسبة لهم ولا تسيء لمصالحهم الشخصية، هذا في حين أن عدم تصويتهم على القرار المذكور يجعلهم يدفعون الثمن باهظاً في أقرب انتخابات مقبلة.

وبالإضافة إلى هذا السبب الأول الخاص بزيادة المصاريف هناك سبب آخر لا يقل إكراهاً وإلزاماً: هو الموافقة على كل المصاريف ذات المصلحة المحلية الصرفة. فلا يمكن لأي نائب أن يعترض عليها. وذلك لأنها تمثل مطالب الناخبين أيضاً، ولا يمكن لأي نائب أن يحصل على ما يحتاجه بالنسبة لدائرته الإنتخابية إلا إذا وافق على المطالب المشابهة لزملائه النواب الآخرين بالنسبة لدوائرهم(٢).

أما الخطر الثاني المذكور آنفاً والمتعلق بتقييد الحريات الفردية فهو غير ظاهر للعيان كالسابق ولكنه موجود بالفعل. فهو ناتج عن القوانين العديدة جداً والتي هي دائماً حصرية تقيد الحرية. والمجالس النيابية لا ترى انعكاساتها ونتائجها بسبب روحها التبسيطية، وبالتالي فهي تعتقد أن من واجبها التصويت عليها.

وهذا الخطر محتوم ولا مفر منه لأن انكلترا نفسها حيث يوجد أفضل نموذج للنظام البرلماني وحيث أن النائب هو الأكثر استقلالية بالقياس إلى ناخبه، أقول إن إنكلترا نفسها لم تستطع أن تتخلص منه. كان هيربرت سبنسر قد بيّن في كتاب قديم أن زيادة الحرية الظاهرية يعني التنقيص من الحرية الحقيقية. ثم استعاد نفس الأطروحة في كتابه «الفرد ضد الدولة»، وعبر عن رأيه تجاه البرلمان الإنكليزي على النحو التالي:

«راح التشريع منذ ذلك الوقت يتبع المسار الذي أشرت إليه. وراحت القرارات الديكتاتورية تتزايد بسرعة وقد مالت إلى التضييق على الحريات الفردية باستمرار، وذلك بطريقتين: أولاً طريقة التنظيم واتخاذ القرارات. ففي كل سنة كانت تتخذ القرارات بعدد أكبر وتفرض إكراهات قسرية على المواطن حيث كانت أعماله حرة تماماً سابقاً. ثم تجبره على إنجاز أعمال كان يمكنه سابقاً أن ينجزها أو لا ينجزها بمحض إرادته. وفي نفس الوقت راحت المسؤوليات العامة الثقيلة أكثر فأكثر، وبخاصة المحلية، تقلّص من حريته أكثر عن طريق التقليل من حصة الفائدة التي يمكنه أن يصرفها كما يشاء ويشتهي، وعن طريق

زيادة الحصة التي سلبت منه لكي تصرف طبقاً لأهواء موظفي الدولة».

وهذا التقليص المتدرج للحريات يتجلّى بالنسبة لكل البلدان على هيئة خاصة لم يشر إليها هيربرت سبنسر: نقصد سنّ عدد هائل من القوانين التشريعية، وكلها تنحو باتجاه التقليص والتقييد عموماً، وهذا ما يؤدي بالضرورة إلى زيادة عدد الموظفين المكلفين بتطبيقها وزيادة سلطتهم ونفوذهم. وهم يميلون بذلك إلى أن يصبحوا السادة الحقيقيين للبلدان المتحضرة. فسلطتهم قوية باستمرار لأن الحكومات تتغير وهم لا يتغيرون. ويحظون باللامسؤولية والغُفْلية والديمومة. ونحن نعلم أنه من بين كل أنواع الاستبداد فليس أكثر طغياناً من تلك التي تتحلى بهذه الصفات الثلاث.

إن سن القوانين باستمرار ودون توقف، وكذلك سن التشريعات المقيِّدة التي تغلِّف أصغر عمل من أعمال الحياة بعبارات بيزنطية معقدة، يؤدي في نهاية المطاف إلى التقليص التدريجي للدائرة التي يمكن للمواطنين أن يتحركوا داخلها بحرية. فالشعوب تقع ضحية ذلك الوهم القائل بأنه كلما زدنا من عدد القوانين فإن المساواة والحرية تصبحان مضمونتين بشكل أفضل. وهكذا تقبل في كل يوم بفرض إكراهات قسرية جديدة.

وقبولهم لها لا يمر بدون عقاب. فبما أنهم اعتادوا على احتمال كل العبوديات، فإن الأمر ينتهي بهم أخيراً إلى البحث عنها وفقدان كل عفوية وكل طاقة. ولا يعودون عندئذٍ إلا عبارة عن أشباح لا جدوى منها، وعن آلات ميكانيكية سلبية، بدون إرادة وبدون مقاومة وبدون قوة.

ولكن الطاقات والحوافز التي لم يعد الإنسان يجدها في نفسه تجبره على أن يبحث عنها في مكان آخر. وبسبب لا مبالاة المواطنين وعجزهم المتزايد فإن دور الحكومات سوف يكبر بالضرورة. وينبغي على هذه الأخيرة أن تمتلك روح المبادرة والقيام بالمشاريع وقيادة الأعمال والشؤون بعد أن فُقِدَ كل ذلك لدى الأفراد المستقلين. فالدولة

أصبحت مسؤولة عن كل شيء وحماية كل شيء. وتصبح الدولة عندئذٍ إلهاً جباراً. ولكن التجربة تعلمنا أن سلطة آلهة كهذه لم تكن أبداً دائمة ولا قوية جداً.

إن التقليص التدريجي لكل الحريات لدى بعض الشعوب يبدو أنه ناتج عن شيخوختها بقدر ما هو ناتج عن النظام السياسي. نقول ذلك على الرغم من مظاهر التحلل والإباحية التي قد توهم هذه الشعوب بامتلاك الحرية. وهذا التقليص يشكل أحد الأعراض المنذرة بمجيء مرحلة الإنحطاط التي لم تستطع أي حضارة في العالم أن تنجو منها حتى الآن.

وإذا ما تأملنا بدروس الماضي وعبره، ونظرنا إلى الأعراض البادية حولنا من كل الجهات فإننا نرى أن الكثير من حضاراتنا الحديثة قد وصلت إلى مرحلة الشيخوخة القصوى التي تسبق مباشرة الإنحطاط. وبعض التحولات تبدو قاتلة بالنسبة لكل الشعوب لأننا نراها تتكرر غالباً جداً في التاريخ.

ومن السهل أن ندرس باختصار مراحل هذه التحولات والمجريات التاريخية. وسوف نختم كتابنا بتقديم لمحة موجزة عنها.

إذا ما درسنا منشأ عظمة وانحطاط الحضارات التي سبقت حضارتنا بخطوطها العريضة فماذا نرى؟

نرى في بداية هذه الحضارات قلة من الرجال المنتمين إلى أصول متنوعة وقد اجتمعوا بحسب هوى الهجرات والغزوات والفتوحات. فهم من دماء مختلفة ولغات وعقائد مختلفة، وليس بينهم أي رابط مشترك إلا قانون الزعيم المعترف به نصفياً فقط. وفي هذا الخليط المتجمع نجد الصفات النفسية للجماهير في أعلى درجاتها. فهذه الجماهير تمتلك التماسك المؤقت والبطولات وأنواع الضعف والنواقص والغرائز الإندفاعية والعنف. فلا شيء ثابت فيها، إنهم برابرة.

ثم يمر الزمن ويكمل عمله. فتماثلية البيئة وتكرر التصالب

والتقاطع بين الجماعات وحاجيات الحياة المشتركة، كل ذلك يتضافر لكي يفعل فعله ببطء. وعندئذٍ تبتدىء هذه الوحدات غير المتجانسة في الإنصهار ببعضها البعض لكي تشكل عرقاً واحداً، أي ركاماً يمتلك خصائص وعواطف مشتركة تحددها عوامل الوراثة بالتدريج. هكذا يصبح الجمهور شعباً، وهذا الشعب سوف يستطيع الخروج من حالة البربرية.

ولكنه لن يخرج منها كلياً إلا بعد بذل جهود طويلة وصراعات عديدة ومحاولات لا تعد ولا تحصى تؤدي به في نهاية المطاف إلى اكتساب مَثَل أعلى يهتدي به. وليس مهماً طبيعة هذا المثل الأعلى. فسواء أكان عبادة روما أو قوة أثينا أو انتصار الله (أي الإسلام) فإنه يكفي لصهر كل الأفراد في العرق الذي هو في طور التشكل وجمعهم في وحدة العاطفة والفكر.

وعندئذٍ يمكن أن تولد حضارة جديدة بكل مؤسساتها وعقائدها وفنونها. وفي زخم الحلم يستطيع العرق المعني أن يكتسب على التوالي كل ما يعطي الشهرة والقوة والعظمة. وسوف يظل جمهوراً في بعض النواحي والأوقات بدون شك، ولكن وراء الخصائص المتحركة والمتغيرة للجماهير يوجد ذلك الجوهر الصلب والدائم، أقصد روح العرق الذي يحد بقوة من تذبذب شعب ما ويتحكم بعامل الصدفة والمفاجأة.

ولكن بعد أن يكون قد مارس عمله الخلاق فإن الزمن يبتدىء بعمله الآخر: أي التدمير. هذا التدمير الذي لا تنجو منه لا الآلهة ولا البشر. فبعد أن تصل الحضارة إلى مستوى معين من القوة والتعقيد، فإنها تتوقف عن النمو والكبر. وما إن تتوقف عن الكبر حتى تصبح مدانة بالانحطاط السريع. وعندئذٍ تدق ساعة الشيخوخة دون إبطاء.

ومن صفات هذه الساعة المحتومة وهنٌ يصيب المثال الأعلى الذي كان يدعم روح العرق البشري الصانع لهذه الحضارة. فكلما راح

هذا المثال يشحب ويضعف، فإن كل المؤسسات الدينية والسياسية والاجتماعية التي كان يلهمها تبتدىء بالتزعزع.

ومع الاضمحلال التدريجي لمثاله الأعلى، فإن العرق يفقد أكثر فأكثر كل ما كان يصنع تماسكه ووحدته وقوته. ويمكن للفرد عندئذٍ أن ينمو في شخصيته وذكائه، ولكن يحل في ذات الوقت محل الأنانية الجماعية للعرق نمو زائد جداً للأنانية الفردية مصحوبة بوهن الطبع والشخصية وبضعف في القابلية على الممارسة والإنخراط. وما كان يشكل شعباً ووحدة وكتلة متراصة يصبح في نهاية المطاف عبارة عن ركام من الأفراد الذين لا رابط بينهم، ولكن يتم الحفاظ على وحدتهم الشكلية بطريقة اصطناعية لفترة أخرى من الزمن عن طريق التقاليد والمؤسسات. ثم يصبح الناس منقسمين من حيث المصالح والمطامح ولا يعودون يعرفون كيف يحكمون أنفسهم. وعندئذٍ يطلبون بأن يقادوا ويحكموا في كل شاردة وواردة من أعمالهم، ويطلبون من الدولة أن تمارس عليهم تأثيرها المهيمن.

ومع الفقدان النهائي للمثال الأعلى القديم، فإن الأمر ينتهي بالعرق في نهاية المطاف إلى فقدان روحه. إنه لا يعود إلا ذرات متناثرة من الأفراد المعزولين، أي يعود إلى ما كان عليه في البداية: أي جمهوراً. إنه يمثل عندئذٍ كل خصائص الجمهور العابرة واللامتماسكة التي سرعان ما تتلاشى. ولا يعود للحضارة عندئذٍ أي ثبات فتسقط تحت رحمة كل الصدف والحوادث الطارئة. فالعامة أو الدهماء لا تمثل شيئاً، والبرابرة يتقدمون. ويمكن أن تبدو الحضارة لامعة لفترة أخرى أيضاً لأنها تحافظ على الواجهة الخارجية المصنوعة من قبل ماضٍ طويل، ولكنها في الواقع لم تعد إلا صرحاً منخوراً لم يعد أي شيء يدعمه، وبالتالي فهو قابل للسقوط بمجرد هبوب أول عاصفة.

وهذه هي دورة الحياة الخاصة بشعب ما: أي الإنتقال من حالة البربرية إلى حالة الحضارة عن طريق ملاحقة حلم ما، ثم الدخول في مرحلة الإنحطاط والموت ما إن يفقد هذا الحلم قوته.

الحواشي

مراجع المقدمة

ينبغي أن أشير منذ البداية إلى مدى استفادتي من كتاب سيرج موسكوفتشي عن «عصر الجماهير» حيث يكرس عدة فصول لغوستاف لوبون وكتابه «نفسية الجماهير».
— **Serge Moscovici: L'Age des foules, Fayard Paris 1981.**

وموسكوفتشي هو مدير دراسات في مدرسة الدراسات العليا في ساحة العلوم الاجتماعية، وأحد أهم الإختصاصيين في مجال علم النفس الاجتماعي في فرنسا.

كما واستفدت من آخر أطروحة جامعية مكرسة للوبون، وقد نشرت مؤخراً من قبل المطبوعات الجامعية الفرنسية. وهي للسيدة كاترين روفييه، أستاذة العلوم الاجتماعية في كلية الحقوق والاقتصاد والعلوم الاجتماعية بباريس.
— **Catherine Rouvier: Les idées politiques de Gustave Le Bon,** P.U.F, 1986.

هذا بالإضافة إلى كتاب «علم النفس الجماعي» الصادر عن المطبوعات الجامعية الفرنسية.
— **Pierre Mannoni: La Psychologie Collective,** P.U.F, 1985.

هوامش المقدمة

(١) انظر روبير ماندرو، الانسيلكوبيديا الكونية الفرنسية، مادة «تاريخ العقليات»، استشهاد منقول من فرويد.
Robert Mandrou, L'Encyclopédie Universalis, Article: histoire des mentalités.

(٢) انظر ب. أديلمان، إنسان الجماهير، باريس، ١٩٨١، ص ٧.
B. E delman, L'homme des foules.

(٣) سيغموند فرويد، مقالات في التحليل النفسي، منشورات بايو، ١٩٧٢، باريس ص ٨٩.
S. Freud: Essais de Psychanalyse, Payot, Paris, 1972.

(٤) انظر فرانسوا فوريه، التفكير بالثورة الفرنسية، غاليمار، ١٩٧٨، ص ١٦.
François Furet: Penser la Révolution française, Gallimard, Paris, 1978, p. 16.

(٥) انظر سيرج موسكوفتشي، عصر الجماهير، مصدر مذكور سابقاً، الصفحة ٧٩ والصفحة ٨١.

(٦) انظر هوركهايمر وأدورنو، جوانب من علم الاجتماعي، منشورات هاينمان، لندن، ١٩٧٣، ص ٧٥.
M. Horkheimer et T. Adorno, **Aspects of Sociology**, Heinemann, London.

(٧) انظر ز. ستيرنهيل، موريس باريس والقومية الفرنسية، منشورات أرمان كولان، باريس، ١٩٧٢.
Z. Sternhell, Maurice Barrés et le nationalisme français.

(٨) انظر غوستاف لوبون، علم النفس السياسي، باريس، ١٩١٠، ص ٥.
G. Lebon: La Psychologie Politique, Paris, 1910, p. 5.

(٩) مقطع استشهد به سيرج موسكوفتشي في كتابه المذكور آنفاً، ص ٨٨.

(١٠) انظر جوزيف شومبيتر، الرأسمالية، الاشتراكية، الديمقراطية، بايو، باريس، ١٩٦١، ص ٣٨٦.
J. Schumpeter: Capitalisme, Socialisme et démocratie, Paris, Payot, 1961, p. 386.

(١١) انظر كتاب سيرج موسكوفتشي المذكور سابقاً، ص ١٠١ - ١٠٢.

(١٢) مقطع استشهدت به كاترين روفييه في كتابها الأفكار السياسية لغوستاف لوبون، ص ٧٦ (مصدر مذكور سابقاً).
Catherine Rouvier: Les idées politiques de Gustave le Bon, P.U.F, 1986.

(١٣) انظر غوستاف لوبون، الآراء والعقائد، ص ١٦٩.
G. Le Bon: Les opinions et les croyances, p. 169.

(١٤) انظر غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ١٤.
G. Le Bon: La civilisation des Arabes, p. 14 .

(١٥) انظر سيرج موسكوفتشي، مصدر مذكور سابقاً، ص ١١٦ - ١١٧.

هوامش المقدمة
عصر الجماهير

(١) في الواقع أن مستشاريه الفطنين لم يكونوا يفهمونها أكثر منه. فقد كتب له تاليران مرة يقول: «بأن اسبانيا سوف تستقبل جنوده كمحررين ومخلصين لها». ونحن نعلم أنها استقبلتهم كالحيوانات المتوحشة. ولو كان هناك عالم نفس خبير بالغرائز الوراثية للعرق الاسباني لتنبأ بما سيحصل لجنود نابليون هناك بسهولة.

(٢) إن المؤلفين النادرين الذين اهتموا بالدراسة النفسية للجماهير قد درسوها كما قلت آنفاً فقط من وجهة نظر الجرائم التي قد ترتكبها. ولما كنت لم أخصص لهذا الموضوع الأخير إلا فصلاً قصيراً، فإني أحيل القارىء إلى دراسات السيد تارد وإلى كتيِّب السيد سيغيل: «الجماهير المجرمة». ولكن هذا البحث الأخير لا يحتوي على أي فكرة شخصية، وإنما هو تجميع للوقائع والأخبار الثمينة والمفيدة بالنسبة للعلماء النفسانيين الذين يمكنهم أن يستخدموها في التحليل. وعلى أي حال فإن النتائج التي توصلت إليها بخصوص جرائم الجماهير وأخلاقيتها معاكسة تماماً لآراء هذين الكاتبين المذكورين.

ويمكن للقارىء أن يجد في كتبي الأخرى وخصوصاً في كتاب «سيكولوجيا الإشتراكية» بعض النتائج المستخلصة من القوانين التي تتحكم بنفسية الجماهير. ويمكن استخدامها بخصوص الموضوعات الأكثر تنوعاً. وقد وجد السيد م. أ. جيفاريه مدير المعهد الملكي في بروكسيل تطبيقاً عملياً رائعاً للقوانين التي استخلصناها وذلك من خلال دراسة له عن الموسيقى التي يصفها بحق بأنها «فن الجماهير». وكتب لي هذا الأستاذ الكبير يقول: «إن كتابيك الإثنين هما اللذان قدما لي حل مشكلة كنت أعتقدها مستعصية على الحل ألا وهي: القابلية المدهشة التي يتمتع بها كل جمهور على تذوق أي عمل موسيقي حديثاً كان أم قديماً، محلياً أم أجنبياً، بسيطاً أم معقداً بشرط أن ينفَّذ بدقة ومن قبل عازف متحمس». ويبين لنا السيد جيفاريه بكل روعة كيف «أن العمل الموسيقي الذي يستعصي على فهم كبار الاختصاصيين الذين يقرأون التوليفات في عزلة مكاتبهم قد يفهم فوراً من قبل الجمهور الغريب على كل ثقافة موسيقية». وهو يفسر لنا أيضاً لماذا أن هذه الإنطباعات الجمالية لا تترك أي أثر.

هوامش الكتاب الأول

الفصل الثاني

(١) إن الأشخاص الذين شهدوا حصار باريس رأوا بأم أعينهم أمثلة عديدة على سذاجة الجماهير وسرعة تصديقها لأي شيء، بل وحتى للأشياء الأكثر غرابة. فمجرد إشعال شمعة في الطابق العلوي لأحد البيوت كان يعتبر مباشرة بمثابة علامة موجهة للجيوش المحاصِرة. ولو أنهم فكروا لحظتين فقط لعرفوا أنه يستحيل عليهم أن يشاهدوا ضوء هذه الشمعة عن مسافة أبعد نسبياً. فكيف يمكن إذن للجيوش المحاصِرة البعيدة جداً أن تراها؟

(٢) عن جريدة (إيكلير) بتاريخ ٢١ نيسان ١٨٩٥.

(٣) هل نعلم كيف جرت معركة حربية ما بشكل دقيق؟ إني أشك في ذلك. نحن نعلم من هم الغالبون والمغلوبون ولكن ربما لا نعرف شيئاً أكثر من ذلك. وما ينقله السيد داركور عن معركة سولفرينو كشاهد وكمشارك فيها يمكنه أن ينطبق على كل المعارك. يقول: «إن الجنرالات الذين تلقوا المعلومات بالطبع من قبل مئات الشهود ينقلون تقاريرهم الرسمية، والضباط المكلفون بنقل الأوامر يعدلون من هذه الوثائق ويكتبون المشروع النهائي. ثم ينقضه رئيس الأركان ويعيد كتابته من جديد. ثم ينقلونه إلى المارشال فيصرخ قائلاً: «أنتم مخطئون بشكل كامل!» . ثم يطلب كتابة المشروع مرة أخرى. وهكذا لا يبقى تقريباً أي شيء من التقرير الأولي». والسيد داركور ينقل هذه الواقعة لكي يبرهن على استحالة معرفة الحقيقة عن حدث يحصل أمام أعيننا.

(٤) وهذا ما يتيح لنا أن نفهم لماذا تحظى بعض المسرحيات بنجاح هائل بعد أن كانت قد رفضت من قبل كل مديري المسارح، وذلك عندما يتاح لها أن تمثل عن طريق الصدفة. ونحن نعلم بهذا الصدد مدى نجاح مسرحية السيد كوبي «من أجل التاج»، وكانت قد رفضت طيلة عشر سنوات من قبل المسارح الأولى على الرغم من شهرة اسم مؤلفها. وأما مسرحية «إشبينة شارلي» التي مثلت على نفقة سمسار الأوراق المالية فقد مثلت مائتي مرة في فرنسا وأكثر من ألف مرة في إنكلترا بعد أن كانت قد قوبلت بالرفض مرات عديدة من قبل المسارح ومديريها. ولا يمكن تفسير ذلك إلا باستحالة حلول مديري المسارح محل الجماهير من حيث العقلية والنفسية. ولا يمكن فهم ارتكاب مثل هذه الأخطاء في الحكم من قبل شخصيات ذات كفاءات عالية كمديري المسارح إلا بهذا الشكل.

الفصل الثالث

(١) منطقة الفاندي (La vendée) هي منطقة ريفية كاثوليكية جداً تقع جنوب غرب فرنسا وكانت معادية للثورة الفرنسية، ولذلك وقعت فيها مجازر مرعبة بعد الثورة (المترجم).

الفصل الرابع

(١) نسبة إلى الجنرال بولانجيه، وهو جنرال ورجل دولة فرنسي (١٨٣٧ ـ ١٨٩١). كان صديقاً لغامبيتا وكليمنصو. استطاع تجميع الجماهير الشعبية حوله من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. وقد شكل تياراً شعبياً في فرنسا أواخر القرن التاسع عشر (المترجم).

(٢) هذه هي أشهر مجزرة جرت للبروتستانت في فرنسا أثناء حروب الأديان الشهيرة. وقد جرت عام (١٥٧٢) في ظل الملك شارل التاسع وبلغت الذروة في فظاعتها ورعبها. فلم يتورع الكاثوليك عن استخدام كل الوسائل لتصفية البروتستانت الذين يمثلون «الهرطقة» داخل المسيحية في رأيهم. وقد عانت أوروبا كثيراً من حروب الأديان، ولم تنج منها إلا بعد انتصار الوعي العلمي التاريخي وحلول العاطفة الدينية الحديثة والمتسامحة محل العاطفة الدينية القروسطية (المترجم).

هوامش الكتاب الثاني

الفصل الأول

(١) بما أن هذه الفكرة لا تزال جديدة جداً حتى الآن، وبما أن التاريخ يظل غير مفهوم بدونها، فإني كرست فصولاً عديدة من كتابي «القوانين النفسية لتطور الشعوب» للبرهنة عليها. وسيرى القارىء فيه أنه على الرغم من المظاهر الخادعة فإنه لا اللغة، ولا الدين، ولا الفنون، ولا أي عنصر من عناصر الحضارة بقادر على البقاء كما هو إذا ما انتقل من شعب إلى آخر.

(٢) إن التقرير الذي قدمه عضو الجمعية التأسيسية بعد الثورة الفرنسية السيد فوكروا والذي استشهد به «تين» بليغ جداً بخصوص وجهة النظر هذه. يقول: «إن ما نراه في كل مكان من الاحتفال بيوم الأحد والتردد على الكنائس يعني أن غالبية الفرنسيين تريد العودة إلى العادات القديمة ولم يعد الوقت مناسباً لمقاومة مثل هذا الميل القومي...» ثم يردف قائلاً: «إن الأغلبية الكبرى من البشر بحاجة إلى الدين والشعائر والكهنة. وقد جُرّ بعض الفلاسفة المحدثين وجررت أنا شخصياً إلى نفس الخطأ عندما اعتقدنا بأن نشر التعليم في أوساط جماهير الشعب سوف يؤدي إلى تدمير الأحكام المسبقة الدينية. فالواقع أن هذه الأحكام المسبقة والعقائد تشكل بالنسبة للعدد الكبير من البؤساء مصدراً للعزاء...

وبالتالي فينبغي أن نترك لجماهير الشعب كهنتها وهياكلها وطقوسها».

(٣) هو جبل في فرنسا (المترجم).

(٤) هذا ما يعترف به في الولايات المتحدة حتى الجمهوريون الأكثر تقدماً. وقد عبرت الصحيفة الأمريكية (فوروم) عن هذا الرأي القاطع بالكلمات التي سأستشهد بها هنا اعتماداً على «مجلة المجلات» لشهر ديسمبر من عام (١٨٩٤): «ينبغي ألا ننسى أبداً حتى لدى ألد أعداء الأرستقراطية أن إنكلترا هي اليوم أكثر بلدان العالم ديمقراطية. فهي البلد الذي تحظى فيه حقوق الفرد بأكبر قدر من الاحترام، وهي البلد الذي يمتلك فيه الأفراد أكبر قدر من الحرية».

(٥) إذا ما قارنا بين الإنشقاقات الدينية والسياسية العميقة التي تفصل بين مختلف أجزاء فرنسا والتي تعود بشكل خاص إلى اختلاف العرق، بالاتجاهات الإنفصالية التي ظهرت أثناء فترة الثورة وعادت للظهور من جديد في نهاية الحرب الفرنسية ـ الألمانية، فإننا نلحظ جيداً أن الأعراق المختلفة المتبقية على أرضنا لا تزال بعيدة عن الانصهار ببعضها البعض حتى الآن. لا ريب في أن السياسة المركزية النشيطة التي اتبعتها الثورة وخلق محافظات اصطناعية من أجل خلط الأقاليم القديمة ببعضها البعض قد فعلا فعلهما النافع جداً. وإذا ما نجحت سياسة اللامركزية التي يدعو إليها بعض قصيري النظر اليوم فإنها ستؤدي حتماً إلى اندلاع الاضطرابات الدموية. والجهل بهذه الحقيقة يعني الجهل المطبق بكل تاريخنا.

(٦) انظر: التحليل النفسي للاشتراكية (أو نفسية الاشتراكية). الطبعة السابعة. ثم التحليل النفسي للتربية والتعليم، الطبعة الرابعة عشرة.

(٧) ولكن هذه ليست ظاهرة خاصة بالشعوب اللاتينية، فنحن نجدها أيضاً في الصين، البلد المحكوم من قبل مراتبية هرمية قوية من الموظفين، وحيث نجد أن الحصول على الوظائف الكبيرة يتم أيضاً عن طريق المسابقات. والامتحان الوحيد لهذه المسابقات يتركز على حفظ الكتب المدرسية السميكة عن ظهر قلب. فجيش المتعلمين بدون وظيفة يعتبر اليوم في الصين بمثابة الكارثة القومية. وكذلك الأمر فيما يخص الهند. فمنذ أن كان الإنكليز قد فتحوا فيها المدارس ليس من أجل التثقيف كما هو عليه الحال في إنكلترا، وإنما فقط من أجل تعليم السكان المحليين، فإنه قد تشكلت طبقة اجتماعية من المتعلمين المدعوين (بالبابو). وهؤلاء عندما لا يستطيعون الحصول على وظيفة فإنهم يصبحون أعداء ألداء للإنكليز. ونلاحظ لدى البابو الموظفين وغير الموظفين أن أول أثر من آثار التعليم عليهم هو انخفاض مستوى أخلاقيتهم. وكنت قد ألححت طويلاً على هذه النقطة في كتابي «حضارات الهند». وكل المفكرين الذين زاروا الهند لاحظوا نفس الظاهرة.

(٨) انظر: تين. «النظام الحديث»، الجزء الثاني، طبعة (١٨٩٤). هذه الصفحات هي تقريباً آخر ما كتبه تين. وهي تلخص بشكل رائع نتائج تجربته الطويلة. فالتربية والتعليم هما وسيلتانا الوحيدتان للتأثير قليلاً على روح الشعب. وإنه لمن المحزن بعمق ألا يوجد في فرنسا أي شخص تقريباً قادر على فهم حجم الإنحطاط الناتج عن تعليمنا الحالي. فبدلاً من أن يرتفع بالشبيبة إلى مستوى أعلى إذا به ينخفض بها ويفسدها.

الفصل الثاني

(١) في كتابي «القوانين النفسية لتطور الشعوب» ألححت مطولاً على الإختلاف الذي يفرق بين المثال الديمقراطي اللاتيني، والمثال الديمقراطي الأنغلوساكسوني.

(٢) كان الرأي العام الفرنسي واقعاً آنذاك تحت تأثير الروابط البشعة بين أشياء متنافرة. وقد درست آنفاً آليّة هذه الروابط. فحرسنا الوطني آنذاك كان مشكَّلاً من أصحاب الدكاكين المسالمين الذين لا يعرفون أي شيء في النظام العسكري، ولا أحد يحملهم على محمل الجد. وكل جيش يحمل نفس الإسم كان يثير نفس الصور وبالتالي فقد كان يعتبر مسالماً وغير هجومي. وكان خطأ الجماهير مشتركاً آنذاك كما يحصل غالباً للرأي العام في كل البلدان، أقصد كان قادتها ومحركوها يشاطرونها نفس الرأي. ففي الخطاب الذي ألقاه السيد تيير في مجلس النواب بتاريخ (٣١) ديسمبر عام (١٨٦٧) راح يكرر القول بأن بروسيا لا تملك ما عدا جيشها النظام المعادل لجيشنا إلا حرساً وطنياً يشبه حرسنا، وبالتالي فلا أهمية له. ومن المعروف أن السيد تيير هو رجل دولة طالما اتبع رأي الجماهير. وهذا الرأي لا نصيب له من الصحة، مثله في ذلك مثل رأيه الآخر حول سكك الحديد وأن لا مستقبل لها...

(٣) إن ملاحظاتي العملية الأولى عن فن التأثير على الجماهير وعجز قواعد المنطق عن فعل ذلك أو تفسيره تعود إلى فترة حصار باريس. إنها تعود إلى ذلك اليوم الذي شاهدتهم فيه يقودون الماريشال (ڤ) إلى مقر الحكومة الذي كان في اللوفر آنذاك... وشاهدت جمهوراً غاضباً يزعم أنه قد باغت الماريشال وهو ينزع مخطط التحصين لكي يبيعه إلى البروسيين (أي الألمان). وشاهدت أحد أعضاء الحكومة (ج. ب) وقد خرج لكي يخطب في الجماهير التي تطالب بإعدام السجين مباشرة. وكنت أتوقع أن يبرهن الوزير على حماقة هذه التهمة بالقول إن المارشال المتهم كان هو بالضبط أحد بناة هذه التحصينات التي تباع مخططاتها في الواقع في كل المكتبات. وكنت شاباً صغيراً آنذاك، وقد دهشت أيما دهشة لأن خطاب الوزير كان شيئاً آخر مختلفاً تماماً. فقد رأيته يتقدم نحو السجين وهو يقول: سوف نطبق حكم العدالة، وستكون لا رحمة فيها ولا شفقة. اتركوا حكومة الدفاع الوطني تنهي تحقيقها. وبانتظار ذلك سوف نسجن المتهم». وقد هدأ الجمهور بعد هذا الكلام وتفرق خلال ربع ساعة بعد أن أرضاه كلام الوزير. ثم عاد الماريشال إلى بيته. وكان سيقطع إرباً إرباً لو أن محاميه (أي الوزير) قد استخدم المحاجات المنطقية والعقلانية عندما خطب في الجمهور الغاضب، هذا على الرغم من أن هذه المحاجات كان ستقنعني، أنا الصغير السن جداً...

الفصل الثالث

(١) Murat - Ney: مورا: هو جواشيم مورا ماريشال فرنسا وملك نابلي (١٧٦٧ ـ ١٨١٥).
ني: هو ماريشال فرنسا أيضاً (١٧٦٩ ـ ١٨١٥) (المترجم).

(٢) انظر بهذا الصدد كتبي الأخيرة: علم النفس السياسي، والآراء والعقائد، والثورة الفرنسية.

(٣) انظر: غوستاف لوبون، الإنسان والمجتمعات، الجزء الثاني، ص ١١٦، طبعة ١٨٨١.

(٤) نلاحظ تأثير الألقاب والنياشين والألبسة العسكرية في كل البلدان على الجماهير حتى لو كان حس الإستقلالية الشخصية متطوراً جداً فيها. سوف أستشهد هنا بمقطع غريب من كتاب لأحد الرحالة حول هيبة بعض الشخصيات في إنكلترا.
«لاحظت في مناسبات عديدة مدى تأثر الإنكليز الأكثر عقلانية لرؤية أحد اللوردات. وإذا كانت شخصيته في مستوى مرتبته فإنهم يحبونه مسبقاً ويقبلون كل ما يصدر عنه بكل افتتان وإعجاب. وهم يسكرون فرحاً لمجرد الإقتراب منه، وإذا ما تحدث إليهم فإن الفرح الذي يشعرون به يزيد من هذا السكر ويجعل عيونهم تبرق بلمعان غريب. إن حبهم لأعضاء مجلس اللوردات يغلي في دمهم إذا جاز التعبير، كما أن الرقص موجود في دم الاسباني، وكما أن الموسيقى موجودة في دم الألماني والثورة في دم الفرنسي. وأما حماستهم لخيول شكسبير فأقل عنفاً، وفرحهم برؤيتها أو افتخارهم بها أقل أهمية. وأما كتاب النبالة فله أهمية كبرى، وحيثما ذهبنا وجدناه كالكتاب المقدس في كل الأيدي».

(٥) لما كان الإمبراطور واعياً بحجم هيبته فإنه كان يزيد منها عن طريق معاملة الشخصيات الكبرى المحيطة به بشكل أقل مما يعامل السائس. وكان من بينهم بعض أهم شخصيات الثورة الفرنسية المرهوبين في كل أوروبا. وحكايات ذلك الزمن مليئة بالوقائع الدالة فيما يخص هذه النقطة. فيحكى أن نابليون قد وبخ في أحد الأيام وفي عز مجلس الدولة الوزير بيغنو وعامله كخادم غبي. وبعد أن أخذ التوبيخ مفعوله اقترب نابليون منه وقال له: «والآن، أيها الأبله الكبير! هل عاد إليك رشدك؟». وكان بيغنو طويلاً جداً وكبير الحجم فانحنى أمام الإمبراطور الصغير الذي أمسكه من أذنه وعاقبه. وقد اعتبر بيغنو ذلك علامة على المحبة الهائلة والحظوة لدى السيد الذي اقترب من انسانيته». إن أمثلة كهذه تبين لنا حجم البلادة والسطحية التي قد تثيرها الهيبة والعظمة. وهي تفهمنا مدى الاحتقار الهائل الذي يعامل به المستبد الكبير رجال حاشيته.

(٦) كانت جريدة أجنبية من فيينا هي «نيو فري بريس» قد قدمت التأملات النفسية التالية بخصوص فردينان دي ليسبس، وهي على قدر كبير من الدقة والذكاء، ولهذا السبب فسوف أوردها هنا:

«بعد إدانة فردينان دي ليسبس لم يعد من حقنا أن ندهش للنهاية الحزينة التي لقيها كريستوف كولومبس. فإذا كان فردينان دي ليسبس عبارة عن نصّاب، فإن كل وهم نبيل هو عبارة عن جريمة. ولو أنه عاش في العصور القديمة اليونانية أو الرومانية لكُلّلت ذكراه بأكاليل المجد، ولشربت كأس الرحيق على شرفه وسط الأولمبيا. ذلك أنّه غيّر وجه الأرض وأنجز أعمالاً تكمل بدعة الخلق. إن رئيس محكمة الاستئناف إذ أدان فردينان دي ليسبس قد خلّد نفسه، وذلك لأن الشعوب تطلب دائماً اسم الرجل الذي لا يتورع عن الحط من قدر قرنه وعصره عندما يحكم بالأحكام الشاقة على رجل عجوز كانت حياته تمثل مجداً لمعاصريه. وإذن فنرجو أن يكفوا الحديث عن العدالة الصارمة عندما لا يكون هناك إلا الحقد البيروقراطي ضد المنجزات الكبرى الجريئة. فالأمم بحاجة إلى هؤلاء الرجال المقدامين المؤمنين بأنفسهم والذين يجتازون كل العقبات دون المبالاة بمصالحهم الشخصية. فالعبقرية لا يمكنها أن تكون حذرة، والحذر لا يمكنه أبداً أن يوسع من دائرة الفعالية البشرية. (. . .) لقد عرف فردينان دي ليسبس نشوة الإنتصار ومرارة الخيبات في السويس وپاناما على التوالي. وهنا نجد القلب يثور ضد أخلاقية النجاح. فعندما نجح دي ليسبس في الوصل بين بحرين فإن الملوك والأمم حيّوا مجده وشرفه. وأما اليوم فقد فشل أمام صخور كورديير، فلم يعد إلا نصّاباً حقيراً. . . أننا نجد هنا حرباً طبقية للمجتمع، ونقمة البيروقراطيين والموظفين الذين ينتقمون بواسطة القانون المجرم ضد أولئك الذين ينبغي أن يرتفعوا فوق مستوى الآخرين. . . فالمشرّعون المحدثون يجدون أنفسهم محرجين أمام هذه الأفكار الكبرى للعبقرية البشرية. والجمهور أكثر غباء من القضاة. وبالتالي فمن السهل على المحامي العام أن يبرهن على أن ستانلي هو قاتل، وأن دي ليسبس ليس إلا نصاباً وغشاشاً».

الفصل الرابع

(١) أقصد ببرابرة بالمعنى الفلسفي للكلمة. ولكنها خلقت من الناحية العملية حضارة جديدة كلياً وجعلت الإنسان يحلم لقرون طويلة بتلك الجنات البهيجة المشكلة من الحلم والأمل والتي لن يعرفها بعد اليوم.

ـ المقصود بأساطير مولوك: (Moloch): تدعى في اللغة العبرية ميليك. يعتقد بأنها آلهة كنعانية قديمة مذكورة في التوراة على أساس أنها ذات علاقة مع التضحية بالأطفال. ويعتقد الآن بأن الأمر يتعلق بضحية بشرية يتم تقديمها كقربان للآلهة بواسطة النار (المترجم).

(٢) Tibère: هو يوليوس قيصر تيبيريوس الإمبراطور الروماني الذي حكم في الفترة الممتدة بين (١٤ ـ ٣٧) بعد الميلاد (المترجم).

هوامش الكتاب الثالث

الفصل الأول

(١) يمكن للقارىء أن يجد التفاصيل حول مختلف فئات الجماهير في كتبي الأخيرة: (علم النفس السياسي، الآراء والعقائد، علم نفس الثورة).

الفصل الثالث

(١) لنلاحظ هنا مروراً أن هذا التقسيم أو التمييز الذي يقوم به المحلفون غرائزياً بين الجرائم الخطرة اجتماعياً والجرائم الأخرى ليس عارياً عن الصحة. فهدف القوانين المجرمة ينبغي أن يكون حماية المجتمع ضد المجرمين وليس الإنتقام له. ولكننا نلاحظ أن قوانيننا ثم بشكل أخص الروح التي تسيِّر قضاتنا لا تزال متأثرة بروح الانتقام الخاصة بالقانون البدائي العتيق. فلا يزال مصطلح الانتقام مستخدماً يومياً حتى الآن. ولدينا البرهان على وجود هذا الاتجاه لدى القضاة في رفض الكثيرين منهم تطبيق قانون بيرانجيه الممتاز الذي يسمح للمدان بتجنب المعاقبة إلا إذا كرر الجرم. هذا مع العلم أنه لا يمكن لأي قاضٍ أن يجهل أن تطبيق العقوبة الأولى يؤدي بشكل شبه محتوم إلى تكرار الجرم. والإحصاءات تثبت ذلك. فالقضاة الذين يطلقون سراح مذنب ما يتوهمون أنهم لم ينتقموا للمجتمع ولم يقتصوا لعدالته. فبدلاً من الانتقام له يفضلون أن ينتجوا مذنباً خطيراً.

(٢) إن مؤسسة القضاء تمثل في الواقع الإدارة الوحيدة التي لا تتعرض أعمالها لأي مراقبة أو ضبط. وكل ثورات فرنسا الديمقراطية لم تستطع أن تفرض عليها قانون الأمر بالمثول الذي تفتخر به إنكلترا كثيراً. (المقصود أمر قضائي بالتحقيق في قانونية سجن شخص معتقل). لقد أسقطنا الطغاة، ولكننا نجد في كل مدينة قاضياً يتحكم على هواه بشرف المواطنين وحريتهم. فأصغر قاضي تحقيق خارج لتوه من مدرسة الحقوق يمتلك السلطة المجحفة في إرسال أكبر المواطنين إلى السجن بناء على مجرد الإفتراض بالذنب، دون أن يحتاج إلى استشارة أحد أو يقدم أي تبرير لأحد. ويمكنه أن يبقيهم ستة أشهر في السجن أو حتى سنة كاملة بحجة التحقيق، ثم يخرجهم بعد ذلك دون أن يقدم لهم أي تعويض أو اعتذار بعد التأكد من براءتهم. إن أمر الإحضار يساوي الأمر التعسفي بالنفي أو بالسجن مع فارق واحد هو أن هذا الأخير الذي طالما عابوه على النظام الملكي لم يكنْ يستخدم إلا من قبل كبار الشخصيات،.هذا في حين أنه قد أصبح اليوم في متناول أيدي طبقة كاملة من المواطنين. ولا يمكن اعتبارها إطلاقاً الطبقة الأكثر استنارة واستقلالية.

الفصل الرابع

(١) إن اللجان المذكورة أياً يكن اسمها: نوادي، نقابات، إلخ... تشكل أحد أكبر الأخطار الناتجة عن قوة الجماهير وجبروتها. فهي تمثل، في الواقع، الصيغة الأكثر غُفْلاً وإبهاماً (أي لا شخصيةً) وبالتالي الأكثر قمعاً وطغياناً. وبما أنه يفترض في القادة المحركين للجان أنهم يتحدثون ويفعلون باسم الجماعة فإنهم يتملصون من كل مسؤولية شخصية ويستطيعون أن يفعلوا أي شيء. والطاغية الأكثر عنفاً لم يجرؤ أبداً على أن يحلم بتطبيق أوامر الحظر والمنع التي تمارسها اللجان الثورية. فكما قال باراس لقد ألغوا الجمعية التأسيسية وفرضوا عليها الخوّة. وكان روبسبيير حاكماً مطلق الصلاحية ما دام يتحدث باسم هذه اللجان. وفي اليوم الذي انفصل فيه الديكتاتور المرعب عنها لأسباب تتعلق بالكرامة الشخصية فإنه قد وقّع وثيقة موته. إن حكم الجماهير هو حكم اللجان وبالتالي حكم القادة المحركين. ولا يمكننا أن نتخيل استبداداً أرهب من ذلك.

الفصل الخامس

(١) لا ريب في أن العبارة التالية لأحد البرلمانيين الإنكليز تنطبق على هذه الآراء المثبتة سابقاً والتي أصبحت غير قابلة للمناقشة بسبب ضرورات المرحلة الإنتخابية: «منذ خمسين سنة وأنا نائب في البرلمان (وستمنستر) وقد سمعت آلاف الخطابات، والقليل منها أدى إلى تغيير رأيي، ولكن أياً منها لم يؤد إلى تغيير صوتي».

(٢) كشفت جريدة الإيكونوميست في عددها الصادر بتاريخ (٦) نيسان (١٨٩٥) عما يمكن أن تكلفه هذه المصاريف ذات المصلحة الإنتخابية خلال سنة واحدة، وخصوصاً المصاريف المتعلقة بسكك الحديد. فلكي يربطوا بين «لانغيز» (مدينة تعد ثلاثة آلاف شخص فقط) ومعلقة على سفح جبل بمدينة «بي» صوتوا على قرار مدّ سكة حديد تكاليفها خمسة عشر مليون فرنك. ولكي يربطوا بين «بومون» (ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص) بكاستيل سارازان بلغت تكاليف الخط سبعة ملايين. ولكي يربطوا بين قرية أوس (خمسمائة وثلاثة وعشرين شخصاً) وقرية سيكس (ألف ومائتي شخص) بلغت تكاليف الخط سبعة ملايين. ولكي يربطوا بين براديس وقرية أوليت (سبعمائة وسبعة وأربعين شخصاً) بلغت تكاليف الخط ستة ملايين، إلخ... وقد خصصوا بالنسبة لعام ١٨٩٥ فقط تسعون مليوناً لبناء سكك حديدية لا ضرورة لها. وخصصت مصاريف أخرى مشابهة لأغراض انتخابية محضة. والقانون الخاص بتقاعد العمال سوف يكلف لاحقاً مائة وخمسة وستين مليوناً سنوياً على الأقل. هذا ما قاله وزير المالية. ولكن بحسب عضو الأكاديمية لو روا بوالو فإنه سيكلف ثمانمائة مليون. وتزايد هذه المصاريف سوف يؤدي إلى الإفلاس حتماً. وهذا ما وصلت إليه بلدان كثيرة في

أوروبا كالبرتغال واليونان واسبانيا وتركيا. وسوف تصـل إليه بـلدان أخـرى لاحقاً. ولكن هـل ينبغي أن نقلق كـثيراً لـذلك إذا ما عرفنا أن الجمهور قد قبل تباعاً تخـفيض قسائم الدفع بنسبة أربعة أخـماس في بـلدان عديدة. وهذه الإفلاسات الماهـرة تتيح عندئذٍ إعـادة التوازن إلى هذه الميزانيات المعطوبة. فالواقع أن الحـروب والإشتراكية والصراعات الإقتصـادية تحضر لنا كوارث أخـرى أيضاً. وفي فتـرة التفكك الكوني التي دخـلناها ينبغي أن نقبل بالحياة يوماً ليوم دون الاهتمـام بالغد الـذي لا نستطيع التحـكم به أبـداً.

المحتويات

يرى غوستاف لو بون أن الجماهير لا تعقل، فهي ترفض الأفكار أو تقبلها كلا واحدا، من دون أن تتحمل نقاشها أو مناقشتها. فما يقوله لها الزعماء يغزو عقلها سريعا فتتجه إلى أن تحوله حركة وعملا، وما يوحى به للجماهير ترفعه إلى مصاف المثال ثم تندفع به، في صورة إرادية، إلى التضحية بالنفس.

إنها لا تعرف غير العنف الحاد شعورا، فتعاطفها لا يلبث أن يصير عبادة، ولا تكاد تنفر من أمر ما حتى تسارع إلى كرهه.

وفي الحالة الجماهيرية تنخفض الطاقة على التفكير، ويذوب المغاير في المتجانس، بينما تطغى الخصائص التي تصدر عن اللاوعي.

وحتى لو كانت الجماهير علمانية، تبقى لديها ردود فعل دينية، تفضي بها إلى عبادة الزعيم، وإلى الخوف من بأسه، وإلى الإذعان الأعمى لمشيئته، فيصبح كلامه دوغما لا تناقش، وتنشأ الرغبة إلى تعميم هذه الدوغما. أما الذين لا يشاطرون الجماهير إعجابها بكلام الزعيم فيصبحون هم الأعداء.

لا توجد الجماهير من دون قائد. والعكس صحيح أيضا، إذ لا يوجد قائد من دون جماهير، كما كتب لو بون قبل قرن من الزمن.

هذه الآراء راهنة اليوم، كما في الأمس، خصوصاً في العالم العربي حيث لا تزال الجماهير حائلاً دون ظهور العقل العاقل وطرد الغرائز.

ISBN 1 85516 815 4



DAR AL SAQI
26 Westbourne Grove London W2 5RH